



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية  
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي  
جامعة غرداية



مجلة

روافد

للبحوث والدراسات

دورية دولية علمية محكمة

يصدرها مخبر الجنوب الجزائري للبحث في التاريخ والحضارة الإسلامية

جامعة غرداية - الجزائر

العدد الأول

ربيع الأول 1438 هـ / ديسمبر 2016 م

ردمذ: 2543-3563

الإيداع القانوني: 1104 - 2016

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية  
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي  
جامعة غرداية

مجلة

# روافد

للبحوث والدراسات

دورية دولية علمية محكمة

يصدرها مخبر الجنوب الجزائري للبحث في التاريخ والحضارة الإسلامية

جامعة غرداية - الجزائر

العدد الأول

ربيع الأول 1438 هـ / ديسمبر 2016 م

توجه جميع المراسلات إلى:

مدير المجلة: أ.د. بوسليم صالح ، مدير مخبر الجنوب الجزائري للبحث في  
التاريخ والحضارة الإسلامية

على البريد الإلكتروني: Rawafid@yahoo.Fr

أو العنوان البريدي التالي:

جامعة غرداية ص ب 455 طريق المطار - النوميترات - بنورة ولاية  
غرداية 47000

الإيداع القانوني رقم : 1104 - 2016

ردمد : 2543-3563 ISSN

تنبيه

ما ينشر في المجلة إنما هو يعبر عن رأي صاحب المقال  
ولا يلزم أن يكون معبرا بالضرورة عن رأيها

## مجلة روافد للبحوث والدراسات

مجلة دولية علمية محكمة نصف سنوية، تعنى بالدراسات الاجتماعية والإنسانية والحضارة الإسلامية.

تصدر عن مخبر الجنوب الجزائري للبحث في التاريخ والحضارة الإسلامية بجامعة غرداية - الجزائر

تنشر البحوث والدراسات باللغة العربية والإنجليزية والفرنسية.

مدير المجلة الشرفي : الأستاذ الدكتور : دادة موسى بلخير مدير جامعة غرداية

مدير المجلة : أ.د. بوسليم صالح ، مدير المخبر

رئيس هيئة التحرير: د. أولاد سعيد أحمد

مساعد رئيس هيئة التحرير: د. عمر مونه

أعضاء هيئة التحرير:

أ.د. بحاز إبراهيم

أ. بوعروة بكير

د. كيحول بوزيد

أ. ملاخ عبد الجليل

د. جعفر عبد القادر

أ. قروي مصطفى

د. قرليفة حميد.

أمانة المجلة : محمد لمين سويلم

## الهيئة العلمية والاستشارية

### من الجزائر:

أ.د. العربي بن الشيخ	جامعة باتنة	أ.د. عبد الحميد حاجيات	جامعة تلمسان
أ.د. محمد حوتيه	جامعة أدرار	أ.د. عمار بن خروف	جامعة البويرة
أ.د. بوسليم صالح	جامعة غرداية	أ.د. السعيد فكرة	جامعة باتنة
د. بن الطاهر التجاني	جامعة الأغواط	أ.د. محمد الأمين بلغيث	جامعة الجزائر01
د. مصطفى وينتن	جامعة غرداية	أ.د. باجو مصطفى	جامعة غرداية
د. مونة عمر	جامعة غرداية	أ.د. عبد الله فلي	المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة
د. الزين محمد	جامعة سيدي بلعباس	أ.د. مجاود محمد	جامعة سيدي بلعباس
د. أرفيس باحمد	جامعة غرداية	أ.د. مبخوت بودواية	جامعة تلمسان
د.ة. أولاد حيمودة جمعة	جامعة غرداية	أ.د. عبد العزيز خواجه	جامعة غرداية
د. مصيطفى محمد السعيد	جامعة غرداية	أ.د. دباغ محمد	جامعة أدرار
د. قدوري يوسف	جامعة غرداية	أ.د. الشايب قدارة	جامعة قالمة
د. بقاير عبد الرحمان	جامعة غرداية	أ.د. ميلود سفاري	جامعة سطيف02

### من خارج الجزائر:

أ.د. عبد الحميد القدوري	جامعة الحسن الثاني الدار البيضاء المغرب
أ.د. ليلي مزيان	جامعة الحسن الثاني الدار البيضاء المغرب
أ.د. جوسلين الدخلية	مدرسة الدراسات العليا للدراسات الاجتماعية باريس
دومينيك فاليريان	مدرسة الدراسات العليا للدراسات الاجتماعية باريس
أ.د. فيل يب بوتري / جامعة السربون باريس فرنسا	منصر عدنان / جامعة سوسة تونس
أ.د. سلفاتوري بونو / جامعة يروجيا إيطاليا	علي حسين الشطشاط / جامعة بنغازي- ليبيا

محمد رزوق/ جاه الحسن الثاني الدار البيضاء المغرب	عائشة محمود عبد / جامعة عين شمس -مصر
أ.د. حليلة بوكروشة / الجامعة الإسلامية ماليزيا	محمد أمين/جاه سيدي محمد بن عبدالله المغرب
أ.د.سعد الدين منصور / الجامعة الإسلامية ماليزيا	حمودي ولد حمادي/جامعة نواكشوط موريتانيا

## قواعد النشر وشروطه

### أ- القواعد العامة:

- الالتزام بالقواعد العلمية والمنهجية المتعارف عليها في كتابة البحوث الأكاديمية.
- يجب أن لا يزيد عدد صفحات البحث عن 25 صفحة و أن لا يقل عن 10 صفحات من مقاس: A4.
- الالتزام بالدقة العلمية والاستقصاء مع سلامة اللغة .
- كتابة العناوين الرئيسية بخط عريض.
- يجب أن يتضمن المقال ملخصين يعبران عن محتوى المقال: الأول بلغة المقال والثاني مترجم إلى إحدى اللغتين (الإنجليزية أو الفرنسية).
- الالتزام بإرسال السيرة الذاتية المختصرة.
- يجب أن لا يكون البحث قد سبق نشره.
- تخضع كل البحوث والدراسات إلى التحكيم السري من قبل محكمين مختصين.
- للمجلة الحق في طلب إدخال التعديلات المناسبة بناء على تقارير المحكمين.
- يمنح الباحث- حسب الإمكانيات المتاحة- ثلاث نسخ من المجلة التي نشر بها بحثه.
- ما ينشر في المجلة يعبر عن رأي صاحب المقال، ولا يعبر بالضرورة عن وجهة نظر المجلة.
- الدراسات والبحوث التي تصل إلى المجلة لا تردُّ إلى أصحابها سواء نشرت أم لم تنشر.

## ب- القواعد التقنية :

### 1- كتابة النص :

- يكتب نص المقال ببرنامج وورد(Word)، بخط : ( Traditionnel Arabic) رقم 18 ، والهوامش برقم : 14. واللغة الأجنبية بخط : Times New Roman برقم : 14. والهوامش برقم : 12.
- تخصص الصفحة الأولى من المقال لكتابة المعلومات الأساسية ( عنوان البحث ، اسم الباحث أو الباحثين ، الدرجة العلمية ، اسم المؤسسة التي يعمل بها)، إضافة إلى ملخص البحث مع ترجمته .
- إذا تضمن المقال جداول أو أشكالاً فيجب أن توضع في مكانها المناسب مع ترقيمها .
- يرجى تجنب استخدام برامج أخرى في المقال كبرنامج Excel. في الجداول وغيرها.

### 2- الهوامش:

- يجب أن تكون الإحالات آلية تهمش أسفل الصفحة.
  - تسجل الإحالات عند أول ذكرها كما يلي : رقم الإحالة ، المؤلف ، عنوان الكتاب ، المحقق ، دار النشر ، مكان النشر ، تاريخ النشر ، الجزء ، الصفحة .
  - إذا كانت الإحالة إلى مقال منشور في دورية تسجل كما يلي :  
رقم الإحالة، المؤلف، عنوان المقال، اسم المجلة، البلد، العدد، السنة، الصفحة.
  - في حال تكرار المصدر أو المرجع يكتب بـ: المؤلف، مرجع سابق، الصفحة.
- تنبيه:** للمجلة أن تطلب من صاحب المقال إعادة الالتزام بالمواصفات الفنية المعتمدة.

## محتويات العدد

- 1..... افتتاحية العدد
- 3..... أهمية إدارة الجودة الشاملة في تحسين جودة خدمة التعليم العالي
- الأستاذ: أولاد حيمودة عبد اللطيف / جامعة قاصدي مرباح – ورقلة
- 27..... جوانب العدالة في تشريع الزكاة
- الدكتور: محمد السعيد مصيطفى / جامعة غرداية
- 59..... ظروف تأسيس الجبهة الجنوبية للثورة الجزائرية وأبرز قادتها
- الأستاذة: فطيمة الزهراء حوتية / جامعة أدرار – الجزائر
- جوانب من مظاهر الاهتمام الفرنسي بالتجارة العابرة للصحراء في الجزائر وإفريقيا الغربية (1850-1914م).....
- 75.....
- الطالبة الباحثة: دعاشي سميرة / جامعة باتنة
- السياسة الاستعمارية الفرنسية في الجنوب الجزائري ما بين 1873-1962م -
- 111..... منطقة المنيعنة نموذجا -
- الأستاذ: نواصر عبد الرحمان / جامعة يحي فارس المدينة
- إقليم توات (ولاية أدرار حاليا) في مشروع فصل الصحراء (1960-1962م)
- 129.....
- الأستاذة: أسماء ابلالي / جامعة أدرار
- جوانب من تأثيرات سياسة التوسع العسكري الفرنسي في صحراء الجزائر
- 161..... التفجيرات النووية جريمة ضد البشرية
- الدكتور علي العبيدي / جامعة تلمسان

مواقف سكان الجنوب الجزائري من مشروع السياسة الاستعمارية الفرنسية فصل  
الصحراء عن شمال البلاد ..... 183

الدكتور: الزين محمد / جامعة جيلالي ليابس - سيدي بلعباس

التفاعل التجاري والثقافي بين السودانيين والمغاربة خلال القرن 10هـ/16م . 205

الطالب الباحث: عميمور أيمن / جامعة الجزائر (02)

الحركة التجارية بين إقليم توات والسودان الغربي خلال القرنين 18-19م .. 251

الطالب الباحث: حامد لمين ابراهيم / جامعة غرداية

الجدور المغاربية لحركة الشيخ عثمان بن فودي في بلاد الهوسا خلال القرن التاسع  
عشر الميلادي ..... 283

الطالب الباحث: عطية عومار / جامعة غرداية

## افتتاحية العدد

بتوفيق من الله و معونته يصدر العدد الأول من مجلة روافد للبحوث والدراسات عن مخبر الجنوب الجزائري للبحث في التاريخ و الحضارة الإسلامية بجامعة غرداية ليتيح للباحثين منبرا علميا جديدا في مجال الدراسات الانسانية، الشرعية و الاجتماعية.

و الأمل يحدوننا أن تكون " روافد " داعما متميزا لجهود البحث العلمي النزيه الذي يضع نصب عينيه تحقيق نتائج بحث تواكب التطورات العالمية في مجال العلوم الانسانية و الاجتماعية و توجه لتنمية وطنية شاملة؛ و في تقديرنا أن ميدان العلوم الانسانية و الاجتماعية، و بحوث الحضارة الإسلامية، ركيزة لا غنى عنها لجزائر تؤكد عراقة شخصيتها و قوة مستقبلها.

لقد كانت العلوم الانسانية رائدة البحث العلمي على مر الأزمان، و لا يزال دبلوم الفلسفة، الذي تمنحه جامعات أوروبية عريقة، دليل اعتراف بذلك. و لأجل هذا تتعلق أمانينا في أن نعيد إلى هذه العلوم، بمختلف فروعها، مكانتها القيادية و التوجيهية لمنطلقات البحث و أهدافه؛ و لا شك أن طموحا مثل هذا لن يتحقق إلا بجهود الجميع في إطار من جودة البحث و أخلقته و أبعاده الإنسانية.

و إذ تتقدم هيئة التحرير بشكرها لسائر الأساتذة المشاركين في هذا العدد فإنها تسعد بدعوة الأساتذة و الباحثين من كل الجامعات و مراكز البحث، داخل الجزائر و خارجها، وباللغات العربية، الإنجليزية و الفرنسية في حقل الدراسات الانسانية، الشرعية و الاجتماعية للمساهمة في أعدادها القادمة، راجية من الله ﷻ أن يوفقنا جميعا لأداء واجباتنا العلمية.

رئيس التحرير

د. أحمد أولاد سعيد.



## أهمية إدارة الجودة الشاملة في تحسين جودة خدمة التعليم العالي

الأستاذ: أولاد حيمودة عبد اللطيف

جامعة قاصدي مرباح - ورقلة

### ملخص الدراسة:

يمثل التعليم العالي أهم دعائم تطوير المجتمعات البشرية وأدوات النهوض بها وذلك لما يحتله من مكانة في تهيئة وإعداد الأطر الفنية والعلمية المؤهلة لتحقيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية، إضافة إلى دوره في صناعة المعرفة والعلم ونشرها، وإن اعتماد نظم الجودة في التعليم الجامعي ما هو إلا استجابة لمتطلبات المجتمع وتحفيز الإبداع وإجراء البحوث العلمية لتحقيق التنمية الشاملة خدمة للمجتمع البشري. يأتي هذا المقال في مجال البحث حول تحسين جودة الخدمة التعليمية في ضوء مفهوم إدارة الجودة الشاملة (Total Quality Management)، حيث يعد هذا المفهوم من المفاهيم الإدارية الحديثة والتي ظهرت نتيجة للمنافسة العالمية الشديدة بين مؤسسات الإنتاج: اليابانية والأمريكية والأوروبية، إذ تمكنت اليابان بفضل جودة منتجاتها من اكتساح الأسواق العالمية والفوز برضا المستهلكين حول العالم، جراء استخدام إدارة الجودة الشاملة في المؤسسات: الاقتصادية والصناعية والتكنولوجية والتجارية، وترجع فلسفة الجودة إلى العالم الأمريكي ديمينج (Edward Deeming) والذي يسمي بأبي الجودة، ونظرا للنجاح الكبير الذي حققه هذا النهج الإداري بدأ الاهتمام باستخدامه في المؤسسات التعليمية بدرجة متزايدة. لقد أكدت العديد من الدراسات العالمية التي تبنت مفهوم إدارة الجودة الشاملة على أهمية ذلك النهج ونجاحه للحصول على منتج صناعي قادر على المنافسة في الأسواق العالمية، وكذلك الحصول على منتج تعليمي مناسب في

المؤسسات التعليمية ألا وهو نوعية الطالب الخريج من تلك المؤسسات القادر على الإسهام بتنمية المجتمع بكافة المجالات بصورة فعالة.

### **Abstract**

Higher education is the most important foundations for the development of human societies and their advancement to the position of prestige in the creation and preparation of technical and scientific frameworks for economic and social development. In addition to its role in knowledge, science and industry, and the adoption of quality systems in higher education is a response to the demands of society and to stimulate innovation and scientific research for the comprehensive development of human society. The intervention research on improving the quality of educational service in the light of the concept of TQM (Total Quality Management), which is the concept of modern management concepts, which have emerged as a result of strong global competition between production enterprises: Japanese, American, European, Japan, thanks to the quality of its products from sweep world markets and win the consent of consumers around the world, the use of total quality management in enterprises: Economic, industrial, technological, commercial, and returns us to the world quality philosophy Deming (Edward Deeming) called babe, and due to the great success achieved by this administrative policy began to be used in educational institutions increasingly. Many studies have confirmed that embraced the concept of total quality management on the importance of that approach and success for industrial product competitive in world markets, as well as getting a proper education in educational institutions is the quality

of the student graduate from these institutions can contribute to community development in all fields.

### مقدمة:

يُعد مفهوم إدارة الجودة الشاملة ( Total Quality Management ) فلسفة إدارية عصرية تركز على عدد من المفاهيم الإدارية الحديثة التي يُستند إليها في المزج بين الوسائل الإدارية الأساسية و الجهود الابتكارية من جهة، و بين المهارات الفنية المتخصصة من اجل الارتقاء بمستوى الأداء، و التحسين و التطوير المستمرين من جهة أخرى.

- كأى موجة إدارية تظهر و تطبق و تخضع للاهتمام و الانتشار، فقد بدأت إدارة الجودة الشاملة تحظى باهتمام الباحثين، و قد وجدت معظم الدراسات أن تطبيق إدارة الجودة الشاملة له انعكاسات إيجابية على أداء المنظمة التي تطبقها، وذلك من خلال تحسين معدل الربحية و انخفاض التكاليف و تحسين الأداء الحالي و تحسين علاقات الموظفين، و ارتفاع مستوى الرضا الوظيفي لديهم، و بوجود مؤشرات التي تبين جدوى إدارة الجودة الشاملة ازدادت أهميتها، و ازدادت سرعة انتشارها.

- إن من المفترض أن تقوم إدارة الجودة الشاملة برفع كفاءة و فعالية أداء الأعمال في أي منظمة إدارية سواء كانت جامعية او إدارة حكومة او شركة خاصة، على أن يعملوا معا على رفع جودة جميع الأعمال التي تقوم بها المنظمة .

- يُعد التعليم العالي من أهم ميادين الحياة التي تستأثر النوعية فيها باهتمام قطاعات المجتمع كافة، بسبب العلاقة المباشرة بين جودة التعليم العالي و النمو المجتمعي عامة و النمو الاقتصادي خاصة، إن التعليم العالي قد أصبح بحق قاطرة التقدم، و عدم توفيره بجودة عالية صفة واضحة للتخلف.

- إن إدارة الجودة الشاملة هي منهجية تتصف بالديمومة والاستمرار وليست محطة تنتهي بانتهاء برنامج معين أو زمن معين، لذا تتطلب المزيد من التدريب المستمر لحل المشكلات والتفكير بأساليب ابتكاريه، وهي تطمح للوصول إلى رضى المستفيد الداخلي في المؤسسة التربوية ألا وهو الطالب والمعلم والإدارة التربوية، أما المستفيد الخارجي فهو رضى المجتمع عن نوعية المنتج التعليمي، وما سيحققه ذلك المنتج التعليمي من فائدة للمجتمع، لذ أصبح من أهم المعايير على نجاح المؤسسات التعليمية هو نوعية الطالب الذي يتخرج من تلك المؤسسات وقدرته على خدمة مجتمعه بالطريقة المطلوبة، كما أن نظرة المجتمع الإيجابية لتلك المؤسسة تكسبها نوعاً من الاحترام والتقدير، الأمر الذي يؤدي إلى وجود منافسة شديدة بين المؤسسات التعليمية المختلفة على تحسين برامجها المختلفة وأهدافها للحصول على مخرجات تعليمية مناسبة وملائمة لخدمة وتطوير المجتمع.

#### مشكلة الدراسة:

- نظرا للنجاحات الكبيرة في تطبيق إدارة الجودة الشاملة في التعليم العام والجامعي وبرغم حداثة مؤسساتنا التربوية وخبرتها القليلة في هذا المجال، إلا أنه يمكن تطبيق مفهوم إدارة الجودة الشاملة من قبل الإدارات الجامعية.

ومن هنا ومن هنا جاءت مشكلة الدراسة متمثلة في الإجابة عن السؤال الرئيس التالي:-

كيف يمكن تطوير خدمة التعليم العالي بالاعتماد على مدخل ومفهوم إدارة الجودة الشاملة؟

I-الإطار النظري والمفاهيمي لإدارة الجودة الشاملة في مؤسسات التعليم

العالي:

ان التطور السريع في كافة قطاعات التعليم العالي و أنشطتها ، و استخدام التقنية ، كل ذلك أدى إلى تزايد أهمية الجودة و إدارتها و تعاضم دورها ، كما أدى إلى

تنوع المهام و اتساع الدور الذي تقوم به مؤسسات التعليم العالي مما أدى إلى زيادة الاهتمام بتطبيق النظام الخاص بإدارة الجودة الشاملة ، و ذلك بوصفه منهجا علميا، و وسيلة فاعلة للتطوير و النهوض بمستويات الأداء والخدمات .

### I-1: مفهوم إدارة الجودة الشاملة:

تعددت و تباينت رؤى الباحثين و المختصين حول تعريف إدارة الجودة الشاملة ، حيث أن لكل باحث مصطلحاته الخاصة بهذا المفهوم فمنهم من فصل بين مكونات الجودة الشاملة ، حيث يرى ان : الإدارة ( management ) تعني "التطوير و المحافظة على إمكانية المنظمة من اجل تحسين مستمر للجودة" .

- أما الجودة ( Quality ) فتعني "تحقيق رغبات و متطلبات المستفيد، بل و تجاوزها، و هي تلافي العيوب منذ المراحل الأولى للعملية بما يرضي المستفيد" .

- أما كلمة شاملة ( Total ) فتعني "البحث عن الجودة في أي مظهر من مظاهر العمل بدءاً من حاجات المستهلك أو المستفيد، و انتهاء بتقويم رضاه عن الخدمات المقدمة له" 1.

- من جهة أخرى نجد ان هناك كثيراً من الباحثين قد تعاملوا مع هذا المفهوم باعتباره وحدة واحدة ، فقد عرف بعضهم إدارة الجودة الشاملة على أنها "فلسفة إدارية تقدم على أساس رضا المستفيد و التصميم المتقن للخدمات أو المنتجات ، و التأكد من استمرارية هذا المنتج" 2.

---

1 محمد عوض الترتوري إدارة الجودة الشاملة في مؤسسات التعليم العالي 2004 م  
2 Cohen Steven and Ronald Brand, Total Quality Management : A practical Guide for the Real World , ( San Francisco : Jossy – Bass Publisher 1993

- في حين تعني إدارة الجودة الشاملة عند البعض على أنها "فلسفة صممت لتغيير الثقافة التنظيمية بما يجعل المنظمة سريعة في استجابتها و مرنة في تعاملها، و مركزة على الزبون، يشيع فيها مناخ صحي و بيئة تتيح أوسع مشاركة للعاملين في التخطيط و التنفيذ للتحسين المستمر و لمواجهة احتياجات الزبائن" 1 .

-إن الجودة بمعانيها وإيحاءاتها ليست اختراعاً غربياً محضاً، بل هي تستند على مخزون واسع من القيم الإنسانية والخبرة البشرية حيث إن الواحد منا يجد بسهولة صدى لكثير من هذه المعاني والقيم في تراثنا الإسلامي، ويمكننا التذليل على هذا بوفرة الإشارات التي جاءت في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، ومما جاء في القرآن الكريم: "الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً"، "ومن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره"، إذا فمعنى الجودة هو "الإتقان أي العمل الصحيح المتقن مع الاعتماد على تقويم المستفيد من معرفة الغرض لتحسين الأداء" (2) .

## I-2: فوائد تطبيق إدارة الجودة الشاملة:

ان تطبيق و استخدام مبادئ و مفاهيم إدارية معينة لا يمكن ان يحظى باهتمام الإدارة العليا إلا إذا ترتب على التطبيق والاستخدام لهذه المبادئ فوائد معينة، والتي من أهمها ما يأتي<sup>3</sup>:

1 Hoff her, Moran and Nadler, G. Thinking in Total Quality Management, Norcross: Gorger 1994, p12 .

2- محمد عبد العال النعيمي ، مراحل تطور مفهوم الجودة ودواعي الاهتمام بها عربياً وعالمياً (عمان : جامعة الشرق الأوسط للدراسات العليا ، 2008 ) .

3- راست و لاند و آخرون ، عائد الجودة لقياس النتائج المالية لبرنامج الجودة في شركتك ، ( القاهرة : دار غريب للطباعة ، 1996 ) .

1. تحسين نوعية الخدمات و السلع المنتجة .
  2. رفع مستوى الأداء عند العاملين في المؤسسة .
  3. تخفيض تكاليف الخدمات و التشغيل .
  4. العمل على تحسين و تطوير طرق العمل و أساليبه .
  5. زيادة الولاء و الانتماء عند العاملين للمؤسسة .
  6. استمرار و زيادة قدرة المؤسسة على البقاء و المنافسة.
- كما إن هناك فوائد يجنيها العاملون في المؤسسة نتيجة لالتزامهم بتطبيق إدارة الجودة الشاملة منها<sup>1</sup> :

1. استخدام العاملين لخبراتهم و قدراتهم و إعطاؤهم فرصة لذلك .
2. تنمية مهارات العاملين في المؤسسة من خلال إشراكهم في تطوير أساليب و إجراءات العمل في المؤسسة .
3. توفير و تسهيل التدريب اللازم للعاملين .
4. إعطاء العاملين الحوافز نتيجة للجهود التي يبذلونها للقيام بأعمالهم .

- كنتيجة حتمية و لظروف التغير السريع التي تمر بها كافة القطاعات الاجتماعية و الاقتصادية ، برزت الأصوات المنادية بالجودة التعليمية و فعاليتها على غرار القطاعات الأخرى و على رأسها الاقتصادية . فكانت نقطة تحول مهمة على طريق الإصلاحات التعليمية المرتكزة في أساسها على المبادئ الصحيحة لإدارة الجودة الشاملة من جهة ، و من جهة أخرى فهي مرتكزة على الطاقم او الفريق المتمتع بخبرة عريضة و الذي سيتولى قيادة هذه الحركة و هذا التغيير لتحقيق أهداف تحسين الجودة التعليمية و لاسيما الجامعية منها . و ذلك نظرا

1- موسى اللوزي ، التطوير التنظيمي أساسيات و مفاهيم ، (عمان : دار وائل للنشر ، 1999 )

لقيادتها دفعة التغيير الاجتماعية كما حددتها أهدافها الأساسية المتمثلة في محاولة الإسهام في تعديل و تغيير و تطوير الاتجاهات في المجتمع المحيط بالجامعة نحو الأفضل ، و العمل على مواكبة التغير الذي يجري في شتى المجالات العلمية و ذلك من خلال :

1. العمل على سد حاجة المجتمع من الكفاءات المتخصصة و القيادات الوطنية المدربة .

2. النظر في مشكلات المجتمع المحيط ، و محاولة فهمها و تحليلها ثم البحث عن حلول مناسبة لها .

3. و من هنا فإن التوجه لاستشراف المستقبل يضع العبء الأكبر على مؤسسات التعليم العالي في مواجهة التحديات السابقة ( 1 ) .

- نتيجة لذلك يتحتم على مؤسسات التعليم العالي ان تغير من هياكلها التنظيمية و خططها التعليمية بشكل فوري ، لكي تستطيع مواجهة التغيرات الاجتماعية و الاقتصادية و التكنولوجية المتسارعة ، إذ لم يعد النمط التقليدي في الإدارة و الأداء يصلح للجامعات ، و هنا لابد من البحث عن أنماط إدارية جديدة أكثر مرونة و قدرة على الاستيعاب و الانتشار و الإفادة من التكنولوجيا الحديثة ( 2 ) .

### I-3: مفهوم إدارة الجودة الشاملة في التعليم العالي:

يمكن النظر إلى إدارة الجودة الشاملة في التعليم على أنها نظام يتم من خلاله تفاعل المدخلات ، و هي الأفراد و الأساليب و الأجهزة لتحقيق مستوى عال من

1 أغادير عرفات جويجان و محمد عوض الترتوري ، المصدر السابق ، ص 75-76 .

2 عمر محمد خلف ، تحسين الأداء الإداري لمؤسسات التعليم العالي في الدول العربية ( عمان : مكتب اليونسكو الإقليمي للتربية في الدول العربية ، 1993 )

الجودة حيث يقوم العاملون بالاشتراك بصورة فاعلة في العملية التعليمية ، و التركيز على التحسين المستمر لجودة المخرجات لإرضاء المستفيدين . أما المدخلات فتكون من المناهج الدراسية و المستلزمات المادية و الأفراد ، سواء أكانوا طلبة أم موظفين أم أعضاء هيئة تدريس أم إدارة ، و أما المخرجات فتتمثل في الكوادر المتخصصة من الخريجين ، و المستفيدين من نظام التعليم من مختلف مؤسسات المجتمع التي تقوم بتوظيف هؤلاء الخريجين ( 1 ) .

-منهم من عرفها بوصفها إستراتيجية متكاملة للتطوير المستمر ، فهي مسؤولية جميع عناصر منظومة الجامعة من كتب و مكتبة و طلاب و أساتذة و مبانٍ و معامل و حواسيب الكترونية و غيرها ، و يجب مشاركة الجميع من قيادات إدارية و أساتذة في النجاح التنظيمي و تحقيق أهداف الجامعة ، فأى خلل سوف يؤثر على فرص التطوير و القدرة التنافسية ( 2 ) .

-يتبين مما سبق ان إدارة الجودة الشاملة هي عبارة عن ثقافة جديدة يجب ان تتبناها الجامعات ، و هي تهتم بالعناصر الآتية :

1. التركيز على الطلاب و المستفيدين و احتياجاتهم .
2. اعتبار الجودة جزءاً رئيسياً من إستراتيجية الجامعة .
3. التركيز على مشاركة العاملين و المديرين ، و تقوية الطاقات و الإمكانيات لتنفيذ معدلات الجودة العالية .
4. التركيز على الاستمرارية في التحسين .

---

1 عبد الستار محمد العلي ، تطوير التعليم العالي باستخدام الجودة الشاملة ، ( الإمارات العربية المتحدة / العين : 1996 ) ، ص 14 .

2 فريد النجار ، إدارة الجامعات بالجودة الشاملة ، ( القاهرة : ايتراك للنشر و التوزيع ، 1999 ) ، ص 70 .

5. اعتبار كل فرد في الجامعة او الكلية مسؤولا عن الجودة .

6. شمولية العمليات و الأنشطة التي تطور و تغير ثقافة الجامعة لتركز على جميع جوانب الجودة عبر عناصرها المختلفة و هي : المصادر ، و المدخلات ، و التشغيل ، و المخرجات ، و الاستخدامات ، و المقارنات الرقابية ، و البيئة ، و القيادة ( 1 ) .

- إذن يمكن القول ان مفهوم إدارة الجودة الشاملة في التعليم العالي يشير إلى الجهود التي يبذلها العاملون ( أساتذة و إداريون ) في المؤسسة التعليمية لرفع مستوى المخرجات التعليمية بما يتناسب مع متطلبات المجتمع . و تتناول عناصر الجودة الشاملة في التعليم العالي في الغالب ، البرامج ، و المناهج ، و أعضاء هيئة التدريس ، و المرافق الجامعية ، و العمليات الإدارية ، و دعم و مساندة الطلاب ، و عمليات التقويم و التغذية الراجعة ( 2 ) .

- بالنظر للعملية التعليمية كنظام فإن الجودة الشاملة تنصب على مدخلات و عمليات و مخرجات النظام التعليمي وهي موضحة بالشكل الآتي :

## II- مبررات تطبيق إدارة الجودة الشاملة في التعليم العالي:

تكمّن أهمية تطبيق إدارة الجودة الشاملة في الضرورة الملحة لمواكبة التغيرات الحالية في عصرنا الحاضر . و يمكن إجمال الفوائد التي يحققها تطبيق إدارة الجودة الشاملة في مؤسسات التعليم العالي في النقاط التالية :

1. إيجاد نظام شامل لضبط الجودة في الجامعات ، و الذي يمكنها من تقييم و مراجعة و تطوير المناهج الدراسية فيها .

1 المصدر نفسه ، ص 74 .

2 غسان قاسم داوود ، جودة الخدمة في التعليم العالي ، بحث غير منشور ( كلية الإدارة و الاقتصاد / جامعة بغداد ) ، ص 4 .

2. تساعد في تركيز جهود الجامعات على اتباع الاحتياجات الحقيقية للسوق الذي تخدمه .
3. إيجاد مجموعة موحدة من الهياكل التنظيمية التي تركز على جودة التعليم في الجامعات ، و التي تؤدي إلى المزيد من الضبط و النظام فيها .
4. تؤدي إلى تقييم الأداء ، وإزالة جميع الجوانب غير المنتجة في النظام التعليمي الجامعي ، و تطوير معايير قياس الأداء
5. أداة تسويقية تمنح منشآت التعليم العالي القدرة التنافسية .
6. طريقة لنقل او تحويل السلطة و المسؤولية إلى مستوى فرق العمل ، مع الاحتفاظ بنفس الوقت بالإدارة الاستراتيجية المركزية .
7. تؤدي إلى تطوير أسلوب العمل الجماعي عن طريق فرق العمل ، و إعطائهم مزيدا من الفرص لتطوير إمكانياتهم و تقويتها .
8. وسيلة فعالة للاتصال داخل و خارج الجامعة .
9. وسيلة لتغيير الثقافة بين الموظفين .
10. تقديم خدمات أفضل للطلبة ، و هو ما تدور حوله الجودة (1) .

- يمكن القول بأن الجامعة هي أهم مؤسسات التعليم العالي ، و هي محور أهدافها ، و بما ان الجامعة هي مصنع القوى العاملة في المجتمع ، فليس أفضل من ان تشكل هذه القوى على أساس النوعية و الكيفية بدلا من التركيز على الكم ، و منهج الجودة الشاملة يعني بالمؤسسة او الجامعة كنظام اجتماعي متكامل يؤثر

بعضه في بعض ، لا كأجزاء و مجموعات متناثرة متنافرة ، فبرنامج الجودة الشاملة يضع المبادئ و الأسس لمثل هذا التكامل .

-الجودة الشاملة إذا ما طبقت بالشكل الصحيح ، فإنها ستخفف من حدة النقد الموجه للجامعات ، كالقول بأنها تعمل في بروج عاجية بعيدا عن احتياجات المجتمع ، او إنها تُخرج كوادر و مهارات لا تتطابق مع احتياجات سوق العمل من حيث النوعية و الكمية و المواصفات<sup>(1)</sup> .

### III- محاور ادارة الجودة الشاملة في التعليم :

1- جودة عضو هيئة التدريس .

2- جودة الطالب .

3- جودة المناهج و طرائق التدريس .

4- جودة المادة العلمية .

5- جودة المباني و التجهيزات .

6- جودة القيادات الإدارية .

7- جودة التمويل ( الإنفاق ) .

### VI- مزايا تطبيق إدارة الجودة الشاملة في التعليم :

إن تطبيق إدارة الجودة الشاملة في أي مؤسسة هي أساس مهم لأداء العمل بإتقان وخاصة في مجال التعليم ، ولا شك ان الفروق بين مؤسسة تعليمية جيدة وأخرى ضعيفة هو طريقة إدارة تلك المؤسسة ، لذلك فأن الكثير من المؤسسات التعليمية وبالأخص في بعض الدول المتقدمة التي طبقت هذا النظام توصلت الى انه يضيف خدمة تعليمية غير متذبذبة ، وانضباطاً إدارياً داخلياً يوفر مناخاً للتوسع والتميز في الوقت نفسه ، ويمكن تلخيص مزايا تطبيق إدارة الجودة الشاملة على النحو

1 حسين محمد العلوي ، إدارة الجودة الشاملة في مؤسسات التعليم العالي ، ( جدة : مركز النشر العلمي 1998 ) ، ص 20 - 22 .

الآتي :-

- 1- الوفاء بمتطلبات الطلاب وأولياء الأمور والمجتمع وإرضائهم .
- 2- مشاركة جميع العاملين في إدارة المؤسسة التعليمية وان كل فرد على علم ودراية واضحة بدوره ومسؤولياته ومشاركته في التطوير والتحسين .
- 3- ربط أقسام المؤسسة التعليمية وجعل عملها منسجماً بدلاً في نظام إداري منفرد لكل قسم .
- 4- ضمان جودة الخدمات التعليمية المقدمة رغم اختلاف أنماط العاملين .
- 5- ترسيخ صورة المؤسسة التعليمية لدى الجميع بالتزامها بنظم الجودة في خدماتها .
- 6- المساعدة على وجود نظام شامل ومدرّوس للمؤسسة التعليمية .
- 7- المساعدة على تخفيض الهدر للمؤسسة التعليمية من حيث الموارد والإمكانات والوقت .
- 8- تطبيق ادارة الجودة الشاملة يقلل من البيروقراطية الإدارية والروتين المتكرر .
- 9- تشجيع على اللامركزية الإدارية للمؤسسة التعليمية .
- V- تحسين جودة الخدمة التعليمية وفق منظور إدارة الجودة الشاملة:**
- لقد وضع ديمنج برنامجاً لتحسين وتطبيق الجودة الشاملة يمكن إن يصلح للنظام التعليمي ، ويؤكد العديد من الباحثين الذين عملوا في ميدان الجودة الشاملة إن المبادئ الواردة في هذا البرنامج ، لا بد أن تدخل في تصميم أي منهج للجودة الشاملة سيطبق في أي مؤسسة تعليمية وهي تعد من المتطلبات الأساسية لتطبيق مفهوم ادارة الجودة الشاملة في النظام التعليمي .
- يتكون هذا البرنامج من (14) نقطة هي :
- 1- خلق حاجة مستمرة للتعليم وتحسين الإنتاجية والخدمة .
- 2- تبنى فلسفة جيدة للتطوير .
- 3- تطبيق فلسفة التحسينات المستمرة .

- 4- عدم بناء القرارات على أساس التكاليف فقط .
- 5- منع الحاجة إلى التفتيش .
- 6- الاهتمام بالتدريب المستمر .
- 7- توفير قيادة ديمقراطية واعية .
- 8- القضاء على الخوف لدى القيادات
- 9- إلغاء الحواجز في الاتصالات .
- 10- منع الشعارات التي تركز على الانجازات والحقائق .
- 11- منع استخدام الحدود القصوى للأداء .
- 12- تشجيع التعبير عن الشعور بالاعتزاز بالثقة .
- 13- تطبيق برنامج التحسينات المستمرة .
- 14- التعرف على جوانب العمل من خلال دورة ديمنج .

#### IV-متطلبات تطبيق إدارة الجودة الشاملة في التعليم العالي

إن تطبيق إدارة الجودة الشاملة في أية مؤسسة يتطلب توفر مهارات أساسية في مدير الجودة الشاملة و العاملين معه و هي:<sup>1</sup>

- وضع أهداف قابلة للقياس و الاهتمام بالتخطيط الاستراتيجي
- تدعيم العمل الجماعي على اعتبار أنه الأسس داخل التنظيمات
- الاهتمام بالتقدير و المكافآت عند انجاز العمال بالفعالية
- وضع معايير للرقابة و ضرورة استخدام أدوات و عمليات الجودة و الاعتماد على دورة ديمنج لتحسين الأداء.
- حث الأفراد على التعلم من الأخطاء

1 جميل نشوان، تطوير كفايات للمشرفين الأكاديميين في التعليم الجامعي في ضوء مفهوم إدارة الجودة الشاملة، مؤتمر النوعية في التعليم الجامعي الفلسطيني، جامعة القدس المفتوحة، جويلية 2004، ص8

- القدرة على توفير العلاقات الإنسانية و ما يتبعها من تفويض للسطو  
 ✓ أما متطلبات تطبيق إدارة الجودة الشاملة في التعليم العالي بصورة عملية  
 فتشمل

### 1- رسم سياسة الجودة الشاملة من حيث:

- تحديد المسؤول عن إقامة الجودة الشاملة
- تحديد كيفية مراقبة و مراجعة النظام من قبل الإدارة
- تحديد المهام المطلوبة و الإجراءات المحددة لكل مهمة
- تحديد كيفية مراقبة تلك الإجراءات
- تحديد كيفية تصحيح الإخفاق في تنفيذ الإجراءات

### 2- الإجراءات و تشمل المهام التالية:

- القدرة على التسجيل
- عمليات التقويم
- إعداد مواد التعليم
- اختيار و تعيين العاملين و تطويرهم

### 3- تعليقات العمل: يجب أن تكون تعليقات العمل واضحة و مفهومة و قابلة

للتطبيق

### 4- المراجعة : و هي الوسيلة التي يمكن للمؤسسة أن تتأكد من تنفيذ

الإجراءات

### 5- الإجراء التصحيحي: هو تصحيح ما تم إغفاله أو ما تم عمله بطريقة غير

صحيحة.

هذه المتطلبات المطروحة سابقا و غيرها و التي يتمتع الكثير من المؤسسات التعليمية بها تحتم على إدارة المؤسسات التعليمية بما فيها الجامعات للتحويل نحو إدارة الجودة الشاملة، و هذا يتطلب الجرأة من قبل القيادة العليا في المؤسسات نحو التغيير للأفضل بعيدا عن التعليم التقليدي، و هذا يستلزم تطبيق المداخل

السبع الأساسية، وهي عبارة عن أساليب أو طرق لإدارة الجودة الشاملة و تتكون من<sup>1</sup>:

1. الاستراتيجية Strategy: وهو أن يكون لدى القيادة العليا خطة تنموية عن مستقبل المؤسسة في السنوات (3-5) القادمة، و التدريب هو الحل الأنسب أمام المؤسسة لذلك.
2. الهياكل Structure: و يعني إعادة نظام جديد لتحسين المخرجات و زيادة فعالية العمليات مع إضافة ابتكارات جديدة تسهم في تحسين فعالية النظام.
3. العاملون Staff: و تعني معاملة العاملين بشكل لائق و إشباع احتياجاتهم من خلال استخدام أسلوب العلاقات الإنسانية في العمل.
4. المهارات Skills: و تعني تحسين القدرات و الكفايات البشرية من خلال التدريب المستمر من أجل ابتكار أساليب جديدة في العمل قادرة على المنافسة.
5. القيم المشتركة: و تعني إيجاد ثقافة تنظيمية جديدة و تحديد القيم السائدة و تبديلها بثقافة و قائية تلاءم التطور المستمر

#### IV- مبادئ تطبيق إدارة الجودة الشاملة في التعليم الجامعي:

يعرف "Likins Peter" أن الجامعة نظام له عدة أغراض لإمداد الأفراد بالفوائد المتعلقة بالتعليم، وعلى وجه التحديد فان هذه الفوائد مشتقة من الأنشطة التي توصف بالتدريس والبحث والخدمة العامة.

ويرى انه عندما تريد الجامعة تطبيق إدارة الجودة الشاملة يجب عليها الالتزام بالمبادئ التالية:

- الحاجة إلى أن يقوم كل فرد بالجامعة بتحديد رسالته الأساسية حتى تستطيع تطوير استمرارية الهدف.

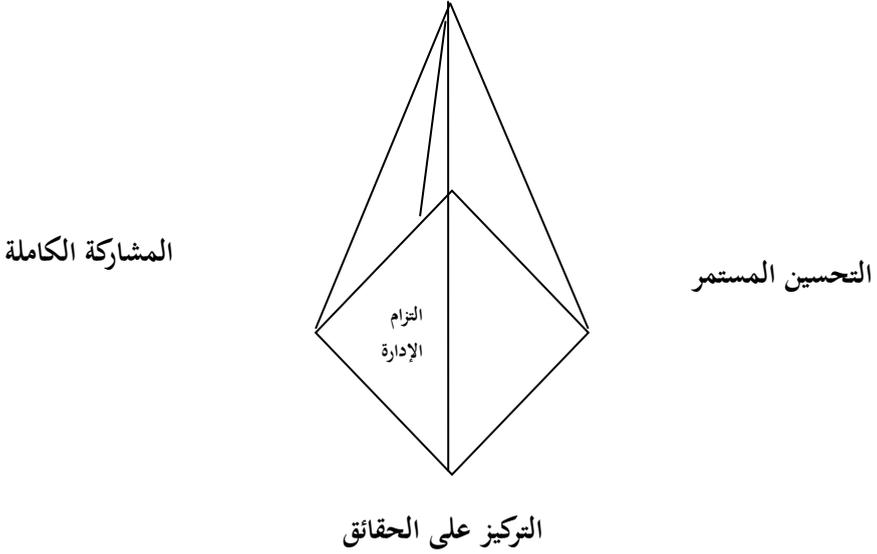
- تحديد الأهداف والمنافع والعملاء المراد خدمتهم ومحاوله فهم احتياجاتهم.  
- التركيز على احتياجات ورغبات عملاء الجامعة وقدرات الموردين، والعملاء هم (الطلاب-الأفرادالذين يشترون الأبحاث)، والموردون هم(المدارس الثانوية-والكليات والمعاهد الأخرى).  
-أن من مبادئ الجودة الشاملة أن يتم التعامل مع الموردين على أنهم شركاء وليس كمصادر توريد فقط.

-الالتزام بالجودة الشاملة، بمعنى أن تتبنى الجامعات كل هذه المبادئ، والالتزام بمعنى الجودة في كلمكان في المناهج، والبرامج، والمكتبات ومختبرات البحث، والالتزام يعني أيضاً الجودة لكل شخص.

ويرى Jens and Kai أنه يمكن عرض مبادئ الجودة الشاملة للتعليم الجامعي في شكل هرمي قاعدته التزام الإدارة وعند كل نقطة يمثل إحدى المبادئ وهي التركيز على العميل، والتركيز على التحسين المستمر، والمشاركة الكاملة، والتركيز على الحقائق ونوضح ذلك في الشكل الآتي:

## مبادئ الجودة الشاملة في التعليم العالي

التركيز على العميل



المصدر من إعداد الباحث مسترشدا بصلاح حسن بلام، "إدارة الجودة الشاملة كمدخل لتحسين مستوى الخدمات التعليمية في الجامعات المصرية الحكومية، أطروحة دكتوراه، كلية التجارة جامعة عين شمس، 2001، ص55.

-يتضح من الشكل أن مبادئ إدارة الجودة الشاملة في التعليم الجامعي أساسها التزام الإدارة أو القيادة لتحقيق المبادئ الأربعة الأخرى وهي التركيز على العميل والتركيز على الحقائق والتحسين المستمر والمشاركة الكاملة، وكل وجه من أوجه الهرم يعني ما يلي:

- المقصود التزام الإدارة بالتحسين المستمر وفي هذا تتبع الإدارة ما يسمى دائرة ديمنج، وهناك سبع نقاط تركز على الأربعة عشر نقطة لديمنج وهي من أجل المؤسسات التعليمية وتتضمن:

-اتفاق على الأهداف.

-التخلص من المداخل التقليدية.

-تحديد المسؤولية الإدارية والتي تبدأ من أعلى مستوى.

-بناء المنظمة يركز على التحسين المستمر.

-شرح التغيير وأسبابه لكل العاملين.

-تحديد وتعريف العميل والمورد.

-إشراك كل العاملين في فرق عمل وحلقات الجودة.

ومن هنا لا بد أن نوضح كل مبدأ من مبادئ الجودة الشاملة في التعليم الجامعي حسب التالي:

### 1-التركيز على العميل:

إن العميل في المجال التعليمي قد يكون خارجي (الطالب أو المجتمع أو سوق العمل) أو داخلي (الطلبة والموظفون) والطلبة ممكن أن يكونوا ممولين، وفي حالة كونهم ممولين فإنهم يمكنهم المشاركة الايجابية في العملية التعليمية، ويمكن هنا تطبيق مفهوم " العميل - المورد" حيث تسعى كل منظمة إلى إرضاء عميلها الخارجي والداخلي

-أنه يمكن اعتبار المرحلة الثانوية مورداً لمرحلة البكالوريوس بالجامعات ومرحلة البكالوريوس مورداً لمرحلة الدراسات العليا، وداخليا تكون كل مرحلة أو فرقة عميل في نفس الوقت لذلك إذا كان الأداء جيداً في كافة المراحل المتعاقبة

تكون النتيجة أداء كلي جيد ووفاء باحتياجات وتوقعات العميل الخارجي (سوق العمل).

## 2- التركيز على الحقائق:

لابد من وجود معايير خارجية وداخلية لقياس إدارة جودة التعليم، وهذه المعايير حيوية فالجودة الشاملة لا تتطلب فقط قياس درجة رضا العميل على المنتج النهائي (الخريجين) ولكن الرضاء أثناء العملية التعليمية، ولذلك فهناك أهمية لإدارة الجودة الشاملة للعملية التعليمية، وبالتالي وجود أدوات خاصة مع جمع بيانات فعلية من أجل عمليات القياس والتقييم.

## 3- التحسين المستمر:

إن تحسين الجودة داخلياً يتطلب أن تكون العملية التعليمية أكثر كفاءة وبالتالي تقل التكلفة، أما التحسين الخارجي فهو يتضمن تقديم منتجات جديدة (موضوعات جديدة طرق تعليم جديدة، نظم اتصال جديدة...).

ولقياس هذه الكفاءة لابد من مراجعة سنوية وأن تكون هذه المراجعة جزءاً من ثقافة المنظمة التعليمية، لذلك لابد أن يكون التعليم والتدريب في الجودة الشاملة جزء من العملية التعليمية بأكملها ولا بد من التعامل مع العملية التعليمية على أنها مستمرة ولا تنتهي بتقديم الخريجين لسوق العمل.

## 4- المشاركة الكاملة:

لابد من نظام للتغذية المرتدة من العميل من أجل قياس نجاح العملية التعليمية مما يتطلب مشاركة كل الأفراد (طلبة - عاملين - هيئات تدريس - الإدارة...).

أيضاً لابد من وجود برامج تدريبية على العمل في فرق، وهذه البرامج لابد أن تركز على:

-تعريف المشكلات - تعريف أسباب المشكلات.

-وضع الحلول المناسبة - المتابعة.

### الخاتمة:

تواجه المنظمات و منها المراكز أو مؤسسات التعليم العالي موجة من التحديات متمثلة في انخفاض الإنتاجية، و تبني أساليب غير فعالة لتحقيق الأهداف، و لمواجهة هذه التحديات كان لا بد من تطبيق السليم و الشامل لمفهوم إدارة الجودة الشاملة لتحسين مستويات الجودة و تمكين المنظمة من التميز، و ذلك عن طريق تحقيق عدد من الفوائد أهمها تحسين مستوى جودة المنتج و المتمثل في الطالب.

و في هذا الإطار على مؤسسات التعليم العالي أن تعمل على ترسيخ ثقافة الجودة بين الأفراد كأحد الخطوات الرئيسية لتبني إدارة الجودة الشاملة، ذلك أن تغيير المبادئ و القيم و المعتقدات التنظيمية السائدة بين أفراد المؤسسة الواحدة و جعلهم ينتمون إلى ثقافة تنظيمية جديدة تلعب دورا بارزا في خدمة التوجهات الجديدة في التطوير لدى المؤسسات التعليم العالي.

كما يجب على الإدارة العليا لمؤسسات التعليم العالي أن تصف بوضوح الهيكل التنظيمي بالتركيز على العمليات التي تساند تطور الجودة لضمان الاستمرارية و كفاءة المخرجات.

و لتطبيق إدارة الجودة الشاملة من أجل الحصول على مخرجات تعليمية مناسبة لا بد من:

❖ التنسيق بين القيادة التعليمية العليا سواء كانت في وزارة التعليم العالي أو الجامعات بقضية التحسين و التطوير المستمر لعملية التعليم بطريقة تواكب التغيرات و التطورات الحديثة.

- ❖ التركيز على تحسين أداء المشرفين الأكاديميين بصورة مستمرة على كيفية تطبيق مفاهيم الجودة الشاملة بالجامعة و متابعة أدائهم باستمرار.
- ❖ تهيئة الجو العام في مؤسسات التعليم العالي و خارجها على تقبل و انتشار ثقافة الجودة الشاملة.

### التوصيات:

- 1- ضرورة تركيز المؤسسات التعليمية على مواءمة مخرجاتها مع احتياجات و متطلبات مؤسسات سوق العمل لسد تلك الاحتياجات من جهة، و لضمان حصول الخريجين على فرص العمل المناسبة لتخصصاتهم.
- 2- ضرورة منح الجامعات قدرا كبيرا من الاستقلالية و عدم التدخل في قراراتها العلمية لأجل تحقيق الجودة في كافة مخرجاتها و لاسيما المستوى النوعي لجودة الخريجين باعتبارهم من أهم مخرجات التعليم العالي.
- 3- التركيز على عمليات و برامج التعلم و جعلها مرادفة لبرامج التدريس الاعتيادية كونها تعزز مستوى كفاءة المخرجات التعليمية و تسهم مساهمة كبيرة في ضمان جودة الخريجين.
- 4- الاهتمام بمبدأ التحسين المستمر *improvement continuous* في كافة المجالات ذات العلاقة بجودة التعليم و ذلك لضمان معالجة نقاط الضعف التي يتم اكتشافها، و الارتقاء بنقاط القوة المتحققة لمواكبة التقدم العلمي المستمر.
- 5- إجراء المقارنات المرجعية مع الجامعات الرائدة عربيا و عالميا و بشكل دوري بما يسهم في تحقيق ضمان الجودة بالمستوى المقبول عالميا.

- 6- العمل على استخدام الجامعات للاستراتيجيات التسويقية والترويجية المناسبة لتشجيع مؤسسات سوق العمل على الاستفادة من مخرجاتها بإطار واسع وفاعل.
- 7- المراجعة الدورية والمستمرة لاحتياجات مؤسسات سوق العمل ودراستها والعمل لتحقيقها.
- 8- وضع البرامج الكفيلة باستخدام المخرجات المستهدفة وجعلها من أهم مدخلات العملية التعليمية كإعداد مبكر للمخرجات المخطط لها مستقبلا.

المصادر:

- 1- جميل نشوان، تطوير كفايات للمشرفين الأكاديميين في التعليم الجامعي في ضوء مفهوم إدارة الجودة الشاملة، مؤتمر النوعية في التعليم الجامعي الفلسطيني، جامعة القدس المفتوحة، جويلية 2004.
- 2- حسين محمد العلوي ، إدارة الجودة الشاملة في مؤسسات التعليم العالي ، ( جدة : مركز النشر العلمي 1998).
- 3- راسست و لاند و آخرون ، عائد الجودة لقياس النتائج المالية لبرنامج الجودة في شركتك ، ( القاهرة : دار غريب للطباعة ، 1996 )
- 4- عمر محمد خلف ، تحسين الأداء الإداري لمؤسسات التعليم العالي في الدول العربية ( عمان : مكتب اليونسكو الإقليمي للتربية في الدول العربية ، 1993 )
- 5- عبد الستار محمد العلي ، تطوير التعليم العالي باستخدام الجودة الشاملة ، ( الإمارات العربية المتحدة / العين : 1996).
- 6- غسان قاسم داوود ، جودة الخدمة في التعليم العالي ، بحث غير منشور ( كلية الإدارة و الاقتصاد / جامعة بغداد).
- 7- فريد النجار ، إدارة الجامعات بالجودة الشاملة ، ( القاهرة : ايتراك للنشر و التوزيع ، 1999 )
- 8- محمد عوض الترتوري إدارة الجودة الشاملة في مؤسسات التعليم العالي 2004
- 9- محمد عبد العال النعيمي ، مراحل تطور مفهوم الجودة ودواعي الاهتمام بها عربياً وعالمياً (عمان : جامعة الشرق الأوسط للدراسات العليا ، 2008 ) .
- 10- موسى اللوزي ، التطوير التنظيمي أساسيات و مفاهيم ، ( عمان : دار وائل للنشر ، 1999 )

Cohen Steven and Ronald Brand, Total Quality Management : A practical Guide for the Real World , ( San Francisco : Jossy – Bass Publisher 1993 .

2- Hoff her, Moran and Nadler, G. Thinking in Total Quality Management, Norcross: Gorger 1994.

3-Macrobert . I. Hermeneutics and Human Relations The Total Quality Review, 1995 .

## جوانب العدالة في تشريع الزكاة

الدكتور: محمد السعيد مصيطفى

جامعة غرداية

### مقدمة.

الحمد لله العدل المين، والصلاة والسلام على رسوله أعدل الخلق أجمعين، وعلى آله وصحبه الثقات العدول الذين يحكمون بالحقّ وبه يعدلون، وعلى من اهتدى بهديه والتزم سنته وجعل العدل خلقه في الدنيا والدين، أما بعد

فإنّ موضوع العدالة في الإسلام من الموضوعات الكبيرة التي لا يحيط بها بحث محدود، ذلك أنّ العدل هو عماد الدين، وهو الغاية التي من أجلها أرسلت الرسل وأنزلت الكتب، وهو سرّ انتظام الكون، وهو مرتكز الحياة؛ إذ لا تستقيم بدونه في كلّ جوانبها الاجتماعية والاقتصادية، ولذلك ظلّ العدل ويظلّ مطمح البشرية ومنتهى آمالهم.

والعدل في الشريعة لا يقتصر على الجانب المادي فحسب، بل إنّه يدخل في كلّ جزئية من جزئياتها فضلا عن القواعد والكليات، ومثلما هو أمر أساس في جانب الأخلاق والمعاملات، هو أيضا مرتبط بالأحكام الشرعية، يدور معها في كلّ الأحوال والظروف، ويجعلها أعدل الأحكام على الإطلاق، وهو ما من شأنه أن يقرّر كمال الشريعة وصلاحيتها لكلّ زمان ومكان.

وبناء على ذلك يعتبر الجانب التشريعي من أوضح المجالات التي تتجلى فيها عدالة الإسلام وتتميز بوضوح، فما من حكم فيه إلّا وهو مضبوط بها ومؤكّد عليها؛ ومن بين تلك الأبواب ذات الصلة بالتشريع باب الزكاة، فإنّ من يتتبع أحكامها، يتبيّن له بجلاء اتصافها وارتباطها بذلك المبدأ الذي يجعلها تلتزم الإنصاف وتجنب الحيف والظلم.

ولكي نكشف بوضوح عن ذلك الأمر -باب الزكاة-، فقد اخترت هذا البحث الذي وسمته بعنوان: [جوانب العدالة في تشريع الزكاة]

### أهمية البحث :

تنبع أهمية موضوع هذا البحث من عدة جوانب :

.. من كونه يركّز على موضوع العدالة، وهو موضوع عظيم في الإسلام؛ لأنّ العدل نظام كلّ شيء وقوام كلّ أمر وميزان كلّ حكم، عليه قامت الأرض والسموات، وبه جاءت الشرائع والرسالات، فأنزل الله به كتبه، وبعث به رسله، وأمر به خلقه، وحثّ عليه في كثير من آيات الكتاب لكون الدين يقوم عليه والدنيا تستقيم به.

. لأن العدل يعدّ أساس تشريع الأحكام وعمود مقاصدها وقوام كلّ التصرفات والمعاملات، وعماد كلّ المواقف والالتزامات سواء الحقوق منها أو الواجبات، وهو شامل ومستغرق لكلّ الظروف والحالات، وهو ضمان لأحسن المآلات، وذلك لأنّ انتظام حياة الناس جميعها منوط بقدر ما عندهم من العدل وما يحققونه منه.

. وتنبع أيضاً أهمية موضوع هذا البحث من كونه يركز على إبراز جانب العدالة في فريضة الزكاة من حيث اتصاف أحكامها بذلك، وهو ما يجعل منها نموذجاً واضحاً ودليلاً ثابتاً على أنّ التشريع الإسلامي عموماً يقوم على ذلك الأساس ويعتمده مرتكزاً في وجوده.

. ومن أهمية هذا البحث أنه مقدمة مهمّة ودليل كامل يبرهن بوضوح على كمال شريعة الإسلام وصلاحيتها لكل زمان ومكان، لما تتصف به من عدالة أحكامها، وهو ما يجعلها تحقق المساواة بين الناس، وتبعد عنهم الظلم والجور،

خلافا لكلّ القوانين البشرية التي عجزت عن تحقيق ذلك رغم ما تدعيه من ديمقراطية وتقدم.

### مشكلة البحث:

تكمن مشكلة البحث في أنّ موضوع العدالة كثيرا ما تناوله العلماء كجانب من الجوانب العلمية المتعلقة بعلم الحديث أو الفقه أو الأصول، أو من حيث العموم كالعدالة الاجتماعية أو الاقتصادية، أو من حيث الجانب الأخلاقي فحسب، ولم يتناولوا دراسة هذا الجانب من الوجه التشريعي بشكل واضح وتفصيلي، يبرز هذا الأمر كأساس ومرتكز في تشريعات الإسلام.

فمن هنا كان هذا التساؤل: كيف يظهر جانب العدالة في التشريع عموما، وفي باب الزكاة على وجه الخصوص؟

### منهج البحث: استخدمت لمعالجة هذا البحث المناهج التالية:

- أ. المنهج الوصفي لتعريف مصطلح الزكاة، والعدالة وبيان مدلولاتها.
- ب المنهج التحليلي الاستقرائي، وذلك عند تتبع أحكام الزكاة وتلمس جوانب العدالة فيها.

وقد تناولت ذلك من خلال المطالب التالية:

المطلب الأول: ماهية العدالة في الإسلام.

المطلب الثاني: مفهوم فريضة الزكاة.

المطلب الثالث: مظاهر العدالة في أحكام الزكاة.

الخاتمة.

## المطلب الأول: ماهية العدالة في الإسلام

### أولاً: العَدَالَةُ في اللغة

تطلق مادة - ع د ل - عند علماء اللغة على عدة معانٍ تبعاً لورود استعمالها منها ما يغلب استعماله في التخاطب ومنها ما يندر ويقلُّ شيوعه. ويمكن عند التأمل إرجاع تلك المعاني إلى أصليين صَحِيحَيْن متقابلين. الأول: يدل على الاستواء، والثاني يدل على الانحراف.

فمن الأول:

- العدل من الناس: المرضي المستوي الطريقة. يُقال: هذا عدلٌ وهما عدلٌ، وعدلان، وهم عدولٌ، وإنَّ فلاناً لعدلٌ بين العدل والعدولة<sup>(1)</sup>.

- والعدل الحكم بالاستواء: ويقال للشيء يساوي الشيء: هو عدله. والمشرك يعدل بربه، كأنه يسوي به تعالى غيره، وعدل الموازين والمكاييل: سواها، وعدلت فلاناً بفلان إذا سويت بينهما.

- والعدل قيمة الشيء وفداؤه، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾<sup>(2)</sup> أي فدية، وكل ذلك من المعادلة، وهي المساواة.

- والعدل: ما قام في النفوس أنه مستقيم، وهو نقيض الجور. نقول: عدل في رعيته، ويوم معتدل، إذا تساوى حالاً حره وبرده. وكذلك في الشيء المأكول. ويقال عدلته حتى اعتدل، أي أقمته حتى استقام واستوى.

- والعدل: التزكية، يقال عدل الرجل: زكاه والعدلة والعدلة: المزكون، ورجل عدله وقوم عدله: هم الذين يزكون الشهود وهم عدول.

(1) وردت لفظة العدولة في القاموس المحيط ومقاييس اللغة دون اللسان.

(2) البقرة / 123.

وأما الثاني : فيقال في الانحراف: عَدَلْ وانعدل، أي انعرج وعَدَلْ عن الشيء: حاد عن الطريق: جار وعَدَلْ الطريق: مال ويقال: انظروا إلى سوء معادله، ومذموم مداخله: أي إلى سوء مذهبِه ومسالكه. وبعد كل هذه المعاني<sup>(1)</sup> لمادة «عدل» ومشتقاتها نلاحظ إفادتها معنى: الإنصاف، والتسوية، والاستقامة، والنزاهة والفدية والتركية، ونقيض الجور والقيمة والقوامة، والمهائلة والانعراج والميل.

### ثانيا: العَدَالَةُ في الشرع.

#### أ.الإطلاق العام.

تطلق لفظة العَدَالَةُ من جهة الشَّرْع كما وردت معانيها في نصوص الكتاب والسنة عموما على: «الاستقامة في الدين والدنيا»<sup>(2)</sup>.

وبجانب هذا الإطلاق العام، الناظر في النُّصوص الشرعية يجدها قد أوردت لفظة العَدَالَةُ سواء بصيغة الفعل أو المصدر تدل في معظمها على معانٍ متباينة تظهر من خلال السياق اللفظي الواردة فيه ..

ففي الكتاب المطهر وردت لفظة العَدَالَةُ بمشتقاتها في ثمانية وعشرين موضعاً<sup>(3)</sup> بمعانٍ متباينة نبين أصولها :

1- الاستقامة : ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾<sup>(1)</sup>، فقد أمر

(1) انظر: مجمع اللغة العربية بالقاهرة، المعجم الوسيط، ص(588). - الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب : القاموس المحيط، (4/13) فصل العين باب اللام. - ابن منظور، محمد بن مكرم : لسان العرب (10/106 - 449). - ابن فارس، أبي الحسين أحمد: معجم مقاييس اللغة، (4/246).

(2) السرخسي، أبو بكر محمد بن أحمد بن أبي سهيل الحنفي: أصول السرخسي، (3/113).

(3) عبد الباقي ، محمد فؤاد : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص(448-449).

الله تعالى عباده بالعدل وهو الاستقامة على الحق، قَالَ عبد الله بن عَبَّاس رضي الله عنه : « العدل شهادة أن لا إله إلا الله »،

2- إعطاء كل ذي حق حقه: ومنه قول الله تعالى: ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ (2). فهذا أمرٌ منه تعالى بالحكم بالعدل بين الناس، قَالَ محمد بن كعب وزيد بن أسلم وشهر بن حوشب: « إنما نزلت في الأمراء، يعني الحكام بين الناس » (3). وَقَالَ رسول الله ﷺ: « إِنَّ الله مع القاضي ما لم يجر فإذا جار وكَّله إلى نفسه » (4).

3- الإنصاف : ومنه قول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ (5). فالآية تضمنت النهي للذين آمنوا من أن يحملهم بغضهم لقوم على أن لا ينصفوا لهم ويعدلو معهم، لأن من يبغض قوماً يحملهم بغضه على أن يكون ظالماً لهم، أو جائراً عليهم، أو معتدياً على حقوقهم في قوله، أو فعله أو حكمه.

(1) النحل / 90.

(2) النساء/58.

(3) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (687/1).

(4) رواه ابن ماجه في كتاب الأحكام، باب التغليظ في الحيف والرَّشوة ، واللفظ له، عن عبد الله بن أبي أوفى (775/2)، (2312). وصَحَّح ابن حبان، (448/11)، وعند الحاكم في المستدرک على الصَّحَّحِين بلفظ (فإذا جار تبرأ الله عزَّ وجلَّ منه ) ، (105/4)، وسُنَّ التِّرْمِذِي، (618/3)، وموارد الظمان باب إعانة الله للقاضي العدل، (307/1)، والآحاد والمثاني، (331/4)، وصَحَّح الجامع للألباني بلفظ ( فإذا جار تخَلَّى اللهُ عنه ولزمه الشيطان ) وَقَالَ حديث حسن رقم (1253).

(5) المائة/ 8.

4- المرضي المقنع في الحكم والشهادة : ومنه قوله تعالى: ﴿ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ ﴾<sup>(1)</sup>. وقوله تعالى: ﴿ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ﴾<sup>(2)</sup> أي يكتب بالسوية لا يزيد ولا ينقص ولا يميل إلى أحد الجانبين. وهو أمر للمتدائنين باختيار كاتب متصف بهذه الصفة لا يكون في قلبه ولا قلمه هواده لأحدهما على الآخر بل يتحرى الحق بينهم والمعدلة فيهم<sup>(3)</sup>.

5- الفدية: ومنه قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ تَعَدَّلَ كُلُّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا ﴾<sup>(4)</sup>. قَالَ عبد الله بن عباس: « العدل الفدية »<sup>(5)</sup> « والفدية مماثلة الشيء بالشيء »<sup>(6)</sup> والمعنى: وإن بذلت تلك النفس سلمت للهلاك كل فدية لا يؤخذ منها ذلك العدل حتى تنجو به من الهلاك<sup>(7)</sup>..

6- الميل والانحراف والإشراك: ومنه قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا ﴾<sup>(8)</sup>. قَالَ الإمام ابن جرير: « يا أيها الذين آمنوا بالله وبرسوله ليكن من أخلاقكم وصفاتكم القيام لله شهداء

(1) المائدة/106.

(2) البقرة / 282.

(3) الشَّوْكَانِي : فتح القدير (1/300).

(4) الأنعام / 70.

(5) ابن كثير: مختصر تفسير القرآن، (1/62).

(6) الخازن، علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي: لباب التأويل في معاني التنزيل (48/1).

(7) الشَّوْكَانِي، محمد بن علي بن محمد (1250هـ): فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في علم التفسير، (2/129)

(8) النساء / 135.

بالعدل في أوليائكم وأعدائكم ولا تجوروا في أحكامكم وأفعالكم فتجاوزوا ما حددت لكم في أعدائكم لعدواتهم ولا تقصروا فيما حددت لكم من أحكامي وحدودي في أوليائكم لولايتهم لكم ولكن انتهوا في جميعهم إلى حدي واعملوا فيه بأمرى»<sup>(1)</sup>.

7- الاستواء في الأشياء: ومن قول الله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾<sup>(2)</sup>، جعلك سوياً مستقيماً معتدلاً القائمة، منتصبها في أحسن الهيئات والأشكال<sup>(3)</sup>.

8- الوسطية: «الوسط في الشيء أعدلته وخياره»<sup>(4)</sup> وقال رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾<sup>(5)</sup>. قَالَ: «عدلاً»<sup>(6)</sup> وفي التنزيل ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾<sup>(7)</sup>، أي أعدلهم وخيرهم<sup>(8)</sup> وفي الحديث «خير الأمور أوسطها»<sup>(9)</sup>.

(1) الطَّبْرِي، محمد بن جرير: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، (10/95).

(2) الانفطار/7.

(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (4/620) ومختصر تفسير القرآن، (3/611).

(4) الفيروزآبادي: القاموس المحيط (2/391).

(5) البقرة/143.

(6) رواه البُخَارِيُّ في التفسير باب «وكذلك جعلناكم أمة وسطا» (8/21) (4487) وفي الاعتصام باب «وكذلك جعلناكم أمة وسطا» (3/328) (7349) والتزيمِي في التفسير سورة البقرة (8/237-238) والنسائي في التفسير من الكبرى (6/292) (1106) (1107) وأحمد (32/3) والطَّبْرِي (2/9) (2170) (2171) (2172).

(7) القلم/28.

(8) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن (2/153-154).

(9) قَالَ السَّخَاوِي في المقاصد الحسنة (455): رواه ابن السمعاني في ذيل تاريخ بغداد بسند مجهول عن علي مرفوعاً به وذكره الشُّوكَانِي في الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة

هذا وإذا ضمنا إلى هذا القدر من آيات القرآن الآيات الأمرة بالقسط والداعية إليه وقد وردت في خمسة وعشرين موضعاً ثم جمعت إلى ذلك كله الآيات التي تنهى عن الظلم في مائتي وتسعة وتسعين موضعاً، والنهي عن الظلم دعوة إلى العدل، انضح لنا من خلال ذلك كله مقدار ما أراد الشَّارع للعدالة من سيادة في المجتمع في كل ميادين الحياة ومجالاتها ومن أهمها :

.الولاية على الناس سواء أكانت ولاية خاصة أو ولاية عامة، ومن العدل فيها إسناد الأعمال إلى أهلها الأئفء .

. القضاء ويكون في الفصل بين الخصوم، بإعطاء كل ذي حق حقه أو ما يساويه إلى مستحقه ويكون بالتسوية بين الخصوم في مجلس القضاء وإقامة الحدود والجزاءات والقصاص بالمقدار الذي يكافئ ذنب المذنب وكافئ حق الله عباده أو حق الناس على الناس .

. الشَّهادة، وذلك بأن يشهد الشاهد شهادة مساوية لما يمليه عليه أصحاب العلاقة فيها ومساوية للحق الذي يعلمه فيها.

. معاملة الزوجات وذلك بأن يعطي كلاً منهن نصيبها من النفقة والسكن والمبيت بالعدل.

. معاملة الأولاد ويكون العدل فيها بالتسوية بينهم بالعطاء والتربية وغير ذلك مما يملكه الإنسان.

. الكيل والميزان بأن يكيل ذو الكيل ويزن ذو الوزن بالقسطاس المستقيم.

. الأنساب بأن يُنسب الإنسان إلى أبيه الذي ولده لا إلى آخر يتبناه فنسبته إلى غير أبيه شهادة كاذبة.

---

(742) ص (251) وانظر كشف الخفاء (1/391) ومصنف ابن أبي شيبة بلفظ (خير أموركم أوسطها) (7/186) والجامع الصغير للسيوطي (1/224) ط. طائر.

. الإصلاح بين الفئات المتقاتلة بين المسلمين فيجب إتباع قواعد العدل في الإصلاح بين الناس.

إلى غير ذلك من أمور التي تتطلب عدلاً بقدر حقوق أصحاب الحقوق فيها. ورغم ذلك التنوع إلا أن إطلاق لفظ العدالة في الوضع العام لا يخرج عن الإطار الشرعي المتمثل في الالتزام والاستقامة في الدين.

### ب. الإطلاق الخاص<sup>(1)</sup>:

لم يصطلح أهل العلم على معنى خاص للفظ العَدَالَة في علومهم التي عاجلوهها، وإنما تبنا المعنى الشرعي العام، وهو الاستقامة على الحق، إلا أن عباراتهم قد تباينت بين عموم وخصوص بسبب تنوع تخصصاتهم وموضوعاتهم المبحوثة كالرواية والشهادة والإمامة والمعاملة والأخلاق.

قال ابن كثير: العدل هو المسلم البالغ العاقل الذي سلم من أسباب الفسق وخوارم المروءة<sup>(2)</sup> وأن يكون مع ذلك متيقظاً غير مغفل إن حدث من حفظه فاهماً إن حدث على المعنى فإن اختل شرط مما ذكرنا ردت روايته<sup>(3)</sup> ونظير هذا عرف ابن

(1) العرف الخاص: هو ما كان جارياً على ألسنة العلماء من الاصطلاحات التي تخص كل علم، فإنها في استعمالها حقائق وإن خالفت الأوضاع اللغوية، وهذا نحو ما يجريه المتكلمون في مباحثاتهم في علوم النظر كالجوهر والعرض، وما يستعمله النحاة في مواضعهم من الرفع والنصب فصارت هذه المصطلحات مستعملة في غير مجاريها الوضعية، يفهمونها فيما بينهم، وتجري في الوضوح مجرى الحقائق اللغوية.

(2) والعدل هو المسلم البالغ العاقل الذي سلم من أسباب الفسق وخوارم المروءة. على ما حقق في باب الشهادات من كتب الفقه. إلا أن الرواية تخالف الشهادة في شرط الحرية والذكورة وتعدد الراوي. وقد كتب العلامة القرافي في الفروق فصلاً بديعاً للفرق بين الشهادة والرواية. انظر القرافي، شهاب الدين الصنهاجي، (684هـ) الفروق، (1/22).

(3) شاكر، أحمد محمد الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث للإمام ابن كثير، ص (87).

الصلاح وَقَالَ: توسع ابن عبد البرَّ فَقَالَ : « كل حامل علم معروف العناية فهو عدل محمول أمره على العَدَالَة حتى يتبين جرحُه لقوله ﷺ : « يحمل هذا العلم من كل خلف عُدْلُه »<sup>(1)</sup> وفيما قاله اتساع غير مرضي<sup>(2)</sup>.

. وَقَالَ ابن تَيْمِيَّةَ : « العدل من انتفى فجوره وهو إتيان الكبيرة والإصرار على الصغيرة فإذا انتفى إتيانه لكبيرة وانتفى إصراره على الصغيرة انتفى فجوره وكان عدلاً »<sup>(3)</sup>.

. وَقَالَ ابن حَزْمٍ : « حد العدل أن تعطي من نفسك الواجب وتأخذه وحد الجور أن تأخذه ولا تعطيه »<sup>(4)</sup>.

ومن خلال ما سبق نخلص أن لفظة العَدَالَة في الاصطلاح متباينة الحدود لاعتماد الفقهاء في اصطلاحهم على صفات معينة رأوا أن لا بد من توافرها ليتسم بالعَدَالَة في قوله أو فعله أو حاله، بمعنى أنهم قصروا الحد على جزء من التكاليف الشرعية، والعَدَالَة أعم وأشمل حسب ورودها في النُّصُوص الشرعية.

وعليه فإن تلك التعريفات الموضوعية للعدالة بالمعنى الخاص تناولت أصلاً من أصولها أو مجالاً من مجالاتها دون أن تكون جامعة مانعة تضم الأصول وتلم المجالات في معنى محدد ولذلك لا تصلح أن تكون معنى شرعياً عاماً لمفهوم العَدَالَة .

(1) داود، د. محمد سليمان وعبد المنعم، د. فؤاد المرجع السابق (168).

(2) ابن الصلاح، أبو عمرو عثمان بن عبد الرحمن الشهرزوري (642م) (1244م)، مقدمة ابن الصلاح في علوم الحديث، ص (50).

(3) ابن تَيْمِيَّةَ، أحمد بن الحليم الحراني (728هـ) : مجموع فتاوي شيخ الإسلام، (15/338).

(4) ابن حَزْمٍ، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد حَزْم الأندلسي الظاهري (456هـ) : الأخلاق والسير، ص (31).

فالمعنى الشرعي الدقيق بحسب الاستعمال القرآني لكلمة العدالة وتنوع استعمالها في العديد من المجالات وفي كل شؤون الحياة الخاصة والعامة السياسية منها والاجتماعية والقانونية وغير ذلك هو الالتزام بالإسلام ليس غير. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَتَّ كَلِمَةً رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾<sup>(1)</sup> وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾<sup>(2)</sup>.

ويمكن أن نعرفه: بأنه المساواة بين التصرف وبين ما يقتضيه الحق دون زيادة ولا نقصان. ومن أجل ذلك كان الميزان رمزاً لإقامة العدل، وفي هذا المعنى يقول ابن تيمية: «العدل هو كل ما دل عليه الإسلام - الكتاب والسنة - سواء في المعاملات المتعلقة بالحدود أو غيرها من الأحكام»<sup>(3)</sup>.

وورد عن ابن قسيم الجوزية قوله: «ومن له ذوق في الشريعة... تبين له أن السياسية العادلة جزء من أجزائها وفرع من فروعها»<sup>(4)</sup>. وقوله: "الشريعة عدل كلها فكل مسألة خرجت من العدل إلى الجور فليست من الشريعة"<sup>(5)</sup> ويقول القرطبي عن ابن عطية: «العدل: هو كل شيء مفروض من عقائد وشرائع»<sup>(6)</sup>. ويقول الإمام الغزالي: «عدل العبد أن يستعمل وظيفته التي أذن الشرع بها وأن يجعل هواه أسيراً للدين»<sup>(7)</sup>.

(1) الأنعام / 115.

(2) الحديد / 25.

(3) ابن تيمية: السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، ص(15) وص(156). وانظر الجرجاني علي بن محمد بن علي: التعريفات، ص(147).

(4) ابن قسيم الجوزية، محمد بن أبي بكر: الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، ص(4-5).

(5) إعلام الموقعين بتصرف 1/3

(6) القرطبي، أبو عبد الله بن أحمد الأنصاري (671هـ)، الجامع لأحكام القرآن (10/165-166).

(7) مغنية، محمد جواد، فلسفة الأخلاق في الإسلام، ص(179-180).

وهذه الأقوال تؤكد لنا أن المعنى الشرعي للعدالة يكمن في الالتزام بالإسلام والالتزام هو الاستقامة على الدين وهو الصراط المستقيم فغاية الأمر أن الله تعالى أنزل ديناً قيماً وأمرنا بالإيمان والاستقامة وهذا يتطلب أن تستقيم وفق توجيهاته وأحكامه وهذه الاستقامة هي العدالة.

### ثالثاً: العدالة في التشريع الإسلامي.

لقد تجسدت في التشريع الإسلامي جميع معاني العدل، أصولاً ومقاصد وفروعاً، بمعنى أن مبتناه على العدل والحق، وهو في نفس الوقت يبتغي العدل في جميع تشريعاته، تحقيقاً للتوازن والوسطية في كل الأمور، وبذلك كله تتحقق جميع المصالح الإنسانية العادلة، الفردية منها، والجماعية، ويتحقق الأمن والاستقرار، وعلى أساس كل ذلك تشاد الحضارات، دون افتتات، أو عبثية، أو حيف .

فمفهوم العدل الذي هو أصل التشريع الإسلامي<sup>(1)</sup>، وغاية من غياته الكبرى، التي يستهدف تحقيقها في الحياة الإنسانية، تحقيقاً للمصالح الإنسانية، مفهوم واسع، تدخل فيه كل معاني الفضائل والقيم والأخلاق<sup>(2)</sup>. لذلك قال العلماء : إن أجمع آية في القرآن الكريم ، هي قوله تعالى : " إن الله يأمر بالعدل والإحسان .." [سورة النحل : 90]<sup>(3)</sup>.

(1) الشاطبي ، الموافقات ، تحقيق : مشهور حسن آل سلمان (الخبر: دار ابن عفان ، 1417هـ 1997م) ط : 1 ، ج : 5 ، ص : 278. وج : 3 ، ص : 184.

(2) ولي الله الدهلوي ، حجة الله البالغة ، تحقيق محمد شريف سكر، (بيروت : دار إحياء العلوم، 1410هـ 1990م) ط 1 ، ج : 1 ، ص : 329 .

(3) ابن عبد البر ، التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد ، (المغرب : مطبعة فضالة المحمدية، 1402هـ 1982م) ط 2 ، ج : 24 ، ص : 334 .

والعدل هو قوام الأمور كلها، وهو من الأصول الأساسية التي يقوم عليها البناء الاجتماعي الشامل للأمة الإسلامية<sup>(1)</sup>. والعدل بهذا المفهوم العام الواسع يقتضي أن يكون معناه: " وضع الأمور في نصابها، وإعطاء كل شيء حقه من غير زيادة ، ولا نقصان ، والذي ينشأ عن معرفة حقائق الأشياء على ما هي عليه، ومعرفة حدودها، وغاياتها، ومنافعها"<sup>(2)</sup>.

والعدل الذي هو أصل الشريعة وغايتها، يتجسد مفهومه في تحقيق المصلحة، التي هي الغاية والمقصد من التشريع، فهو ليس معنى ذهنياً مجرداً، بل معنى عملي متمثل في " المصلحة المعتبرة شرعاً"<sup>(3)</sup> أي في تلبية جميع متطلبات الحياة الإنسانية اللازمة، في توازن تام، مع تجسيد لمعاني الحق والخير، ووضع الأمور في نصابها في كل الوقائع والأحداث، ومراعاة للظروف والأحوال العادية والاستثنائية. لهذا يقول ابن القيم: " فحيثما وجدت المصلحة فثم شرع الله ودينه"<sup>(4)</sup>، ولاشك أن شرع الله ودينه، هو العدل بعينه.

وقد نظر الإسلام إلى العدل نظرة عامة شاملة، كان لها أكبر الأثر في توجيه التشريع العام الذي ينظم كافة العلاقات والمعاملات الإنسانية، سواء كانت بين المسلمين بعضهم مع بعض، أم كانت بين المسلمين وغيرهم<sup>(5)</sup>. وعلى هذا؛ فإن

(1) ابن عاشور، أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، (تونس: الشركة التونسية للتوزيع) ط 2، ص: 122.

(2) المرجع السابق، ص: 24.

(3) الدكتور محمد فتحي الدريني، المناهج الأصولية في الاجتهاد بالرأي، (دمشق: الشركة المتحدة للتوزيع، 1405هـ. 1985م) ط2، ص: 32، 22.

(4) ابن القيم، الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، تعليق بهيج غزاوي (بيروت: دار إحياء العلوم)

(5) ابن رشد، بداية المجتهد ونهاية المقتصد، (بيروت: دار المعرفة، 1398هـ. 1978م) ط 4،

ج: 2، ص: 185.

العدل أصل من أعظم أصول التشريع الإسلامي، بل هو أصل الأصول في الإسلام، فأينما تحقق كان التشريع الإسلامي معه . يقول ابن القيم في هذا: " ..فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور..فليست من الشريعة، وإن أُدخلت فيها بالتأويل"<sup>(1)</sup>.

والتشريع الإسلامي يعمل على تحقيق العدل عملياً في الواقع الإنساني في كل الأحوال والظروف: العادية، والاستثنائية، بما وضع من أصول وقواعد ومناهج وخطط تشريعية .، ولذلك ينبغي أن تعمل كل جزئية من جزئيات تطبيق الشريعة على تحقيق العدل والمصلحة الشرعية في الواقع الإنساني؛ وإلا أضحت مضادة للمقاصد العامة للتشريع، والجزئي يجب أن يعمل في إطار كلي، لا أن يتناقض معه<sup>(2)</sup>. وعلى هذا، فإن الشريعة في مصادرها ومواردها، وفي قواعدها وأحكامها، هي العدل بعينه، لأنها شرع الله، وشرعه هو العدل المطلق، لا محالة.

### المطلب الثاني: مفهوم فريضة للزكاة.

أولاً: الزكاة في اللغة: تطلق بعدة معان، هي البركة والنماء والظهارة والصلاح<sup>(3)</sup>، وقد استعملت جميعها في القرآن والسنة<sup>(4)</sup>، من ذلك قوله تعالى (قَدْ جَاءَ بِجٍ)<sup>(5)</sup>، بمعنى أفلح من زكى نفسه بطاعة الله فطهرها من الذنوب. وفي الحديث عن أبي هريرة أن أعرابياً أتى النبي ﷺ فقال دلني على عمل إذا عملته دخلت الجنة، قال: تعبد الله لا تشرك به شيئاً وتقيم الصلاة المكتوبة وتؤدي

(1) العز بن عبد السلام، قواعد الأحكام، ج: 2، ص: 160.

(2) الدكتور محمد الصادق عرجون، الموسوعة في ساحة الإسلام، (جدة: دار السعودية للنشر والتوزيع، 1404هـ. 1984م) ط 2، ج: 1، ص: 266.

(3) معجم اللغة العربية، المعجم الوسيط: دار المعارف، مصر، ط2، المجلد2، 1972، ص396

(4) ابن منظور: لسان العرب، القاهرة، الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1372، ص77

(5)الشمس:9.

الزكاة المفروضة وتصوم رمضان<sup>(1)</sup> ومن معاني الزكاة أيضا المدح<sup>(2)</sup> ومن ذلك قوله تعالى: (وَوُؤُ) <sup>(3)</sup>

### ثانيا: الزكاة في الشرع.

هي إخراج جزء مخصوص من مال مخصوص لشخص مخصوص بلغ نصابا لمستحقه، إن تم الملك وحول غير معدن وحرث. لأنها لا يتوقفان على الحول، بل وجوب الزكاة بالمعدن بالخروج، والحرث بالطيب<sup>(4)</sup>. وتفصيل ما ورد في هذا التعريف:

. الشيء المخصوص: هو المقدار الواجب إخراجه، كالعشر أو نصفه أو رבעه.

. المال المخصوص: هو المال الذي تجب فيه الزكاة كالأنعام، والنقدين، وما يقوم مقامهما، وعروض التجارة والزروع والثمار والمعادن والركاز.....

. الأوصاف المخصوصة: كبلوغ النصاب وما يتبعها من الشروط الواجب توفرها في المال المزمكي

. الوقت المخصوص: أي أنّ الزكاة لا تفرض في أي وقت ولكنها تفرض في وقت محدد، وعادة يكون هذا الوقت هو تمام الحول في الماشية والنقود، وعروض التجارة، وعند اشتداد الحب في الحبوب، وعند بدو الصلاح في الثمار التي تجب فيها الزكاة واستخراج ما تجب فيه من المعادن.

(1) ابن كثير، إسماعيل: تفسير القرآن العظيم، مصر، عيسى الباي الحلبي، م4، ص516

(2) ابن منظور، لسان العربي، في مادة زكا، مرجع سابق، م14، ص356

(3) النجم:32.

(4) الكاندهلوي، محمد زكريا: أوجز المسالك إلى موطأ مالك، بيروت، دار الفكر، ج5، ص233، والدسوقي، شمس الدين: حاشية الدسوقي على الشرح الكبير، القاهرة، دار إحياء

الكتب العربية، أول باب الزكاة، م1، ص430

وبالمقارنة بين التعريف اللغوي والشرعي يتضح لنا أن المدلول الشرعي لا يختلف عن المدلول اللغوي، فهي تطهر صاحبها من الذنوب والخصال الذميمة، فيكون صالحا ممدوحا عند الله عز وجل مشهودا له بصدق إيمانه، وتكون سببا في زيادة المال وصلاحه ونهائه ببركة دعاء الآخذ للزكاة، ويكون قد طهر المال من تدنسه بحق المستحقين<sup>(1)</sup>

ومن أسماء الزكاة الصدقة، فهما لفظان مترادفان متفقان في المعنى وإن اختلف المبنى كما قال الماوردي: الصدقة زكاة، والزكاة صدقة يفترق الاسم ويتفق المسمى<sup>(2)</sup>

### المطلب الثالث: مظاهر العدالة في أحكام الزكاة.

من أهم الأسس التي بني عليها الجانب التشريعي في فريضة الزكاة مراعاة العدل والإنصاف، إذ لا ينفك ذلك عن التشريع الكلي-العام- لهذه الفريضة، كما أنه أصيل في كل جزء من أحكامها، وفي ما يلي إجملاء لذلك:

#### **المحور الأول. مراعاة العدالة في التشريع العام للزكاة:**

فبالإضافة للعديد من المصالح الشرعية والأحكام، شرعت الزكاة في مجموعها أيضا لتحقيق العدالة، سواء تعلق الأمر بالجانب الاجتماعي، أو كان ذلك في الجانب الاقتصادي، فمن كليهما تظهر العدالة واضحة في تشريع الزكاة، وهو أمر يبعد عن الزكاة شبهة أنها فرضت عقابا للأغنياء وظلما لهم، أو أنها لا تفي بالإصلاح المالي المطلوب لعلاج الاختلال الذي يصيبه بمرور الزمن، كما يتضح ذلك من خلال ما يلي:

(1) ابن عابدين، دمشقي، محمد: رد المحتار على الدر المختار، شرح تنويه الإبصار، الشهرية بحاشية ابن عابدين، كتاب الزكاة، م2، ص256

(2) الماوردي، أبو الحسن: الأحكام السلطانية والولايات الدينية، مطبعة النهضة الوطنية، مصر، باب الحادي عشر، ولاية الصدقات، ص108

## 1. تشريع الزكاة يحقق العدالة الاقتصادية في المجتمع:

تعتبر الزكاة إحدى الأدوات الناجعة في الجانب الاقتصادي، حيث يمكنها أن تساهم في تحقيق التنمية الاقتصادية في عدد من المجالات من ذلك مثلا:

. **معالجة الفقر:** من أهداف الزكاة الأساسية محاولة القضاء على الفقر، أو التقليل منه إلى أدنى مستوياته، و ذلك يتم بتذليل الفوارق الطبقيّة بين المسلمين من خلال الوصول بالفقير إلى مستوى الكفاية، ومن خلال هذا الدور يمكن للزكاة في هذا المجال أن تنقل الفقراء إلى مساهمين في الإنتاج إذا وجهوا إلى العمل والاستثمار من خلال مشاريع مدروسة ومتابعة تموّنها الزكاة، كما أنها تعطي حركية أكثر للنقود وتزيد في قوتها الشرائية وذلك عند نقلها إلى الفقراء الذين ينفقونها على الضروريات والحاجيات - بدلا من أن ينفقها الأغنياء على الكماليات - (1)

. **التقليل من البطالة:** للزكاة أثر كبير على زيادة فرص العمل والتقليل من البطالة، والحد من مشاكلها. فالزكاة تؤدي إلى زيادة الاستثمار ودفع الناس للبحث عن مجالات يستثمرون فيها أموالهم، لسد النقص الحاصل من أداء الزكاة، كما أن الزكاة تؤدي إلى زيادة الاستهلاك بشكل مباشر ولاسيما المواد الاستهلاكية غير الكمالية وهذا يؤدي إلى زيادة الإنتاج (2) ويمكن للزكاة أن تمون مشاريع اقتصادية

(1) القرضاوي يوسف، آثار الزكاة في الأفراد والمجتمعات، نشر ضمن أبحاث مؤتمر الزكاة الأول، بيت الزكاة الكويت، ص 39 وانظر: غازي عناية، الزكاة والضريبة، دراسة مقارنة، الجزائر، منشورات دار الكتب، 1991، ص 276

(2) حسونة فاطمة عبد الحافظ، أثر كل من الزكاة والضريبة على التنمية الاقتصادية، مذكرة ماجستير، كلية الدراسات العليا، جامعة النجاح نابلس فلسكين، 2009، ص 115

ولو كانت صغيرة للعديد البنات وربات البيوت وكذا للشباب وهو ما من شأنه أن يساعد في تقليص نسب البطالة ويسهم في التخفيف من حدة الفقر. (1)

. إعادة التوازن بين دخل الأفراد وتوزيع الثروة: لا شك أن وجود الثراء الفاحش في المجتمع إلى جانب الفقر المدقع يعد من أعظم الآفات في المجتمع، وقد حرص الإسلام على اقتلاع هذه الظاهرة من خلال تشريعه للعديد من الأحكام التي تهدف إلى تحقيق التوازن في توزيع الثروة والتي من أهمها الزكاة (2) إذ أن من أهم أهداف الزكاة توسيع التملك وتكثير عدد الملاك وتحويل عدد أكبر عدد مستطاع من الفقر والعوز إلى أغنياء مالكين لما يكفيهم ومن يعولونهم طوال العمر (3) وقد نص القرآن صراحة على منع تركيز الثروة وتحقيق عدالة توزيع الثروة يعد هدفا رئيسيا من أهداف الزكاة والفيء، قال تعالى: (كَيْجَئِجْ كَيْجَئِجْ كَيْجَئِجْ) (4) وهذا في مقابل الضرائب التي تعتمدها الأنظمة الوضعية في إيجاد شيء من التوازن بين دخل الأفراد وكذا في توزيع الثروة في المجتمع وهي لا تخلو من الحيف والجور والظلم.

. زيادة الاستثمار: يدفع وجوب الزكاة المالكين والأغنياء إلى استثمار أموالهم وتنميتها في الأنشطة الاقتصادية المشروعة كالتجارة، والصناعة وغيرها. وهدفهم في ذلك حماية أموالهم من التآكل، وهو ما يؤدي إلى ازدهار اقتصاد البلاد بصورة

(1) شاويش وليد مصطفى، السياسة النقدية بين الفقه الإسلامي والاقتصاد الوضعي، المعهد

العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، ط 2011، ص 258-259

(2) محمد أنس الزرقا، دور الزكاة في الاقتصاد الإسلامي والسياسة المالية، ندوة اقتصاديات الزكاة، المعهد الإسلامي لبحوث والتدريب، البنك الإسلامي للتنمية، جدة، ط 2، 2002، ص 459

(3) القرضاوي يوسف، دور الزكاة في علاج المشكلات الاقتصادية، دار الشروق للنشر والتوزيع، 2002، ص 576

(4) الحشر: 7.

عامة. وما يشجعهم على ذلك أن الزكاة لا تفرض على وسائل الإنتاج مهما كان حجمها، إضافة إلى زيادة حجم الاستهلاك من طرف الفقراء الناجم عن أموال الزكاة التي استلموها، وهو ما يساهم في التخصيص الأمثل للموارد من خلال العمل على تلبية الحاجيات الضرورية أولاً<sup>(1)</sup> كما تسهم الزكاة في الاستثمار من خلال توفير آلات وأدوات الإنتاج للفقراء والمساكين ورفع الكفاءة الإنتاجية للعنصر البشري.

**محاربة الاكتناز:** إن الزكاة تفرض على كل مال نام، وكما هو معلوم وبما أن الأموال قد خلقت لتعين العباد على عبادة الله وتنفيذ أوامره بتعمير الأرض عن طريق استثمارها في النشاط الإنتاجي، فإن الاكتناز يؤدي إلى تسرب الموارد الاقتصادية عن الإنتاج وبقائها عاطلة وبالتالي إلى انخفاض مستوى الدخل ومن ثم انخفاض مستوى الادخار. ولذلك فإن الزكاة تمارس دوراً هاماً في محاربة الاكتناز من خلال إيجاب الزكاة في المال النامي، حيث إن إخراج الزكاة من المال النامي الذي لم يستثمره صاحبه يصبح عقاباً على الاكتناز حيث يؤدي مقدار الزكاة إلى القضاء على الأموال المكتنزة خلال فترة محددة<sup>(2)</sup>، ويؤكد ذلك **ما** روي عن الطبراني في الأوسط عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ "تَجْرُوا فِي أَمْوَالِ الْيَتَامَى لَا تَأْكُلْهَا الزَّكَاةُ"<sup>(3)</sup>.

- 
- (1) عبد الجبار بسبس، أثر الزكاة على النشاط الاقتصادي، المؤتمر العالمي الرابع للزكاة - مطبوعات بيت الزكاة الكويتي، 1995، ص 170
- (2) نعمت عبد اللطيف مشهور، الزكاة الأسس الشرعية والدور الإنشائي والتوزيعي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1993، ص ص 243، 286.
- (3) مالك بن أنس، الموطأ، تخريج وتعليق وترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، القاهرة، دار الحديث، 1421هـ - 2001م، ص 2001م.

### تحقيق الاستقرار الاقتصادي:

إن آثار الازدهار الاقتصادي تظهر على التشغيل والإنتاج من خلال زيادة فرص العمل واستيعاب الطاقات التي تعطلت بسبب الانكماش والكساد الاقتصادي، فتزداد الدخول ويتبعها أيضاً زيادة الإنتاج والأرباح ويترتب على ذلك ازدياد المال الخاضع للزكاة والذي يؤدي بدوره إلى زيادة حصيلة الزكاة، والأهم من ذلك ينجم عن هذا الوضع زيادة التشغيل وإتاحة المزيد من فرص العمل التي تستوعب جزءاً من القوى العاطلة فينخفض نتيجة لذلك عدد الأفراد المستحقين للزكاة. أما اثر الزكاة على الاستقرار في أوقات الكساد فإنه يتحرك في اتجاهين<sup>(1)</sup>:

الأول: إن حصيلة الزكاة الموزعة للفقراء والمساكين ترفع من الدخول النقدية لهاتين الفئتين فيزداد طلبهم الاستهلاكي، فيتحرك العرض (الإنتاج) لمقابلة الطلب الجديد أي إن زيادة الطلب الاستهلاكي تشجع الاستثمار، فيقود ذلك إلى التشغيل التام للموارد الاقتصادية، والمحافظة على استقرار الأسعار، ويتحقق التوازن بين عرض السلع والخدمات والطلب عليها، ويزداد التشغيل وتزيد تبعاً لذلك فرص العمل الجديدة.

الثاني: هذا الجانب يتعلق بدفعي الزكاة، فهم في أوقات الكساد مضطرون لاستثمار أموالهم ودفعها إلى مجالات الإنتاج حتى لا تتناقص بفعل الزكاة، ويساهم هذا السلوك الدفاعي من قبل أصحاب رؤوس الأموال في الوصول إلى التشغيل التام.

(1) أحمد مجذوب أحمد علي، السياسة المالية في الاقتصاد الإسلامي، ص 170.

## ثانياً: تشريع الزكاة يحقق العدالة الاجتماعية.

يعرّف العدل الاجتماعي بأنه إعطاء كل فرد ما يستحقه وتوزيع المنصف للمنافع المادية في المجتمع، والمساواة في توفير الاحتياجات الأساسية كما أن كل فرد لديه الفرصة في الصعود الاجتماعي.<sup>(1)</sup>

ولكي يتحقق العدل الاجتماعي في هذا المجال بعدم تدخل الأهواء الشخصية وإعطاء مال الزكاة لمن لا يستحقه، اهتم القرآن بأمر الفئات المحتاجة في المجتمع وحددها تحديداً دقيقاً وخصص لها مال الزكاة. وتمثل أهم جوانب العدالة الاجتماعية للزكاة في الآتي:

1. للزكاة دوراً أساسياً في إشاعة التكافل والتعاون ورفع الغبن والظلم بين أفراد المجتمع، من خلال التقارب الذي يحدث بين طبقات المجتمع. وما تحديده الله تعالى لمصارف الزكاة إلا تأكيداً لهذا الغرض الاجتماعي.

2. التخفيف من حدة الفقر، حيث ينظر الإسلام إلى الفقر باعتباره مشكلة وآفة اجتماعية خطيرة تتسبب فيه عدة أسباب اقتصادية واجتماعية وطبيعية، لذلك جعل الإسلام مسئولية مكافحة الفقر تقع على عاتق الجميع (الأفراد والمجتمعات والمؤسسات) والزكاة تعتبر مصدر دائم ومتجدد لإخراج هؤلاء من دائرة الفقر.

3. إن نجاح الزكاة في التقليل من التفاوت في الدخل والثروة بين الأفراد من شأنه أن يخلق جواً من الأمن والطمأنينة في المجتمع، ويزيل كل ما يكون قد ترسب في النفوس من الضغائن والحقد، كما أنها تقلل من الجرائم التي قد تحدث بسبب الفقر والحقد والحسد.

(1) هبة رؤوف عزت: الليبرالية. أيديولوجية مراوغة أفسدها رأس المال من خلال الموقع

4. تحرير أفراد المجتمع من الخوف والقلق على المستقبل وتجعلهم آمنين ومطمئنين على أنفسهم ومن يعولون بها تضمنه لهم الزكاة من معيشة كريمة بعيدة عن ذل الحاجة وألم الحرمان.

5. تساهم الزكاة في حل الكثير من لمشكلات الاقتصادية والاجتماعية المعاصرة التي فشلت النظم الحديثة في علاجها كمشكلة تكدس الأموال في أيدي فئة قليلة من المجتمع مما أدى إلى زيادة الفوارق الاجتماعية بين الطبقات.

6. تساهم الزكاة في حل مشكلة العزوبة من خلال مساعدة مؤسسة الزكاة في المهر ونفقات الزواج لأهل الحاجة.

7. تعتبر الزكاة أداة للضمان الاجتماعي وهي تتميز عن أنظمة الضمان الاجتماعي الوضعية بعدم اشتراطها مساهمة مسبقه، بينما يشترط غيرها مساهمة مسبقه. فعندما يشترك موظف ما في صندوق التأمين أو الضمان الاجتماعي، فإن القانون ينص على أنه سيأخذ كذا لو تعطل أو عجز، أو يأخذ ورثته كذا بعد وفاته. أما الزكاة فتقوم على مبدأ الحاجة بغض النظر عن أي مساهمة سابقة أو لاحقة وهذا فارق كبير.

### المحور الثاني: مراعاة العدالة في التشريع الخاص للزكاة:

بناء على مكانة العدل في الإسلام، حيث أن العدل مطلوب في كل أمر من الأمور، وهو صفة من صفات الله جل شأنه، واسم من أسائه الحسنی، وبه قامت السموات والأرض، وبه بعث الله الرسل، وأنزل الكتب كما أعلن ذلك القرآن الكريم في وضوح: (أَبْ بَ بَدْبَبْ بَ بَ بَبْ بَ بَبْ بَبْ بَبْ بَبْ بَبْ بَبْ) <sup>(1)</sup> والقسط هو العدل.، فإننا إذا طبقنا ذلك على الزكاة وجدنا الأمر واضحًا كل الوضوح، ورأينا ذلك في أحكام شتى. لذلك يتمتع أحكام الزكاة يتبين له أنها قائمة على العدل الذي يراعي

ظروف المكلف والممول وكذلك وعاء الزكاة من حيث النماء من عدمه. ومن النماذج لعلاقة أحكام الزكاة بالعدل مايلي:

أولاً. التسوية في وجوب الزكاة: إلى جنسه أو عمره أو لونه أو نسبه أو طبقته أو وضعه الاجتماعي، فالناس جميعهم سواء أمام هذه الفريضة.

ثانياً. إعفاء ما دون النصاب: ومن عدالة الإسلام في فريضة الزكاة أنه لم يفرض الزكاة في أي قدر من المال النامي بل اشترط أن يبلغ هذا المال النصاب وأعفى الشيء اليسير من فرض الزكاة فيه، وذلك ليكون أخذ الزكاة من العفو الذي يسهل على النفوس، ولا يشق على طبيعة البشر.

ثالثاً. إخضاع المال النامي فقط: وهي الأموال التي يمكن أن تنمو بالفعل أي بامتزاج العمل مع هذا المال فيتحقق العائد الاقتصادي من ربح وقيمة مضافة، وهي بخلاف الأموال التي تقتنى لغرض الاستخدام وليس للبيع وتسمى عروض قنية فهي غير خاضعة أصلاً للزكاة.

رابعاً. منع ازدواج الزكاة: إن من أعظم ما ظهر به تطبيق مبدأ [العدالة] ذلك القانون الذي أعلنه الرسول ﷺ حيث قال: (لا تُتَّى في الصدقة)<sup>(1)</sup>. والثنى كما قال أبو عبيد: ألا تؤخذ الصدقة من عام مرتين. وقرر ابن قدامة وغيره أخذاً من هذا الحديث أنه لا يجوز إيجاب زكاتين في حول واحد بسبب واحد. وهذا أعدل ما يكون إذ وجوبها كل شهر أو كل جمعة يضر بأصحاب الأموال، ووجوبها في العمر مرة يضر بالمساكين فلم يكن أعدل من وجوبها كل عام مرة وهي المدة المعقولة التي

(1) رواه أبو عبيد في الأموال ص 275، ورواه ابن أبي شيبة في المصنف: 218/3 - طبع حيدر آباد الدكن.

يمكن أن يتحقق فيها نماء رأس المال وتريح التجارة وتلد الماشية وتكبر صغارها وتتجدد حاجات ذوي الحاجات<sup>(1)</sup>.

خامسا. اختلاف مقدار الزكاة باختلاف الجهد، من عدل الإسلام أنه باين بين مقادير الزكاة بتفاوت الجهد المبذول من الإنسان، وأوضح مثال لذلك إيجابه العشر فيما سقي من الزروع والثمار بغير آلة، ونصف العشر فيما سقي بألة، كما أوجب الخمس فيما حصل عليه الإنسان من الكنوز والمعادن لضآلة الجهد المبذول فيها بجانب الثروة التي يحصلها منها.

سادسا. التحديد والوضوح: إن الشريعة الإسلامية حددت وعاء الزكاة، ونصابها وسعرها ومستحقيها ومسئولية الدولة أو ولي الأمر في جمعها وصرفها بصورة واضحة ودقيقة. وهذا ما يعرف بمبدأ اليقين في علم المالية العامة، ولا شك أن قاعدة اليقين هذه تتحقق بأوضح صورة في فريضة الزكاة. فإن الله تعالى فرضها في كتابه، وحدد مقاديرها على لسان رسوله.

سابعا. العدالة في التطبيق: ولم يكتف الإسلام بما احتوته نصوصه التشريعية من رعاية العدل في أجلى صورته، وأبلغ معانيه، بل ضمّ إلى ذلك رعاية العدل في تطبيق هذا التشريع، وحسن القيام على تنفيذه، فحرص كل الحرص على اختيار العاملين على الزكاة، وتوجيههم وتحسينهم، إيماناً منه بأن العدل إذا كان في نص القانون ولم يكن في ضمير القائمين على تنفيذه؛ انحرف عن موضعه، وأوشك أن يكون حبراً على ورق.

ومن العدالة في هذا الجانب أيضا - جانب التطبيق - تحديد مصارف الزكاة، حتى لا يميل ميزان العدل وتتدخل الأهواء ويأخذ مال الزكاة من لا يستحقه

(1) محي محمد سعد: نظام الزكاة بين النص والتطبيق، الإسكندرية، مكتبة الإشعاع للطباعة والنشر والتوزيع، 1998، ص 91، 92.

ويجزم منه من يستحقه، ولذلك اهتم القرآن بأمر الفئات ضعيفة الحال في المجتمع وجعل لها النصيب الأوفر في أموال الزكاة خاصة وموارد الدولة عامة.

### سابعا- أساليب جمع الزكاة:

وضع الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدون من بعده أسس وضوابط عادلة لجمع الزكاة ليس فيها إجحاف برب المال ولا هضم لحق الفقير، منها على سبيل المثال:

1. مراعاة الظروف الشخصية لدافع الزكاة حيث إن الزكاة راعت جانب المكلف من عدة جوانب منها على سبيل المثال:

. فرض الزكاة بعد خصم الديون والنفقات مما يعني أنها تفرض على صافي الدخل أو الثروة.

. إعفاء الحد الأدنى لمعيشة الفرد ومن يعوله.

. مراعاة مصدر الدخل؛ فالدخل الذي مصدره رأس مال ثابت غير متداول، كدخل الأرض الزراعية، يؤخذ منه العشر أو نصفه. أما الدخل الذي مصدره العمل كالرواتب والأجور وإيراد أصحاب المهن الحرة، فيؤخذ منه ربع العشر فقط.

2. مراعاة الوقت المناسب لدفع الزكاة (الملاءمة) حيث تراعي الزكاة ظروف المكلفين والرفق بهم، حتى لا يشعروا بالإرهاق في دفعها ومن أدلة ذلك<sup>(1)</sup>:

. أخذ الزكاة من مواقع المكلفين، . تؤخذ من الوسط وليست من كرائم الأموال.

. تراعي التخفيف على أرباب الزروع والثمار في الخرص.

. جواز تأخير الزكاة عن مواعيدها المقررة، لحاجة عرضت لأرباب المال.

3. تأخذ الزكاة من كل الأموال الظاهرة (تشمل الزروع والثمار، المواشي، والمعادن والركاز) والباطنة (وهي الأموال التي يستطيع مالكيها إخفائها عن أعين الناس، وتشمل الذهب والفضة، وعروض التجارة) حفاظاً على حقوق المستحقين.

4. إرسال عمال الزكاة ليقوموا بجمعها وتفريقها، وعليهم مراعاة العدل في تحصيل وتوزيع الزكاة.

5. لا ينقل عمال الزكاة أموال الزكاة إلا بعد توزيعها على فقراء ذلك البلد الذي جمعت منه، فإن بقي بعد ذلك منها شيء حملوه إلى الإمام ليرأه فيه رأيه ويصرفه في مصرفه الأولى به<sup>(1)</sup>.

6. انتهاج طريقة الفصل بين الإدارتين السياسية والمالية منعاً للبس، وتفاديًا للمشكلات، وفصلاً للسلطات؛ فقد عين عمر بن الخطاب عمار بن ياسر على إمارة الكوفة، وبعث معه عبد الله بن مسعود على بيت المال.<sup>(2)</sup> وهذا يدل على حرص الإسلام على استقلال ميزانية الزكاة حماية لمستحقيها.

## التائج

توصل البحث إلى عدد من النتائج يمكن صياغتها وفقاً للآتي:

. تطلق لفظة العدالة من جهة الشرع كما وردت معانيها في نصوص الكتاب والسنة عموماً على: الاستقامة في الدين والدنيا. وقد تطلق إطلاقات أخرى كما جاءت في عديد النصوص الشرعية، لكن بحسب سياقاتها لا تتعارض ولا تتنافر.

(1) عبد الله ناصر علوان، أحكام الزكاة على ضوء المذاهب الأربعة، دار السلام للطباعة والنشر، ص45

(2) ابن سعد: الطبقات الكبرى 3/255

. كثرة الآيات الأمرة بالعدل والقسط والناهية عن الظلم والجور توضح مقدار ما أراد الشَّارِع للعدالة من سيادة في المجتمع في كل ميادين الحياة ومجالاتها.

. لم يصطلح أهل العلم على معنى خاص للفظ العَدَالَة في علومهم التي عالجوها، وإنما تبناوا المعنى الشَّرعي العام، وهو الاستقامة على الحق، إلا أن عباراتهم قد تباينت بين عموم وخصوص بسبب تنوع تخصصاتهم وموضوعاتهم المبحوثة كالرواية والشَّهَادَة والإمامة والمعاملة والأخلاق.

. لقد أمر الله تعالى بالعدل وحث عليه في كثير من آيات الكتاب لكون الدين يقوم عليه والدنيا تستقيم به، فإنه يعدّ أساس تشريع الأحكام وعمود مقادها وقوام كل التصرفات والمعاملات، وعماد كل المواقف والالتزامات سواء الحقوق منها والواجبات، وشامل ومستغرق لكل الظروف والحالات، وهو ضمان لأحسن المآلات، وذلك لأن انتظام حياة الناس جميعها منوط بقدر ما عندهم من العدل وما يحققونه منه.

. لقد تجسدت في التشريع الإسلامي جميع معاني العدل، أصولاً ومقاصد وفروعاً، بمعنى أن مبتناه على العدل والحق، وهو في نفس الوقت يتغيى العدل في جميع تشريعاته، تحقيقاً للتوازن والوسطية في كل الأمور، وبذلك كله تتحقق جميع المصالح الإنسانية العادلة، الفردية منها، والجماعية، ويتحقق الأمن والاستقرار، وعلى أساس كل ذلك تشاد الحضارات، دون افتتات، أو عبثية، أو حيف .

. مفهوم العدل الذي هو أصل التشريع الإسلامي، وغاية من غاياته الكبرى، التي يستهدف تحقيقها في الحياة الإنسانية، تحقيقاً للمصالح الإنسانية، مفهوم واسع، تدخل فيه كل معاني الفضائل والقيم والأخلاق.

. بالإضافة للعديد من المصالح الشرعية والأحكام، شرعت الزكاة في مجموعها أيضاً لتحقيق العدالة، سواء تعلق الأمر بالجانب الاجتماعي، أو كان ذلك في الجانب الاقتصادي، فمن كليهما تظهر العدالة واضحة في تشريع الزكاة، وهو

أمر يبعد عن الزكاة شبهة أنها فرضت عقاباً للأغنياء وظلماً لهم، أو أنها لا تفني بالإصلاح المالي المطلوب لعلاج الاختلال الذي يصيبه بمرور الزمن.

. تعتبر الزكاة إحدى الأدوات الناجعة في الجانب الاقتصادي، حيث يمكنها أن تساهم في تحقيق التنمية الاقتصادية في عدد من المجالات.

. للزكاة دوراً أساسياً في إشاعة التكافل والتعاون ورفع الغبن والظلم بين أفراد المجتمع، من خلال التقارب الذي يحدث بين طبقات المجتمع. وما تحديده الله تعالى لمصارف الزكاة إلا تأكيداً لهذا الغرض الاجتماعي.

. الذي يتمعن أحكام الزكاة يتبين له أنها قائمة على العدل الذي يراعي ظروف المكلف والممول وكذلك وعاء الزكاة من حيث النماء من عدمه.

. المشاكل الاجتماعية والاقتصادية هي أهم ما يشغل الأمم في هذا العصر. ومن هنا تتأكد أهمية تناول فريضة الزكاة بالبحث والدراسة وتحليل أبعادها الاقتصادية والاجتماعية باعتبارها من النظم التي تفرد بها الإسلام عن غيره من النظم السائدة في هذا العصر.

. تأكيد مسؤولية الدولة المسلمة في تحصيل الزكاة كوسيلة ربانية من وسائل تيسير سبل الحياة الكريمة لشرائح اجتماعية اقتضت بعض الظروف الاجتماعية والاقتصادية تقديم المساندة الاجتماعية لهم .. في تحديد القرآن الكريم لمصارف الزكاة تحديداً دقيقاً نلمس تلك الأهمية التي أناط بها الإسلام نظام الزكاة كتدبير اجتماعي يكفل تحقيق الأمن العام لشرائح المجتمع من خلال ما توفره من عدل في النواحي الاقتصادية والاجتماعية.

### قائمة المراجع

أولاً: القرآن الكريم.

ثانياً: الكتب.

## .كتب السنة.

- . الجويني، غياث الأمم في التياث الظلم ، تحقيق : د. مصطفى حلمي ، د. فؤاد عبد المنعم أحمد .  
(الإسكندرية : دار الدعوة 1411هـ. 1990م ) ط : 3 .
- . ابن قيم الجوزية ، إعلام الموقعين عن رب العالمين ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ،  
(بيروت : مطبعة دار السعادة) ط ، لا يوجد .
- . الشاطبي ، الموافقات ، تحقيق : مشهور حسن آل سلمان (الخبز: دار ابن عفان ، 1417هـ  
1997م ) ط : 1 .
- ولي الله الدهلوي، حجة الله البالغة ، تحقيق محمد شريف سكر، (بيروت : دار إحياء العلوم  
، 1410هـ. 1990م) ط 1 .
- . ابن عبد البر ، التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد ، (المغرب : مطبعة فضالة المحمدية ،  
1402هـ. 1982م) ط 2 .
- . ابن حجر العسقلاني ، فتح الباري شرح صحيح البخاري ، (بيروت : دار المعرفة ) ط لا يوجد  
. ابن عاشور ، أصول النظام الاجتماعي في الإسلام ، (تونس : الشركة التونسية للتوزيع) ط 2 .
- . الدكتور محمد فتحي الدريني ، المناهج الأصولية في الاجتهاد بالرأي ، (دمشق : الشركة  
المتحدة للتوزيع ، 1405هـ. 1985م) ط 2 .
- . ابن القيم ، الطرق الحكمية في السياسة الشرعية ، تعليق بهيج غزاوي (بيروت : دار إحياء  
العلوم)
- . ابن رشد، بداية المجتهد ونهاية المقتصد، (بيروت: دار المعرفة ، 1398هـ. 1978م) ط 4 .
- . الدكتور محمد الصادق عرجون، الموسوعة في ساحة الإسلام ، (جدة : الدار السعودية للنشر  
والتوزيع، 1404هـ. 1984م) ط 2 .
- . معجم اللغة العربية، المعجم الوسيط: دار المعارف، مصر، ط 2 .
- . ابن منظور: لسان العرب، القاهرة، الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1372 .
- . ابن كثير، إسماعيل: تفسير القرآن العظيم، مصر، عيسى البابي الحلبي .

- الكاندهلوي، محمد زكريا: أوجز المسالك إلى موطأ مالك، بيروت، دار الفكر.
- والدسوقي، شمس الدين: حاشية الدسوقي على الشرح الكبير، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية.
- الماوردي، أبو الحسن: الأحكام السلطانية والولايات الدينية، مطبعة النهضة الوطنية، مصر.
- القرضاوي يوسف، آثار الزكاة في الأفراد والمجتمعات، نشر ضمن أبحاث مؤتمر الزكاة الأول، بيت الزكاة الكويت.
- غازي عناية، الزكاة والضريبة، دراسة مقارنة، الجزائر، منشورات دار الكتب، 1991.
- حسونة فاطمة عبد الحافظ، أثر كل من الزكاة والضريبة على التنمية الاقتصادية، مذكرة ماجستير، كلية الدراسات العليا، جامعة النجاح نابلس فلسطين، 2009.
- شاويش وليد مصطفى، السياسة النقدية بين الفقه الإسلامي والاقتصاد الوضعي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، ط، 2011.
- محمد أنس الزرقا، دور الزكاة في الاقتصاد الإسلامي والسياسة المالية، ندوة اقتصاديات الزكاة، المعهد الإسلامي لبحوث والتدريب، البنك الإسلامي للتنمية، جدة، ط2، 2002.
- القرضاوي يوسف، دور الزكاة في علاج المشكلات الاقتصادية، دار الشروق للنشر والتوزيع، 2002.
- أحمد مجذوب أحمد علي، السياسة المالية في الاقتصاد الإسلامي - دراسة مقابلة مع الاقتصاد الرأسمالي - الطبعة الثانية، الخرطوم، شركة مطابع السودان للعملة المحدودة، 2003 م.
- كمال توفيق محمد الخطاب، مجلة جامعة الملك عبد العزيز: الاقتصاد الإسلامي، مركز النشر العلمي، (1424هـ. 2003م).
- عبد الجبار بسيس، أثر الزكاة على النشاط الاقتصادي، المؤتمر العالمي الرابع للزكاة - مطبوعات بيت الزكاة الكويتي، 1995.
- د. نعمت عبد اللطيف مشهور، الزكاة الأسس الشرعية والدور الإنمائي والتوزيعي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1993.

- . سيد قطب: العدالة الاجتماعية في الإسلام دار الشروق: القاهرة، 2002.
- . محمد شوقي الفنجري "التكافل الاجتماعي" المؤتمر 15 للمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، مستقبل الأمة الإسلامية، القاهرة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، 2003.
- . محمد عبد الله الشباني- آراء وتأملات في فقه الزكاة - مجلة البيان - (مجلة البيان - المنتدى الإسلامي - لندن - شوال 1417 هـ - العدد 110 .
- .. محي محمد سعد: نظام الزكاة بين النص والتطبيق، الإسكندرية، مكتبة الإشعاع للطباعة والنشر والتوزيع، 1998،
- . نعمت عبد اللطيف مشهور، الزكاة الأسس الشرعية والدور الإنمائي والتوزيعي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1993.
- . خصاونة، جهاد: المالية العامة والتشريع الضريبي وتطبيقاتها العملية وفقا للتشريع الأردني، الأردن، دار وائل للطباعة والنشر، ط1، 2000، ص 103 .
- . د. يوسف القرضاوي: دور الزكاة في علاج المشكلات الاقتصادية، البنك الإسلامي للتنمية، المعهد الإسلامي للبحوث والتدريب، كتاب مطالعة رقم 2، الطبعة الثانية، اقتصاديات الزكاة، جدة. 2002.
- . عبد الرزاق نوفل: فريضة الزكاة، - دار الشروق - بيروت / القاهرة - 1403 هـ .

### ثالثا: المواقع الالكترونية

<http://www.qaradawi.net>, Retrieved April 9,2013..

<http://www.qaradawi.net/new/library2>.

[www.mohyessin.com/forum/showthread.php?p=16696](http://www.mohyessin.com/forum/showthread.php?p=16696).

## ظروف تأسيس الجبهة الجنوبية للثورة الجزائرية وأبرز قادتها

الأستاذة: فطيمة الزهراء حوتية

جامعة أدرار- الجزائر

### الملخص:

إن الانتصارات التي حققتها الثورة الجزائرية على الصعيدين الداخلي والخارجي، دفعت بالاستعمار الفرنسي لعملية التصعيد في سياسته الجهنمية لخنق الثورة الجزائرية، ويتمثل هذا بقطع كافة مصادر التموين، بالإضافة إلى الاعتماد على مناورات عديدة، لذلك كان لزاماً على قيادة الثورة الجزائرية التفكير في استراتيجية محكمة لمجابهة المخططات الاستعمارية الفرنسية، وهذا ما سنتطرق إليه في هذا المقال عن ظروف تأسيس الجبهة الجنوبية وأبرز قادتها.

### Summary:

The internal and external victories achieved by the Algerian revolution had pushed the French colonialism to increase the rigidity and the stringency of their hellish policies in order to stifle the Algerian revolution, and for that reason they cut off all sources of supply and rely on several methods, so, it was incumbent for the leadership of the Algerian revolution to think about a strict strategy to confront the French colonial's plants; this is what we will discuss about in this article which is about: the circumstances of the founding of the southern front and its most prominent leaders.

**تمهيد:**

إنّ طبيعة الظروف الصعبة المحيطة بالثورة التحريرية الجزائرية، قد حتمت على قيادة الثورة أن توسع نطاق عملها السياسي والعسكري في أقصى الجنوب الجزائري، وبهذا عمدت على فتح جبهتين الأولى على الحدود الليبية-الجزائرية، أما الأخرى على الحدود المالية والنيجرية-الجزائرية، إلاّ أن هذه الظروف واكبتها تطورات تمثلت في إنشاء الجبهة الجنوبية.

**دخول الثورة الجزائرية عامها الخامس:**

تمحورت مبادرة سلم الشجعان الذي عرضه ديغول (De Gaulle) على دعوة مزدوجة الأولى نحو عناصر جيش التحرير الوطني لإلقاء السلاح وتسليم أنفسهم إلى أقرب مركز للجيش أو الدرك أو الشرطة. والنداء الثاني إلى قيادة الثورة بالخارج أو المنظمة الخارجية على حد تعبير ديغول؛ الأمر الذي اعتبرته جريدة المجاهد دعوة للاستسلام أما الحكومة المؤقتة، فكانت تعتبره مناورة قصد زعزعة قيادة الثورة بالداخل بدرجة أساسية، وأكدت التزامها بالحل التفاوضي لمعالجة القضية الجزائرية التي استمدتها من مرجعيات أدبيات الثورة التي تعترف بأنّ جبهة التحرير الوطني تعتبر ممثلاً شرعياً ووحيداً. كما أعلن الجنرال ديغول عن مبادرة حق تقرير المصير. وقد تضمّن هذا العرض حلول ثلاثة للقضية الجزائرية:

**أ- الإدماج:** صيغة نادى بها النخبة الجزائرية، وتضمنت الإقرار بالمساواة في الحقوق والواجبات بين المجتمعين الأوربي والمسلم، وبحق الالتحاق بجميع الوظائف دون تمييز عرقي ولا ديني.

**ب- الاتحاد الفيدرالي:** يقوم على أساس استحداث حكومة من الجزائريين تقوم على أساس الحكم الذاتي للمجموعات العرقية الفرنسية، العربية، المزابية

والقبائلية... وتخضع لنظام فيدرالي وتعايش في بلد واحد ولها ضمانات تتعلق بحياتها الخاصة وإطار للتعاون فيما بينها<sup>1</sup>.

**ج- الانفصال عن فرنسا:** ويقصد به الاستقلال، الأمر الذي اعتبره ديغول مغامرة ستساق بها نحو الهاوية، ويتيح الفرصة للتكامل والتعذيب والشنق وأقترح أن يتعد الجزائريون عن هذه الفكرة، فقدّم ضمانات إلى الذين يرغبون في أن يبقوا فرنسيين ووعدهم بأنّ فرنسا لن تتخلى عنهم.

ولجأ ديغول لهذه المناورات الجديدة من أجل الحيلولة دون تسجيل القضية الجزائرية في الدورة الرابعة عشر لهيئة الأمم المتحدة-التي كان من المقرر أن تُدرج فيها بطلب من المجموعة الأفرو-آسيوية؛ قصد خنق الدبلوماسية الجزائرية واستمالة الرأي العام العالمي له<sup>2</sup>.

وعلى الرغم من أنّ قيادة الثورة كانت تمر في أحلك الظروف الصعبة بسبب الانقسامات، فقد كان لهذا الإعلان أثر على القيادات المتخاصمة في تونس وبوادر قرب النصر فوحدت من جديد كلمة الثورة، ورسمت استراتيجية العمل المستقبلي، وأدى الصلح إلى إعادة تشكيل مؤسسات الثورة وعقد دورة المجلس الوطني للثورة أيام 16 ديسمبر 1959-18 يناير 1960م، تمخضت عنه قرارات مهمة تشير في معظمها على أنّ الثورة ماضية في تصعيد موقفها من السياسة الفرنسية عسكرياً وسياسياً وعلى مختلف الأصعدة: إنشاء هيئة الأركان العامة، تكليف الحكومة المؤقتة بإجراء المفاوضات، القيام بأعمال عسكرية على الحدود

1 أحمد مسعود (سيد علي)، قضايا ومسائل في المجلس الوطني للثورة الجزائرية 1959/1962، أطروحة مقدمة لنيل دكتوراه العلوم في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف: بوعزة (بوضرساية)، جامعة الجزائر2: قسم التاريخ، السنة الجامعية: 1430-1431هـ. /2009/2010، ص ص 291-292.

2 أحمد مسعود (سيد علي)، المرجع السابق، ص ص 292-293.

لتدويل النزاع، والتصدي للسياسة الفرنسية في إفريقيا بُعْية كسب التأييد للدول الإفريقية المستقلة حديثاً للثورة الجزائرية.

### تأثير الثورة الجزائرية على البعد الإفريقي:

إنَّ الأحداث المتعاقبة على القارة الإفريقية التي كان للجزائر تأثيرها الواضح ببعدها التحرري الشمولي، لاسيما على المستعمرات الفرنسية وهذا كان من استراتيجية الحكومة المؤقتة الجزائرية، والمتمثل في إضعاف مجموعة الدول الواقعة تحت النفوذ الفرنسي، وكانت عاملاً حاسماً في استقلال كلا من تونس والمغرب في سنة 1956م، ويإدخال إصلاحات جذرية على السياسة الفرنسية بإفريقيا ابتداء من قانون العام في 1956م، وكذا مشروع الفدرالية عام 1958م، الذي يصب في إطار الاستقلال الذاتي للمجموعة الإفريقية الفرنسية.

وفي بداية الستينيات ازدادت الضغوطات على الحكومة الفرنسية، فقررت منح اثني عشر (12)\* دولة استقلال مقيّد باتفاقيات تعاون مشتركة، لكن هذه المجموعة لم تُصرح بالمساندة الصريحة للقضية الجزائرية<sup>1</sup>، ممّا أجبر الحكومة المؤقتة الجزائرية بمضاعفة العمل لإنشاء تحالفات قوية مع دول غينيا ومالي غانا، والنضال من أجل إضعاف الدول الواقعة تحت نفوذ الفرنسي<sup>2</sup>.

1 عبد الله (مقلاتي)، محفوظ (رموم)، الجبهة الجنوبية المالية النيجيرية ودورها الاستراتيجي في الثورة الجزائرية، ط1، الجزائر: دار السبيل للنشر والتوزيع، 1430هـ-2009م، ص 19.

\* اضطر رئيس وزراء فرنسا ميشال دوبري (Michel Debré) إمضاء استقلال لـ 12 بلدا عام 1960م وهي: مالي - سينغال - فولتا العليا (بوركينافاسو) - ساحل العاج - الداومي - إفريقيا الوسطى - تشاد - النيجر - الغابون الكونغو (برازافيل) - الكامرون وموريتانيا. وهذا لتتمسك بالجزائر باعتبارها بوابة للقارة السمراء.

2 Rapport de Krim Belkacen au CNRA (été1961). Mohammed (Harbi), Les archives de la révolution algérienne, Alger :Editions Dahlab, 2011, p397.

## تزايد نفوذ هيئة الأركان:

إن إنشاء هيئة الأركان العامة<sup>1</sup> تحت قيادة هواري بومدين\* غيّرت من الشروط التي كانت لصالح نفوذ وسيطرة العسكريين الثلاث كريم بلقاسم، بن طوبال وبوصوف، مما أدى إلى نشوب خلاف حاد بينهم وبين هيئة الأركان العامة حول أحقية الإشراف على الولايات إلا أنّ هواري بومدين تمكن من بناء جيش قوي يدين بالطاعة والولاء، ولا يقبل بأي مساومة تجاه الوحدة الوطنية والاستقلال التام<sup>2</sup>. كما أنه وضع منطقتين في البداية: منطقة العمليات الشمالية

1 هيئة أركان الحرب العامة أنشئت إثر القرار المتخذ في مؤتمر المجلس الوطني للثورة الجزائرية المنعقد بطرابلس من 16 ديسمبر 1959م إلى 18 يناير 1960م إذ يعد أطول اجتماع في تاريخ الثورة التحريرية دام ثلاثة وثلاثين (33) يوماً. إذ تكونت من أربعة قادة وهم: هواري بومدين رئيساً، علي منجلي عضواً، قايد أحمد عضواً ورابح زراري عز الدين عضواً.

2 حكيمة (شتواح)، المبادئ التنظيمية لقيادة الثورة الجزائرية 1954-1956، مذكرة ماجستير: تاريخ الثورة الجزائرية، إشراف: عبد الحميد (زوزو)، جامعة الجزائر: قسم التاريخ، السنة الجامعية: 2000-2001، ص ص 109-110.

\* هواري بومدين واسمه الحقيقي محمد إبراهيم بوخروبة ولد في 23 أوت 1932م-27 ديسمبر 1978م. زاول تعليمه باللغة العربية في المدرسة القرآنية وبالفرنسية بالمدرسة الابتدائية بمسقط رأسه ثم توجه إلى قسنطينة فزاول دراسته في المدرسة الكتانية وانخرط في صفوف حزب الشعب الجزائري. ليستكمل دراسته في جامع الزيتونة بتونس وبالجامع الأزهر بالقاهرة، بعدها في عام 1955م، التحق بالولاية الخامسة بالقطاع الوهراني التي عين على رأسها عام 1957م وذلك قبل أن يتسلم مركز القيادة بوجدة. ثم قام بقيادة العمليات بالغرب وأخيراً قيادة الأركان العامة لجيش التحرير الوطني. وغداة الاستقلال عُين نائباً لرئيس المجلس ووزيراً للدفاع الوطني في الحكومة الأولى للجزائر المستقلة وانتُخب رئيساً للجمهورية في 10 ديسمبر 1976م. للمزيد يرجى العودة إلى: صبرينة (بودريوع)، الحياة الاجتماعية في ظل النظام الاشتراكي بالجزائر المرحلة البومدينية نموذجاً (1965-1978)، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف: عبد الكريم (بوصفصاف)، قسم التاريخ والآثار: جامعة منتوري قسنطينة، السنة الجامعية 2010-2011، ص ص 29، 48.

تحت قيادة عبد الرحمان بن سالم، أمّا منطقة العمليات الجنوبية فكانت تحت قيادة صالح السوفي. وأفرجت عن الجماعة التي سجنت في قضية "انقلاب العقداء" وكونت بتلك المجموعة جبهة قتالية جديدة على الحدود المالية الجزائرية<sup>1</sup>.

### تطويق الحدود الجزائرية الشرقية والغربية:

سعيًا من الاستعمار الفرنسي في عزل الثورة الجزائرية، أقدموا على تطويق الحدود الجزائرية التونسية والمغربية، تخوفًا من استمرار نشاط الثورة الجزائرية من جهة، وفشل مخططاتهم من جهة أخرى في القضاء على الثورة التحريرية، والتي سبقت عملية التطويق الحدودي، وليتمكّنوا من خنق الثورة بمنع المجاهدين المحملين بالسلاح والذخيرة القادمين من تونس والمغرب من الدخول إلى الجزائر، وكذا استراتيجيتهم في عزل ولايات الداخل عن قيادة الثورة الجزائرية في الخارج، ومنع مسؤولي وقادة الولايات من التنقل باتجاه الخارج، ورغبتهم الجارحة في ضمان اقتصادهم من خلال حماية السكة الحديدية والطريق الرابط بين عنابة، تبسة ونقرين<sup>2</sup>.

### سبل مجابهة مخطط فصل الصحراء:

تمسكت فرنسا بمخططها لفصل صحراء لما لها من أهمية بالغة لاسيما بعد اكتشافها للغاز في جبل برقة جنوب مدينة عين صالح في 1954م، وحقول البترول الذي كان في شهر يناير 1956م بمنطقة حاسي مسعود<sup>3</sup>، وعمدت إلى

1 مصطفى (هشاوي)، جذور نوفمبر 1954 في الجزائر، الجزائر: منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة نوفمبر 1954، (د.س)، ص ص 186-187  
2 جمال (قندل)، خطأ موريس وشال وتأثيراتها على الثورة التحريرية 1957-1962، الجزائر: 2008، ص ص 59،61.

3 لزهري (بديدة)، دراسات في تاريخ الثورة الجزائرية وأبعادها الإفريقية، ط1، الجزائر: دار السبيل للنشر والتوزيع، 1430هـ-2009م، ص ص (201،196).

تنفيذ هذا المخطط بإصدار في 07 أوت 1957م قرار خاص بالتنظيم الإداري للمناطق الجنوبية التي تندرج تحت إشراف المنظمة المشتركة للمناطق الصحراوية، واستحدثت وزارة الصحراء ومن بين ميزاتها أنها تعد قاعدة خلفية لفرنسا تلجأ إليها في حال التعرض لأي هجوم، كما تشكل خطأً دفاعياً ثانياً لحلفائها خاصة وأن هذه الفترة بلغت فيها الحرب الباردة أوجها، أما من حيث الجانب العسكري فموقعها مناسب لإجراء التجارب النووية، وهذا ما أبانت عنه نوايا الاستعمار الفرنسي بعد تحديده سنة 1957م منطقة رقان لإجراء التجارب النووية، فأنشأت 1960م المركز الصحراوي للتجارب العسكرية، بعد استكمال مرحلة الإعداد انتقلت إلى التجسيد الميداني بتفجير أولى قنابلها الذرية في 13 فبراير 1960م بمباركة من الجنرال ديغول، من جهته لم تسلم عين إيكر من تفجير قنبلة ذرية ووصل مدى تأثيرها إلى حوالي سبعين (70) كلم ولم تتوقف من تجاربها إلا مع بداية 1962م، لكن المساعي الديغولية الداعية لفصل الصحراء عن الشمال لم تُكلل بالنجاح بسبب الاحتواء السريع من قيادة الحكومة المؤقتة على إقناع الأطراف المعنية بقضية الصحراء الجزائرية، وبعدالة وجهة النظر الجزائرية، الداعية إلى وحدة الجزائر الترابية وأنّ الصّحراء جزء لا يتجزأ من أراضي الجزائر<sup>1</sup>، واستند على هذا الأساس فتح جبهتين جديدتين؛ الأولى على الحدود الليبية أما الثانية على الحدود المالية النيجرية وهذا قصد خلق مصاعب جديدة للفرنسيين وأمام هذه التطورات التي أملتتها على الثورة الجزائرية لإنشاء الجبهة الجنوبية لتحقيق أهداف وهي:

1 مجموعة باحثين، فصل الصحراء في السياسة الاستعمارية الفرنسية دراسات وُبحوث الملتقى الوطني الأول حول فصل الصّحراء عن الجزائر، الجزائر: منشورات المركز الوطني للدراسات والبحوث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، ص 48.

- ارتباط الانتصار السياسي لقضية فصل الصحراء بالتأكيد على تبعية مناطق أقصى الصحراء ولا يتحقق إلا بإنشاء نظام ثوري يُؤطر السكان وتكوين وحدات عسكرية تبرهن ميدانياً على نشاط الثورة.
- تأكيد البُعد الإفريقي للثورة الجزائرية وإرساء دعائم التضامن الحقيقي، فقد كان مقررًا أن تنشأ فرق إفريقية ويتم تجنيد الماليين والنيجريين ليشاركوا في معركة الجزائر التي هي معركة إفريقية.
- توسيع نطاق العمليات العسكرية لتشمل كافة المناطق الصحراوية بغية إلهاء الاستعمار الفرنسي بجهة جديدة لتخفيف الضغط عن الشمال.
- تعزيز قُدرات الولايتين الخامسة والسادسة لتكون قادرة على مواجهة المخاطر المحتملة، مع إيجاد قواعد خلفية للإسناد والدعم، ولا شك أن تجربة نجاح الجبهتين الشرقية والغربية قد كانت ماثلة أمام قادة هيئة الأركان العامة.
- إيجاد منافذ أخرى بديلة لتمرير الأسلحة والمؤونة والاتصال بالداخل، لاسيما بعد إحكام غلق الحدود الشرقية والغربية، والتعويل على إسناد الداخل وإدخال جيش الحدود للمشاركة في المعركة، وقد كانت منطقة أقصى الجنوب معول عليها في هذا الشأن.
- العمل على إحياء النظام الثوري في أقصى الجنوب، وعليه تُخطط لاستقطاب المناضلين من توات إلى مالي لتدريبهم وتجنديهم للمشاركة في معركة بلادهم، وفي هذا رد صارمٌ على سياسة فصل الصحراء، وتأكيد على أن أبناء المنطقة مُنضون في صفوف جبهة التحرير الوطني<sup>1</sup>.

وقد تمّ تجسيد مشروع إنشاء الجبهة الجنوبية عبر مروره بمرحلتين هامتين ومركّزتين: فالمرحلة الأولى تمثلت في وضع الأسس الفكرية التي يركز عليها

1 عبد الله (مقلاقي)، المرجع السابق، ص ص (17، 29).

المشروع لتنفيذه، أما المرحلة الثانية فأتسمت بالتطبيق الفعلي لإنشاء الجبهة الجنوبية التي امتدت من شمال مالي والنيجر إلى غاية الحدود الموريتانية.

### أبرز قادة الجبهة الجنوبية:

وفيا يلي ذكر لأبرز قادة الجبهة الجنوبية للثورة الحريية الجزائرية، وهم كالآتي:

#### 1- فرانز فانون (Frantz Fanon) :

من مواليد فور دو فرانس بجزر المارتنيك بتاريخ (20 جويلية 1925-6 ديسمبر 1961م). خدم خلال الحرب العالمية الثانية في جيش فرنسا الحرة وحارب ضد النازيين، ثم التحق بالمدرسة الطبية في مدينة ليون، وتخصّص في الطبّ النفسي، ثم عمل طبيباً عسكرياً في الجزائر في فترة الاستعمار الفرنسي، عمل رئيساً لقسم الطبّ النفسي في مستشفى البلدية (جوانفيل) في الجزائر، حيث انخرط منذ ذلك الحين في صفوف جبهة التحرير الوطني الجزائرية عام 1955م. انضم فانون كطبيب إلى جبهة التحرير الوطني الجزائرية (F.L.N) غادر سراً إلى تونس، وعمل طبيباً في مستشفى منوبة، ومحرراً في صحيفة «المجاهد» الناطقة باسم الجبهة، وفي سنة 1960م عين سفير الحكومة الجزائرية المؤقتة في غانا، وتوفي فانون عن عمر يناهز الـ36 إثر مرض سرطان الدم، ودفن في مقبرة مقاتلي الحرية الجزائريين<sup>1</sup>.

1 مسعودة (ماضي)، فرانز فانون وثورة في إفريقيا (1925-1961م)، إشراف: عبد الكريم بوصفصاف)، جامعة أدرار: قسم التاريخ، السنة الجامعية: 1429-1430هـ/2008-2009م، ص ص 4، 33.

## 2- صدار سنوسي المدعو (موسى):

ولد بتاريخ 26 جويلية 1931 بمدينة تيارت، وانخرط بعدها في صفوف الكشافة الإسلامية في تيارت. وقد انتقل إلى وهران ونشأ في وسط وطني، وكان رجال نشطاء مشربهم القيم الوطنية من أمثال: همو بوتليس، حاج بن علا، بوجمعة سويداني... وغيرهم.

وعند اندلاع الثورة التحريرية التحق بصفوف جيش التحرير الوطني عام 1955م، وفي جوان 1956م كان من مؤسسي الاتصالات لجهة وجيش التحرير الوطني وعمل بها إلى غاية الاستقلال، وبعد الاستقلال التحق بجامعة الجزائر ونال شهادة في كلية العلوم، واشتغل عدّة مناصب في الإدارة المركزية، وأصبح مديرا عاما إلى غاية تقاعده<sup>1</sup>.

## 3- عبد العزيز بوتفليقة المدعو (عبد القادر المالي):

ولد في 02 مارس 1937م بمدينة وجدة<sup>2</sup>، من عائلة متواضعة، وقد حفظ القرآن في صغره والتحق بمقاعد الدراسة الابتدائية والثانوية، فأظهر تفوقاً في التحصيل العلمي، وفي سنة 1956م دخل في خضم النضال الثوري للقضية الجزائرية وعمره 19 سنة، وكان له أن أنيط بمهمتين، بصفة مراقب عام للولاية الخامسة، أولاهما سنة 1957، والثانية سنة 1958، وبعدئذ مارس مأمورياته، ضابطا في المنطقتين الرابعة والسابعة بالولاية الخامسة. ألحق، على التوالي، هيئة قيادة العمليات العسكرية بالغرب، وبعدها، هيئة قيادة الأركان بالغرب ثم لدى هيئة قيادة الأركان العامة، وذلك قبل أن يوفد، عام 1960، إلى حدود البلاد الجنوبية لقيادة " جبهة المالي " التي جاء إنشاؤها لإحباط

1 Sadar (Senoussi), *Ondes de choc les*, Alger: Editions Aneq, 2002.

2 مولاي التهامي (غيتاوي)، وقفات مشرفة من حياة المجاهد الكبير السيد عبد العزيز بوتفليقة أمانة الله في الدارين، الجزائر: منشورات العالمية للطباعة والنشر، 2013، ص ص 16، 22.

مساعي النظام الاستعماري الذي كان مرامه أن يسوم البلاد بالتقسيم. ومن ثمّة أصبح الرائد عبد العزيز بوتفليقة يعرف باسم "عبد القادر المالي".

#### 4- أحمد بن سبّاق المدعو (بودراعة):

ولد في سنة 1927م بورقلة من الشعابنة<sup>1</sup> لكنه تربى وترعرع في جانت، هذا ما مكّنه من إتقان اللهجة التارقية، كان مجنّد في ليبيا بالجيش الفرنسي رُغمًا عنه، وفور سماع النداء فرّ مع مجموعة من الرفقاء سنة 1956م ليلتحق بصفوف الكفاح، وتوجّه نحو متليلي في غرداية ليكونوا مجموعة من الجنود المتحمّسين للالتحاق بجبال الأوراس<sup>2</sup>.

#### 5- محمد الشريف مساعديّة:

ولد في شهر أكتوبر 1924م بسوق أهراس. بدأ حياته النضالية في الحركة الوطنية في عام 1942م في حزب الشعب الجزائري وحركة انتصار الحريات الديمقراطية. درس بجامع الزيتونة بتونس في بداية الخمسينيات قبل أن يلتحق كضابط بجيش التحرير الوطني من بوابة القاعدة الشرقية. كان ضمن مؤامرة العقيد لعموري الذي حاول الانقلاب على الحكومة الجزائرية المؤقتة في نوفمبر 1958م اعتقلته الحكومة المؤقتة وعذبته وسجن إلى غاية 1960م ليطلق سراحه ويرسل إلى الحدود الجزائرية المالية، توفي في 1 جوان 2002م بالمستشفى الأمريكي بباريس ووري جثمانه في مقبرة العالية<sup>3</sup>.

#### 6- أحمد دراية:

1 شهادة المجاهد بودراعة أحمد (بن سبّاق)، محفوظة بمتحف المجاهد لولاية أدرار.

2 لقاء الذاكرة... مع المجاهد أحمد (بن سبّاق) المدعو بودراعة"، "قناة الجزائرية"، بث يوم 2015/08/17 على الساعة 20:58.

3 عاشور (شرفي)، معلمة الجزائر القاموس الموسوعي (تاريخ، ثقافة، أحداث، أعلام ومعالم)، الجزائر: دار القصة للنشر، 2009، ص (1310)

ولد المجاهد أحمد دراية في 01-05-1925 بسوق أهراس، زاول تعليمه بالكتاتيب القرآنية، ثم درس بمدرسة بيكار الفرنسية حتى سنة 1942م. ومن المهام التي تقلدها المجاهد أحمد دراية: عضو بالكشافة الإسلامية (1940-1945م) وعضو بحركة انتصار الحريات الديمقراطية، ورئيس فوج الشهيد باجي مختار في 1953م، ومكلف بالاتصال بين مدينة سوق أهراس والونزة. انضم إلى جيش التحرير الوطني سنة 1956م ورقي بعدها إلى رتبة قائد القاعدة الشرقية مكلف بالاستعلامات سنة 1957م. رُقي بعد ذلك إلى رتبة نائب قائد الفيلق الرابع سنة 1958م، كما عُيِّن عضو في قيادة القاعدة الجنوبية لجيش التحرير الوطني.

وبعد الاستقلال تولى مهام مدير عام للأمن الوطني سنة 1963م، وعضوا باللجنة المركز لجبهة التحرير الوطني سنة 1964م، كما تولى منصب وزير النقل سنة 1977م، وتوفي بالجزائر سنة 1988م.

#### 7- بلهوشات عبد الله (1923-2003م):

انخرط في الجيش الفرنسي في مطلع الخمسينيات من القرن العشرين، وتقلد رتبة ضابط صف، ثم سرج في 1953م ليعيد تجنيده في أول أكتوبر 1956م، لكنّه فر بعد ثلاثة أشهر وحكم عليه غيابياً بعشرين سنة سجناً مع الأعمال الشاقة من طرف المحكمة الفرنسية 1957م، وأصبح عضو المجلس الوطني للثورة الجزائرية، وتمّ اعتقاله عام 1958م بتهمة الانقلاب على الحكومة المؤقتة الجزائرية وحُكم عليه بعامين حبساً في تونس، ليصدر عفو في حقه في شهر فيفري 1960م ليلتحق بالحدود المالية<sup>1</sup>.

1 عاشور (شرفي)، المرجع السابق، ص ص 222-223.

## خاتمة:

وفي ختام هذا البحث، يمكن القول بأن هناك عوامل عديدة ومتظافرة ساهمت في تأسيس الجبهة الجنوبية المالية النيجرية على الحدود المالية الجزائرية، فكانت بذلك منفذ آخر لتدعيم الثورة الجزائرية وفق استراتيجية محكمة.

وقد تجسّد المشروع ميدانياً بواسطة قادة رفعوا شعار التحدي لإنشاء الجبهة الجنوبية، التي كان لها دور بارز في مسار الثورة الجزائرية، والتي جاءت لتعزّز الانتصارات التي كانت قد حققتها الثورة، هذا من جهة، ولإبطال فكرة تقسيم الوطن من جهة أخرى، والتي طالما كان المستعمر حينها يسعى إلى تحقيقها.

كما أن الثورة التحريرية الجزائرية ازدادت عمقا من خلال خلقها للقاعدة الجنوبية، حيث شاركت فيها عدد من الدول الإفريقية، وخاصة مالي التي احتضنت معسكرات الجبهة الجنوبية في كل من قاو، كيدال، أفلهوك، تساليت وأنتديني، وغيرها من المعسكرات.

كما قامت النيجر بتسهيل عبور المجنّدين إلى معسكرات التدريب، وامتد عمق الثورة إلى دواخل إفريقيا حتى وصل غانا، من خلال ممثل جبهة التحرير الوطني في أكرا "فرانز فانون"، الذي عمل من أجل الاستفادة من جميع الجهود الإفريقية، وهذا بفضل علاقاته مع عدد من قادة الدول، ما جعل الثورة الجزائرية تستفيد من محيطها الإفريقي وتوظّفه في كفاحها من أجل استرجاع السيادة الوطنية.

..وتبقى الجبهة الجنوبية حلقة من أهم الحلقات التي ساهمت في ثبات الموقف الجزائري، من خلال المفاوضات التي سبقت الاستقلال، وهذا بما قدّمته من دعم استراتيجي للثورة في ظل الأجواء التي رافقت تأسيسها، بالإضافة إلى جهود قادتها المحنّكين.



## صور لبعض قادة الجبهة الجنوبية

## قائمة المصادر والمراجع:

### الشهادات:

- شهادة المجاهد بودراعة أحمد (بن سبفاق)، محفوظة بمتحف المجاهد لولاية أدرار.

### المذكرات:

- هشماوي (مصطفى)، جذور نوفمبر 1954 في الجزائر، الجزائر: منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة نوفمبر 1954، (د.س).

### المراجع باللغة العربية:

- بديدة (لزهر)، دراسات في تاريخ الثورة الجزائرية وأبعادها الإفريقية، ط1، الجزائر: دار السبيل للنشر والتوزيع، 1430هـ-2009م.

- غيتاوي (مولاي التهامي)، وقفات مشرفة من حياة المجاهد الكبير السيد عبد العزيز بوتفليقة أمانة الله في الدارين، الجزائر: منشورات العالمية للطباعة والنشر، 2013.

- قندل (جمال)، خطأ موريس وسأل وتأثيراتها على الثورة التحريرية 1957-1962، الجزائر: 2008.

- مجموعة باحثين، فصل الصحراء في السياسة الاستعمارية الفرنسية دراسات وبُحوث الملتقى الوطني الأول حول فصل الصحراء عن الجزائر، الجزائر: منشورات المركز الوطني للدراسات والبحوث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954.

- مقالاتي (عبد الله)، رموم (محموظ)، الجبهة الجنوبية المالية النيجيرية ودورها الاستراتيجي في الثورة الجزائرية، ط1، الجزائر: دار السبيل للنشر والتوزيع، 1430هـ-2009م.

### الرسائل والمذكرات الجامعية:

- بودريوع (صبرينة)، الحياة الاجتماعية في ظل النظام الاشتراكي بالجزائر المرحلة البومدينية نموذجاً (1965-1978)، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف: بوصفصاف (عبد الكريم)، قسم التاريخ والآثار: جامعة منتوري قسنطينة، السنة الجامعية 2010-2011.

- سيد علي (أحمد مسعود)، قضايا ومسائل في المجلس الوطني للثورة الجزائرية 1959/1962، أطروحة مقدمة لنيل دكتوراه العلوم في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف: بوغزة (بوضرساية)، جامعة الجزائر2: قسم التاريخ، السنة الجامعية: 1430-1431هـ. 2010/2009، ص ص 291-292.

- شتواح (حكيمية)، المبادئ التنظيمية لقيادة الثورة الجزائرية 1954-1956، مذكرة ماجستير : تاريخ الثورة الجزائرية، إشراف: زوزو (عبد الحميد)، جامعة الجزائر: قسم التاريخ، السنة الجامعية: 2000-2001.

ماضي (مسعودة)، فرانز فانون وثورة في إفريقيا (1925-1961م)، إشراف: بوصفصاف (عبد الكريم)، جامعة أدرار: قسم التاريخ، السنة الجامعية: 1429-1430هـ/2008-2009م.

#### الموسوعات:

- شرفي (عاشور)، معلمة الجزائر القاموس الموسوعي (تاريخ، ثقافة، أحداث، أعلام ومعالم)، الجزائر: دار القصة للنشر، 2009.

#### الأشرطة الوثائقية التاريخية:

لقاء الذاكرة... مع المجاهد أحمد (بن سبفاق) المودعو بودراعة"، "قناة الجزائرية"، بث يوم 2015/08/17 على الساعة

20:58.

#### المصادر باللغة الأجنبية:

- Senoussi (Sadar), Ondes de choc les, Alger: Editions ANPE, 2002.

#### المراجع باللغة الأجنبية:

- Rapport de Karim Belgacem au CNRA (été1961). Harbi (Mohammed), Les archives de la révolution algérienne, Alger : Editions Dahlab, 2011.

## جوانب من مظاهر الاهتمام الفرنسي بالتجارة العابرة للصحراء في الجزائر وإفريقيا الغربية (1850-1914م).

الطالبة الباحثة: دعاشي سميرة

طالب دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر جامعة باتنة

### مقدمة:

إن موضوع الاهتمام الأوروبي بالقارة الإفريقية عامة والصحراء الكبرى خاصة، سببه التجارة الرائجة على ضفتيها، الأمر الذي شجّع الأوروبيين على إرسال رحالة إلى إفريقيا لاستكشاف مجاهلها، بغية السيطرة على هذه التجارة، وكانت بداية هذا الاهتمام مع نهاية العصور الوسطى و بداية العصر الحديث، الذي يتوافق و الكشف الجغرافي الأوروبي. وكانت التجارة السائدة في تلك الفترة، هي تجارة الرقيق و الذهب عبر سواحل إفريقيا الغربية. لكن مع نهاية القرن الثامن عشر و بداية القرن التاسع عشر، اشتد التنافس الاستعماري خاصة بين الفرنسيين والانجليز حول إفريقيا و الصحراء الكبرى، حيث انتهى بتقسيم قارة إفريقيا إلى مناطق نفوذ في مؤتمر برلين 1884م.

ويمكن اعتبار عامل انتشار الثورة الصناعية في انجلترا؛ السبب المباشر في تحويل نظرة الأوروبيين إلى إفريقيا، من خزان للعبيد إلى خزان للمنتجات المدارية و الصحراوية و مستودعات لتوزيع بضائعها المصنعة. كما يعتبر تاريخ احتلال فرنسا للجزائر؛ بمثابة البداية الحقيقية للاهتمام الفرنسي بالمجالين، فكانت الصحراء الجزائرية<sup>(1)</sup>؛ بمثابة حجر الزاوية للتحكم في منافذها التجارية الأفقية و العمودية في شمال غربي إفريقيا.

(1). يمتد الإطار الجغرافي للصحراء الجزائرية ضمن الصحراء الكبرى الإفريقية؛ التي تمتد من المحيط الأطلسي غربا إلى البحر الأحمر شرقا و من جبال الأطلسي شمالا إلى بلدان الساحل

لتنفيذ مخططها هذا؛ استغلت كل الوسائل من أجل التعرف على منتجاتها، أسواقها و طرقها التجارية، تمهيدا للتجارة الفرنسية عبر الصحراء الجزائرية (من البحر الأبيض المتوسط إلى إفريقيا الغربية).

نظرا لأهمية هذه الدراسة و أبعادها المستقبلية على إفريقيا عامة و الصحراء الجزائرية خاصة، من اهتماماتنا العلمية أن نبحث في هذا التاريخ الفتي، لأن الأقاليم الجزائرية لازالت محتشمة و قليلة جدا أمام الإرث الضخم للكتابات الغربية و المغربية حول الدراسات الإفريقية، الأمر الذي دفعني لطرق أبواب هذا الموضوع و البحث في أحد جوانبه، المتمثلة في مظاهر هذا الاهتمام.

**و السؤال المطروح:** بما أن فرنسا كانت من الدول الأوروبية التي كانت تمارس تجارة الرقيق في سواحل إفريقيا الغربية منذ القرن السابع عشر، فما هي متغيرات القرن التاسع عشر التي دفعت بالمصالح الفرنسية لخلق سياسة جديدة حيال مستعمراتها في إفريقيا الغربية و الصحراء الجزائرية؟.

جنوبا، يشترك فيها من الجهة الشمالية كل من المغرب الأقصى، الجزائر، تونس، ليبيا و مصر و من الناحية الجنوبية الغربية كل من الصحراء الغربية و موريتانيا ، مالي، النيجر، التشاد و السودان من الناحية الجنوبية. تحديدا تقع الصحراء الجزائرية ضمن الصحراء الوسطى؛ تقريبا ما بين خطي طول 10° شرقا و 5° غربا و بين دائرتي عرض 33° و 17° شمالا، إذ تمتد من السفوح الجنوبية لجمال الأطلس الصحراوي إلى غاية جنوب أدرار إيفوغاس ببالي و جنوب مرتفعات الآير بالنيجر. ينظر:

- إبراهيم مياسي: الاحتلال الفرنسي للصحراء الجزائرية (1837-1934م)، دار هومة للطباعة و النشر و التوزيع، الجزائر، 2005 م، هامش رقم: 01، ص 19.

- R.Furon : le Sahara (géologie, ressources, minérales, mise en valeur), Payot, Paris, 1957, p21.

- الدوافع الحقيقية للاهتمام الفرنسي بالصحراء الجزائرية مع بداية الاحتلال:

### 1. تحولات التجارة التقليدية عبر المحيط الأطلسي والصحراء الكبرى:

بعد أن قررت بريطانيا تحريم تجارة الرقيق واستبدالها بالتجارة المشروعة بداية القرن التاسع عشر عبر المحيط الأطلسي والصحراء الكبرى، تلقت مساندة من طرف بعض الدول الأوروبية مثل فرنسا، هذا التغيير كانت له خلفياته. فما هي حسابات ونوايا الدول الأوروبية من وراء هذا الإلغاء؟.

ظلت التجارة عبر الصحراء حكرا على التجار المغاربة وممالك إفريقيا جنوب الصحراء لعهود بعيدة ترجع إلى ما قبل التاريخ، لكن مع بداية الفترة الحديثة شاركت الدولة العثمانية في هذه التجارة إلى جانب المغاربة بحكم أن كل من الجزائر وتونس وطرابلس تابعين لها، وكانت هذه التجارة تدر أرباحا طائلة على أصحابها، مما جر عنه حسد الدول الأوروبية المتنافسة فيما بينها لاسيما فرنسا الشريك التجاري للدولة العثمانية منذ النصف الأول من القرن السادس عشر بحكم معاهدة الامتيازات الأجنبية بين الطرفين، وبريطانيا الدولة الصناعية التجارية الأولى عالميا وغيرها من المدن الأوروبية القريبة من دول شمال إفريقيا، الأمر الذي دفع بهؤلاء إلى العمل للوصول إلى مصادر هذه السلع بدل الوسيط المغربي، فكان استقرارهم في البداية على سواحل المحيط الأطلسي فأشرك القارة في خلق علاقات تجارية واسعة الأطراف مع العالم الجديد وأوروبا منذ أواخر القرن الخامس عشر.

ففي القرون الثلاثة السابقة للثورة الصناعية انتشرت تجارة الرقيق بشكل كبير عبر المحيط الأطلسي. لكن مع نهاية القرن الثامن عشر بدأ الشعور يتبلور في أوروبا، حول الجرائم التي يرتكبها الأوروبيون في تجارة الرقيق، من الذين كانوا في طليعة هذا الأمر عدد من الفلاسفة مثل فولتير واثنين من القساوسة الفرنسيين اللذين أنشأ "جمعية أصدقاء السود" وقاموا بحركة كبيرة لتحرير العبيد، كما

ظهرت حركة مناوئة للرق في انجلترا لكن هذه الحركة لم تشكل أي تأثير على الرأي العام<sup>(1)</sup>.

إلا أن الواقع يُقر بأن التطور الصناعي في أوروبا، فرض عليها تغيير نظرتها للمنطقة من ممول لليد العاملة إلى ممول للمواد الأولية الزراعية التي تزخر من منتجات المناخ المداري والصحراوي<sup>(2)</sup>، كما أن بريطانيا ذاتها سجلت بطالة بين البيض نتيجة الاستعمال الواسع للآلة، الأمر الذي جر عنه الاستغناء عن اليد العاملة للسود، عند هذه النقطة التقت المصالح الاقتصادية والسياسية، فدفعت بالحكومة البريطانية إلى انتهاج سياسة القمع ضد تجار الرقيق في مستعمراتها الواقعة على ضفاف المحيط الأطلسي وكذلك في الصحراء الكبرى، فلم تكذب تحل سنة 1772م حتى حرّمت الحكومة البريطانية الرقيق في بريطانيا وفي سنة 1807م طبقت إجراءات لمنع هذه التجارة في مستعمراتها<sup>(3)</sup>.

بعد أن أصبح محظورا على الرعايا البريطانيين الاشتغال بتجارة الرقيق وقررت الدول الأوروبية إلغاء هذه التجارة، أخذت إفريقيا الغربية تواجه إيجاد صادرات بديلة، ففي الوقت الذي كانت فيه الصادرات تعتمد بشكل كبير على تصدير عامل واحد، وهو الأيدي العاملة<sup>(4)</sup> أصبح للأرض أهمية.

(1). إسماعيل العربي ، الصحراء الكبرى و شواطئها، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983، ص 357-358.

(2). مسعودة قاسي، تجارة زيت النخيل و التنافس البريطاني و الفرنسي في خليج غينيا القرن التاسع عشر، رسالة ماجستير، كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية، قسم التاريخ، جامعة الجزائر 02، الجزائر، 2009-2010، ص 37.

(3). إسماعيل العربي، المرجع السابق، ص 357-358.

(4). هوبكنز. أ. ج، التاريخ الاقتصادي لإفريقيا الغربية، تق، عبد الغني سعودي، تر، أحمد فؤاد بليغ، المطابع الأميرية، القاهرة، 1998، ص 172-176.

يمكن اعتبار بداية القرن مؤشرا لانتشار الزراعة النقدية (الفول السوداني، زيت النخيل، القطن) حيث أصبح زيت النخيل<sup>(1)</sup> هو السلعة الأساسية المصدرة في القرن التاسع عشر، فكان زيت النخيل هو السلعة الرائدة في التصدير بداية القرن، وبعدها لب النخيل والفول السوداني في النصف الثاني من القرن، هذه المنتجات كانت استجابة للنمو الصناعي في أوروبا الذي أدى إلى زيادة الطلب على الزيوت والدهون<sup>(2)</sup>.

بما أن الصحراء الكبرى كانت ضمن المخطط الاقتصادي للدول الأوروبية، كانت المبادرة الأولى لبريطانيا صاحبة القرار الخاص بمحاربة تجارة الرقيق عبر الصحراء لإحلال منتجاتها وسلعها الصناعية محل الرقيق، فكانت لها الشرعية للتدخل في أقاليم الدولة العثمانية الداخلية وهذه المرة عبر سواحل البحر الأبيض المتوسط في القرن التاسع عشر .

ففي عام 1814م أقر مؤتمر فيينا لبريطانيا امتلاكها لجزيرة مالطا ذات الموقع المقابل للشاطئ الشمالي لإفريقيا كما تلقت تكليفا من الدول المؤتمرة بان يفرض الأسطول البريطاني هيمنته على البحر المتوسط ومراقبة بلدان شمال إفريقيا وأن يمنع استرقاق المسيحيين والقضاء على القرصنة مع فرض التعامل مع أسراهم على

(1). تم اكتشاف مادة زيت النخيل من قبل البرتغاليين في غرب إفريقيا عام 1466م ووصلت حولتها إلى أوروبا في القرن السادس عشر، لكن لم تعرف كمادة صناعية بل غذائية، كما استخدمه الأهالي كغذاء أو كدواء لبعض الأمراض، كما استعمل من طرف تجار الرقيق لضمان سلامة بضاعتهم من العبيد أثناء السفر، مع نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر بدأت تعرف كمادة صناعية، فاستخدم في صناعة الصابون وزيوت التشحيم والشموع، ينتشر زيت النخيل في المناطق الاستوائية الرطبة وبالضبط في غرب إفريقيا بين خطي عرض 12° جنوبا و 16° شمالا، بين أنغولا وغامبيا على طول الحزام الساحلي، ينتشر في المناطق الغابية من الكونغو إلى الحدود الجنوبية لواذاي. أنظر: هوبكنز، المرجع السابق، ص 261.

- مسعودة قاسي، المرجع السابق، ص 36، 25.

(2). هوبكنز، المرجع السابق، ص 253-254، 260.

أنهم أسرى حرب وليسوا رقيقاً، من هذا المنطلق عينت بريطانيا جورج وارنغتون في طرابلس أحد أهم المدن الفاعلة في مجال النشاط التجاري مع الصحراء ومفتاح إفريقيا القريب للتوغل البريطاني في أقاليم جنوب الصحراء، حيث اخذ جورج وارنغتون يعمل على إدارة الصراع الاستعماري ضد فرنسا الصناعية التي كانت لها نفس الغرض، كما عمل على توطيد علاقته مع يوسف باشا القرملي الذي كان يرى أن الحكومة البريطانية بإمكانها أن تزوده بالأموال مقابل دعمها لمخططاتها في الصحراء والأقاليم جنوب الصحراء<sup>1</sup>.

وتأكيداً لأهمية المنطقة أرسلت وزارة المستعمرات البريطانية بتدبير من وارنغتون أول بعثة علمية استطلاعية في الصحراء الكبرى تحت واجهة الحد من تجارة الرقيق وذلك عام 1818م بقيادة الطبيب ريتشي (Ritchie)، كما جهزت الجمعية الإفريقية البريطانية ما بين عامي 1822-1824م بعثة للسفر إلى إفريقيا جنوب الصحراء وتمثيل المصالح البريطانية في دول بحيرة التشاد فكانوا ينقلون معهم نماذج من البضائع البريطانية وتقديمهم معلومات عن التجارة والأسعار، هذه المساعي كانت فرنسا على علم بها بالرغم من تصدي قنصل بريطانيا العام وارنغتون لها، إلا أن الرحلات والبعثات الفرنسية تحركت من طرابلس، بنغازي، الإسكندرية والقاهرة لدراسة مراكز التجارة الصحراوية الغامضة في فزان ففي سنة 1824م بعثت الجمعية الجغرافية الفرنسية جان ديمون باكو (Jean Daimoun Bacouet) من الإسكندرية عن طريق سلوم إلى درنة ومنها إلى أجدايبيا، ثم إلى الجنوب حيث أوجلة و جالو، وباحتلال الجزائر اشتد اهتمامهم بالصحراء الكبرى انطلاقاً من الصحراء الجزائرية حيث شكلت لجنة الاستكشاف العلمي بالجزائر عام 1837م من أجل؛ القيام بدراسة التجارة الصحراوية من

(1). جاسم محمد شطب العبيدي، "التجارة الصحراوية الإفريقية والمسألة الشرقية في القرن التاسع عشر و مطلع العشرين"، في مجلة كربلاء العلمية، المجلد السابع، ع 4، 2011، ص 56-

خلال معرفة المبادلات، أنواع السلع، وسائل الدفع، المراكز التجارية وطرق منافذها خارج الصحراء<sup>(1)</sup>.

## 2. الدراسات والمشاريع التجارية عبر الصحراء الجزائرية بدايات الاحتلال :

إن ما تعرضت له فرنسا من مضايقات من طرف جورج وارنغتون بطرابلس لهدف طرد الفرنسيين من المنطقة والمنافسة التجارية عبر الصحراء، ردت عليه فور احتلالها للجزائر فعملت على دراسة تجارة الصحراء الجزائرية لتحويل التجارة من غات وغدامس نحو الجزائر وبعدها تونس، حيث وضع كاروت (Carette) دراستان بين فيهما الأهمية التجارية للصحراء الجزائرية، عن طريق استقائه للمعلومات من طرف أصحابها<sup>(2)</sup>. في حين نشر دوماس عام 1845م كتاب بعنوان: الصحراء الجزائرية، قدم فيه دراسة حول نسبة تقدم الفرنسيين في تعرفهم على الصحراء خلال ذلك الوقت، كما تحدث عن الجهود المبذولة للحصول على أكبر قدر ممكن من المعلومات حول هذه المناطق الصحراوية قبل التوغل فيها<sup>(3)</sup>.

(1). جمال فنان ، قضايا و دراسات في تاريخ الجزائر الحديث و المعاصر، المؤسسة الوطنية للاتصال و النشر، الجزائر، 1994، ص 139 .

(2). E. Carette, **Recherches sur la géographie et le commerce de l'Algérie Méridionale**, T.8, Imp. Royole, Paris , 1844, p 159-161.

(3).Daumas, **le Sahara Algérien ( études, géographiques, statistiques et historiques sur la région au sud des établissements français en Algérie)**, S.M.E, Paris, 1845, p 6 .

كما أكد على أهمية التجارة في الجنوب وأوضح أن بسكرة تعد مركزا تجاريا هاما للتجار العرب الوافدين من بوسعادة، أولاد نايل، تفرت، وادي سوف، ... الخ، لهذا يقتضي توسيع الاحتلال جنوبا لتوسيع تجارتهم إلى داخل إفريقيا<sup>(1)</sup>.

فيما بعد أشار فيرو (Feraud) إلى أهمية ورقلة التجارية بقوله: « أنه باحتلال ورقلة يمكن إقامة إدارة فرنسية قوية أساسها السوق التجارية التي ستكون هامة للأوروبيين والعرب والميزابيين والسود واليهود<sup>(2)</sup> ».

إضافة إلى الدراسات المقدمة، ظهرت عدة مشاريع بهذا الخصوص، أهمها ما قام به بوديشون (Bodichon) الذي تصور أهمية مشروع الربط بين الجزائر وتبكتو، على اعتبار أن سكان الجنوب بأمس الحاجة إلى المواد الغذائية التي تأتيهم من الشمال، بالإضافة إلى إمكانية فتح طريق الصحراء بل وعبورها نحو السودان وبالتالي استثمار فرنسا على تجارة الصحراء ودواخل إفريقيا، فهي بإمكانها أن تجعل من الموانئ الجزائرية منافذ لتجارة السودان وإفريقيا الغربية ومن الواحات مراكز عبور لها، كما يمثل السودان قوة استهلاكية هائلة تقدر بـ 20 مليون نسمة وستصبح سوقا ضخمة للمنتجات الصناعية الفرنسية<sup>(3)</sup>.

منذ عام 1844م أصدر البرلمان الفرنسي قانونا يقضي بمد منطقة الاحتلال نحو الجنوب والارتكاز حول مراكز المبادلات التجارية بين الشمال والجنوب في

(1). Broc Numa, « les Français face à l'inconnue Saharienne (géographes, explorateurs, ingénieurs 1830-1881) », Annales de géographie, T.96, N°.535, 1987, p 304.

(2). Daumas, Op.cit, p 9 .

(3). جمال فنان، المرجع السابق، ص 141-142.

كل من سبدو، سعيدة، تيارت وبوغار، حيث تم تتويج تلك السنة باحتلال بسكرة التي كانت مفتاح التجارة الصحراوية من الجهة الشرقية<sup>(1)</sup>.

في وقت لاحق قامت الجمعية الإنجليزية بإرسال هنري بارث الألماني؛ من أجل تنظيم تجارة لها في السودان والصحراء، فبدأ رحلته من طرابلس من أجل الوصول إلى نهر النيجر رفقة جيمس رشادسون وأوفروانغ، فوصلوا إلى بورنو وهناك افترقوا، فقصده بارث بحيرة التشاد ثم بحيرة يولا ومنها اتجه نحو الغرب فوصل إلى كاتسنا، ثم سوكوتو وواصل طريقه حتى وصل نهر النيجر واتجه شمالا نحو تنبكتو التي وصلها في شهر سبتمبر 1853م، بعد ثمانية أشهر تقريبا غادرها وعاد إلى طرابلس ثم لندن<sup>(2)</sup>.

بعد أن قدم بارث للعالم معلومات جغرافية وتاريخية دقيقة حول الصحراء والتشاد، كتب مقالا قبل وفاته بقليل ونشره في نشرة الجمعية الجغرافية بباريس؛ حث فيه فرنسا على القيام بعمل جبار وواسع في الصحراء الإفريقية وطلب منها أن تستحوذ على هذه المناطق وتربطها بالجزائر، في نفس الوقت عليها أن تتفهم عقلية سكان تلك المناطق وتحترم معتقداتهم خاصة الدين الإسلامي، لذلك يستحسن اختيار روادها لهذه المهمة، مع استعمال أساليب متعددة معهم، بحمل السيف والبندقية بيد والكتاب والقلم بيد أخرى.

إن المتتبع لمسار السياسة الفرنسية خلال فترة تواجدها بهذه المناطق، يدرك مدى حرصها على منافسة بريطانيا في مجال التجارة عبر الصحراء الكبرى واعتبرت الصحراء الجزائرية بمثابة حجر الزاوية للتحكم في منافذها التجارية الأفقية والعمودية، كما يدرك مدى تنفيذ توصيات هنري بارث؛ ففي سنة 1855م قدمت

(1). نفسه، ص 140.

(2). إبراهيم مياسي، "الاهتمام الفرنسي بالصحراء"، مقال نشر في كتاب طريق القوافل، مطابع ثرفي عمار، باتنة، 2001، ص 85-86.

الجمعية الجغرافية بباريس مبلغا بستة آلاف فرنك، للذي يقوم برحلة من الجزائر إلى السنغال أو بالاتجاه المعاكس، بشرط أن يمر بتنبكتو<sup>(1)</sup> ويأتي بمعلومات دقيقة حول تنظيم القوافل، طرقها، مواردها الطبيعية ومنتجاتها، أهم المراكز التجارية و سلعها وأسعارها، كما لا ننسى اهتمامها بالجانب الثقافي لهذه المجتمعات لأغراض استعمارية.

### - مظاهر الاهتمام الفرنسي بالإقليمين:

إن المتتبع لمسار السياسة الفرنسية خلال فترة تواجدنا بهذه المناطق، يدرك مدى تنفيذ توصيات هنري بارث؛ ففي سنة 1855م قدمت الجمعية الجغرافية بباريس مبلغا بستة آلاف فرنك، للذي يقوم برحلة من الجزائر إلى السنغال أو بالاتجاه المعاكس، بشرط أن يمر بتنبكتو<sup>(2)</sup> و يأتي بمعلومات دقيقة حول تنظيم القوافل و طرقها، مواردها الطبيعية و منتجاتها، أهم المراكز التجارية و سلعها وأسعارها، كما لا ننسى اهتمامها بالجانب الثقافي لهذه المجتمعات لأغراض استعمارية. والسؤال المطروح: كيف نفسر تدافع الوسائل الفرنسية لعبور الصحراء الجزائرية؟.

### 1. الرحالين الأوربيين و دورهم في عملية الكشف الجغرافي و التجاري للصحراء:

ظلت منطقة الصحراء الإفريقية الكبرى خلال القرن التاسع عشر محل اهتمامات الفرنسيين، فقد حرصت فرنسا على منافسة الدول الأوروبية في مجال التجارة عبر الصحراء الكبرى و اعتبرت الصحراء الجزائرية بمثابة حجر الزاوية للتحكم في منافذها التجارية الأفقية و العمودية. هكذا جاءت مجموعة من الرحلات استجابة لهذا الغرض، و من أهم الرحالة الذين اهتموا بهذا الجانب

(1). نفسه، ص 85، 86.

(2). نفسه، ص 85، 86.

نجد الرحالة بونان فرانسوا لويس<sup>(1)</sup>، الذي كلفه الحاكم العام للجزائر راندون بالقيام ببعثة إلى غدامس لغرض معرفة أسعار منتجاتها ليقدروا أسعار منتجاتهم أثناء التبادل التجاري<sup>(2)</sup>.

هذه الرحلة تمت في غضون شهرين من يوم: 26 نوفمبر 1856م إلى غاية: 15 جانفي 1857م، حيث بدأها صاحبها من تشرت أين كان يقوم بشن حملات عسكرية على مناطق الصحراء يوم: 26 نوفمبر إلى واد سوف، هناك انضم إلى قافلة السوافة (Souafas)، لأن الفرنسيين كانوا مهتمين بسوف بدليل الوصف الدقيق الذي قدمه الرحالة حول تنظيم قوافل سوف و التركيز على علاقات غدامس معهم و منتجاتهم.

لقد غلب على هذه الرحلة الطابع التجاري، فصاحب الرحلة كان مكلفا من قبل المارشال راندون، ليجمع له أكبر قدر ممكن من المعلومات التي تهم الفرنسيين في هذا المجال و هكذا زودتنا هذه الرحلة بمعلومات هامة عن تنظيم

(1). ولد بونان فرانسوا لويس في باستيا (كورسيكا) بتاريخ: 18 أكتوبر 1817م، والده كان حاكما عسكريا، نزل بالجزائر مع عائلته، تعلم لغة البلد و تمكن منها بشكل جيد(1). هذا الشاب المسيحي نزل بخيمة بن علال (Ben-Allal) فمنحه، اسما عربيا و هو مصطفى (Mustapha)، حيث ظهر في كتابات أبي القاسم سعد الله باسم مصطفى بونان الجزائري، و بعد فترة قرر بونان مغادرة المنطقة و انخرط كمتطوع في الفرقة الأهلية للدرك بالجزائر و كلف كمرجم عسكري مساعد. تقلد عدة مناصب منها رقيب في فرقة الصبايحية، و بعد عودته من رحلته إلى غدامس عُيِّن ضابطا في الفيلق عام 1857م. تمت ترقيته إلى قائد السرية خارج المصلحة التي كان يعمل بها. توفي في كال (Calle) بتاريخ: 13 جانفي 1887م، بينما كان في مهمة تفتيشية. حضر جنازته بعض ممثلي الطرق الصوفية من التيجانية و الرحمانية و بحضور المسؤولين الفرنسيين، حيث عاش زنديقا و دفن وفق مزيج من الدين المسيحي و الإسلام(1).

- faucon NARCISSE , *Le livre d'or de L'Algérie*, T. 1, librairie Algérienne et coloniale, Paris, 1889 , p 90.

القوافل و سيرها و الأخطار التي قد تتعرض لها وكيفية مواجهتها. كما تزودنا الرحلة بمعلومات هامة عن تنظيمات و قوانين غدامس.

كما تفيدنا الرحلة في معرفة وسائل التبادل التجاري المستعملة وقتها ، فتحدث صاحب الرحلة عن المكاييل و الأوزان؛ و الأسعار و أهم السلع و المبادلات التجارية بين غدامس و المتعاملين معها من سواقة، سودانيين، تونسيين، طرابلسيين و فيلاليين. كما أشار إلى أهم المراكز التجارية التي كانت تتعامل معها قبائل صحرائنا الجزائرية مثل غدامس، تنبكتو، المغرب و غات ، وركز على المسالك المؤدية بجهة الصحراء الجزائرية و السودان، باعتبارها محل اهتمام الفرنسيين ، و أوضح بدقة أسعار كل السلع و فصل بين سلع الشمال و سلع السودان. كما أوضح أن غدامس ليست سوى محطة تخزين بين شمال إفريقيا ووسطها و أهم هذه المراكز هي غات لأنها أكبر أسواق إفريقيا الذي يدوم أربعين يوماً، أين يتم إيداع جميع منتجات القوافل من الشمال و الجنوب<sup>(1)</sup>.

هذه الرحلة أتت بنتائج قيّمة، الأمر الذي حفز فرنسا على بعث رحالة آخرين إلى غدامس في وقت لاحق مثل **دوفيريي (Duveyrier)**، للتعرف بشكل كامل على البنية الاجتماعية و الدينية و النفسية لسكانها<sup>(2)</sup>، بدليل ما ورد في رحلة بونمان أنه تأسف كثيرا لأنه لم يستطع زيارة كل البلاد و تمنى أن يزورها أحد آخر ليقدم معلومات عن هذه القبائل بشيء من التفصيل أكثر مما ذكره.

(1). Ibid, p 125.

(2). فارس كعوان، الاستشراف الفرنسي و التراث التواتي (قراءة في رحلة عبد القادر بن أبي بكر التواتي بن هيبية الله)، مقال نشر بمجلة كان التاريخية الإلكترونية، السنة الرابعة، ع 12، يونيو 2011، ص 42.

كما أن المعلومات التي جمعها عن القادة الرئيسيين للطوارق وحرص سكان غدامس وحاكمها على فتح علاقات تجارية مع الجزائر الفرنسية<sup>(1)</sup>. تجل ذلك في استدعاء زعيم الطوارق الديني الشيخ عثمان لزيارة العاصمة و قسنطينة خلال حكم المارشال راندون و مرة أخرى في عهد المارشال الدوق دومالاكوف بيسلي لزيارة العاصمة و باريس، و بعد التأثير فيه قبل هو و الشيخ اينوخن و تم إمضاء المعاهدة التجارية من طرف الشيخ اينوخن نيابة عن القبائل الأخرى<sup>(2)</sup>.

كما تكشف لنا رحلة فلاترز مدى اهتمام فرنسا بالجانب التجاري؛ بعد سلسلة من البعثات الاستكشافية نحو الصحراء التي مثلها الضباط و بعض المغامرين الفرنسيين و العملاء الجزائريين، ظهرت فكرة مد خط حديدي عبر الصحراء في ستينات القرن التاسع عشر، لهدف نقل البضائع و اختصار الزمن الذي كانت تستغرقه القوافل، هذا المشروع أسال حبرا كثيرا و نقاشا طويلا بين محبذ و مشكك للمشروع<sup>(3)</sup>، ختم بإرسال فلاترز<sup>(4)</sup> رفقة طاقم من المهندسين لرسم الخطوط الأولى لطريق السكك الحديدية عبر ورقلة و الأهقار.

(1).Bonnemain, « Voyage à ADAMÈS رَمَهَا اللهُ », R.A.C, décembre 1859, , Imp. de CH.LAHURE et CIE, Paris , 1859, p 130.

(2). يحي بوعزيز، تاريخ إفريقيا الغربية الإسلامية ( من مطلع القرن السادس عشر إلى مطلع القرن العشرين) و يليه الاستعمار الأوروبي في إفريقيا و آسيا و جزر المحيطات، دار البصائر للنشر و التوزيع، الجزائر، 2009، ص 54.

(3). جمال فنان، المرجع السابق، ص 143.

(4). ولد بول فلاترز في افال بفرنسا في: 16 سبتمبر 1832م، دخل الكلية العسكرية سان سير في: 07 نوفمبر 1851م، تخرج منها برتبة ملازم في: 8 نوفمبر 1854م(4)، عُين ملازمًا للفرقة الثالثة (Zouaves) في: 23 أبريل 1855م. بعد دخوله إلى الجزائر، تمكن في ظرف قياسي من الدخول إلى فئة المستخدمين الخاصة بشؤون الأهالي(4)، فدخل في خدمة الشؤون العربية يوم: 1 جويلية 1856م تقلد عدة مناصب منها نائب في مكتب قسنطينة تابع لمنطقة تاقيطونت (Takitount) في 23 فيفري 1858م، ثم لمنطقة تاوريرت ابغيل في 1 مارس 1859م. نقيب

لقد تمت البعثتان حسب ما ذكر ديريكافيس (Derregagaix)<sup>(1)</sup> من ورقة إلى الأهقار و دامت الأولى أربعة أشهر؛ من: 19 جانفي 1880م إلى غاية: 17 ماي 1880م و الثانية دامت شهرين و نصف فكانت من: 04 ديسمبر 1880م إلى تاريخ وفاته بالصحراء يوم: 16 فيفري 1881م.

باعتبار أن صاحب الرحلة مات قبل أن يتم رحلته، أرخ ديريكافيس لهذه الرحلة من خلال الوثائق التي جمعت من طرف قائد الأغواط و القنصل العام في طرابلس (Feraud) و المهندس (Fournié)<sup>(3)</sup> و دوفيرييه، هذا حتى يتم

---

سنة 1861م ، رئيسا لمكتب العرب في سعيدة سنة 1865م ، قائد عسكري في الأغواط سنة 1876م، لأنه كان يعرف كيف يتعامل مع قبائل البدو الرحل و يقيم علاقات معها(4) و أخيرا عُيِّن مقدم كولونال في: 03 ماي 1879م. قتل من طرق الطوارق في تينتراين بالصحراء بتاريخ: 16 فيفري 1881م(4)، انظر:

- faucon , Op.cit , p 247.
- V .Derregagaix , Exploration du Sahara , les deux missions du lieutenant-colonel Flatters, Imp. émile martinet, Paris, 1882 , p 130.

(1). ديريكافيس: ولد فيكتور برنارد ديريكافيس في بايون (Bayonne) بتاريخ 14 أكتوبر 1833م، عمل في المجال الطبوغرافي بالجزائر، ففي سنة 1863م عمل في بسكرة و في سنة 1864م عمل بالجلفة. أنظر:

- J.Ganz (photographe), Victor Bernard Derrecagaix Avant 1883, Bruxelles, Paris,20
- février 1883.

(2).V .Derregagaix , Op.Cit, p 131.

(3). فوري (Fournié): كان المهندس فوري في تلك الفترة مديرا لإنشاء السكك الحديدية لدى وزارة الأشغال العمومية و قد عُيِّن مقررًا للجنة الفرعية الأولى و مكلفًا بتنفيذ قرارات الوزارة فيما يخص استكشاف الصحراء، فكانت معظم الأوامر التي تلقاها فلاترز مصدرها

التمكن من تقريب المعلومات، حيث قدمها لنا في شكل ملخص لإظهار أهم نتائج الرحلة و ما قدمه فلا تبرز و فريقه للعلوم الجغرافية.

بعد أن مدّت فرنسا خطوط السكك الحديدية في شمال الجزائر، أزمعت على تكملة هذا المشروع عبر الصحراء و بعد اقتراح مجموعة من المشاريع من طرف المهندسين و الخبراء، تم التوصل إلى إحداث ثلاثة خطوط و هي: الخط الشرقي عبر غدامس ، الخط الأوسط من ورقلة إلى أمقيد و منه نحو النيجر أو بحيرة التشاد، الخط الغربي عبر توات، بعد مباحثات فيما بينهم، وقع الاختيار على الطريق الأوسط لاعتبارات سياسية تم تسطير برنامج له للتوغل الهادئ عند الطوارق<sup>(1)</sup>.

قبل رسم طريق للسكة الحديدية في الصحراء، رأى الفرنسيون أنه يجب إعادة تيار القوافل التجارية الذي كان يربط ورقلة ، زندر، كانو و كاتسنة (بلاد الهاوسا) و بين ورقلة و تنبكتو باتجاه النيجر. هذان الخطان يسيران معا من ورقلة إلى أغلاشم (Aghellachem) أين يفترقان، فطريق النيجر الذي كان يمر على تيمساو (Timissao) كان يصل في القديم مدينة غاؤ، يجب أن يمر الآن على تنبكتو و الطريق الثاني لبلاد الهاوسا كان يمر عبر سبخة أمدغور التي بها منجم غير قابل للنفاذ من الأملاح بشرق الأهقار و مدينة أقدز (Acadez)<sup>(2)</sup>.

---

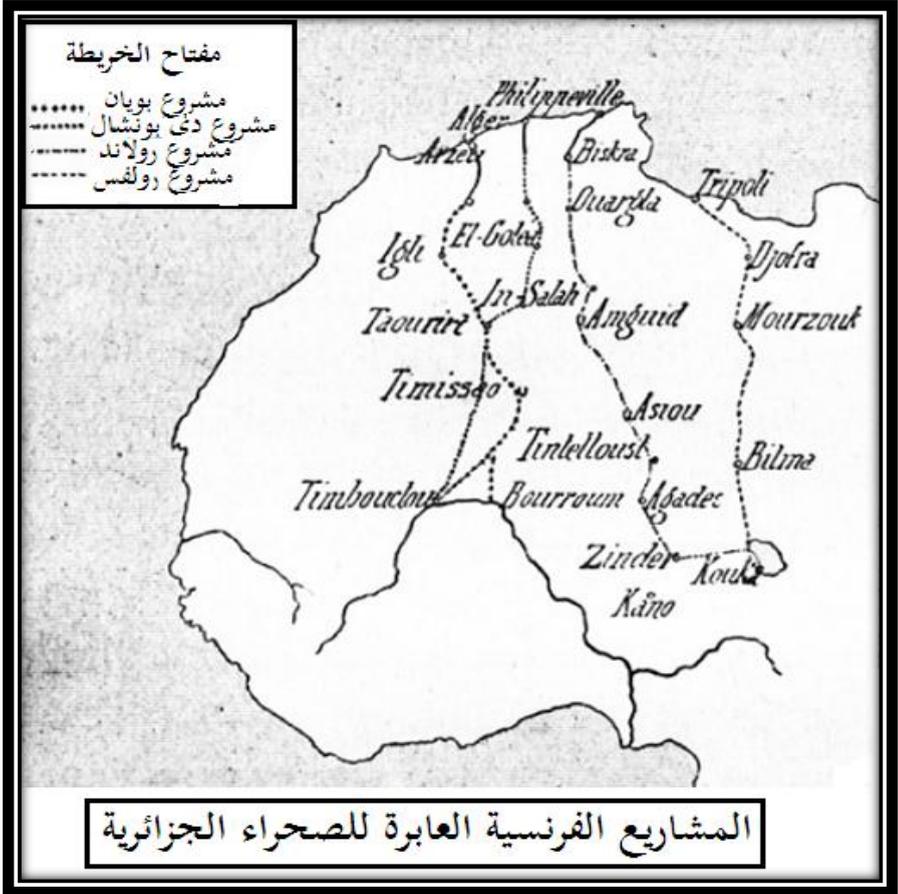
فورني، بعد ذلك أصبح صديقهم و سندا لهم ، فكان له الفضل في العديد من الأفكار لأداء هذين الاستكشافين و في النتائج التي تسجلتها الجغرافيا اليوم . انظر:

- Ibid, p 13.

(1). مياسي، الاحتلال الفرنسي، ص 441-442.

(2).V. Derregagaix , Op.cit, p 7.

إن المتتبع لمسار الرحلة، يدرك أن البعثة اتبعت الطريق الذي يربط ورقلة بهذه المناطق لدراسة طبوغرافيتها، و معاينة العقبات التي تعترض مسار السكة الحديدية، حيث ذكر فلاترز أنه يمكن إعداد خط دون صعوبة إلى أكثر من 4,000 كلم جنوب ورقلة، عبر القاسي و الحمادة و الرق.



حسب ما أشارت إليه الرحلة أنه تم إعداد خريطة لكل البلدان التي عبروها على أساس معلومات واضحة و مشاهدة للمناطق الشرقية و الغربية و التي

وسعت معارفهم الجغرافية حول الدرجة 32° لخط عرض شمالا بالقرب من الدرجة 24°، كما تم وضع مخططين لمسار السكة الحديدية حسب المعلومات التي اشرفنا إليها أعلاه.

إلى جانب البعثات الفرنسية قامت السلطات الفرنسية باستثمار بعض الجزائريين في مهمة اختراق الصحراء، ففي الفترة الاستعمارية عمل الكثير من الجزائريين في خدمة الاستعمار الفرنسي، كجواسيس و عيون لنقل أخبار المناطق التي زاروها للفرنسيين، ليسهل الأمر عليهم دخولها فيما بعد، فجاءت رحلاتهم وفق رغبة و أهداف سلطات الاحتلال الفرنسي؛ يعتبر الأغواطي أحد الرحالة الجزائريين المستهدفين من قبل الإنجليز قبل الاحتلال الفرنسي للجزائر و خلال العهد الفرنسي وُظف العديد من الجزائريين في مهمة اختراق الصحراء أمثال الحاج البشير، إسماعيل بوضربة، الجباري، الحاج عبد القادر أبو بكر التواتي، الشيخ محمد الطيب و غيرهم من الرحالة. فلماذا أقحمت فرنسا بعض الجزائريين في مهمة اختراق الصحراء و إلى أي مدى ساهمت هذه الرحلات في تثمين معارف فرنسا حول الصحراء و السودان ؟ .

من الرحالة الجزائريين الذين قدموا معلومات في غاية الأهمية حول التجارة الصحراوية نجد الرحالة أبي بكر التواتي<sup>(1)</sup> الذي كلف برحلة نحو السودان، سنة 1849م حيث أستخدمي الرحالة لتفرت للقاء الفرنسي (Du Coudet) المعروف باسم حجي عبد الحميد باي، الذي طلب منه تدوين أبجدية الطوارق و قائمة بأسماء قادة الأهالي للمناطق الصحراوية، كما كلفه الضابط بواسوني (Boissonet) بنفس الطلب، إضافة إلى معلومات أخرى.

(1). هو سيدي الحاج عبد القادر بن أبي بكر بن هيبه الله الشريف التواتي، مولود بقرية تيديكلت بمنطقة أولف. أنظر:

- L'abbé Barges, *Le Sahara et le Soudan, documents historique et géographiques*, Just rouvier libraire-éditeur, Paris, 1853, p 4.

رغم ما قاله الرحالة حول تكليفه بمهمة جمع المعلومات حول قادة القبائل و موافاتهم لأبجدية الطوارق، إلا أن الرحلة عاجلت أيضا الجانب الجغرافي و الاقتصادي و هذا دليل على اهتمام الفرنسيين بهذا المجال و هكذا زودتنا الرحلة بمعلومات هامة حول قادة القبائل الصحراوية و الطرق و المسالك الصحراوية و قدم لنا الرحالة وصفا لطبيعة الأراضي التي مر بها و مواردها الاقتصادية بأسمائها المحلية .

يذكر صاحب الرحلة عددا من منابع المياه التي مر بها، كما أشار إلى مجموع الوديان التي تسقي منطقة توات كذلك أسماء النباتات و الأشجار التي تنمو بالمناطق التي زارها، و الملفت للنظر أنه يقدمها لنا بلغات تلك المناطق و منافعها الطبية و أماكن تواجدها.

يفيدنا الرحالة في هذا الجانب بوجود بعض الثروات المعدنية الموجودة بالمناطق التي عبرها، حيث ذكر حجر القط، الطلق، البلور، الرخام الأخضر، الأحمر، الأسود، حجر الشب، الكبريت النطرون و الملح، أما الأحجار الكريمة فقد أحصى خمسة و عشرين نوعا، كما فصل في هذه الأنواع مثل الياقوت و أنواعه؛ الأحمر، البنفسجي، الزيتي، السماوي، الأبيض، الأخضر، الزمرد و العقيق و هناك نوعان من الماس الأبيض و الأزرق.

بالإضافة إلى ذكر المعادن و بعض المنتجات، أشار الرحالة إلى أهم الأسواق المنتشرة في توات، أهمها تيميمون و التي يرتادها رجال حميان الشراقة، أولاد زياد، الدراق، زراين، الظراف، الغياشر، ذوو أولاد سي الشيخ، أحمد و لخضر و الشعابنة، في الجهة الغربية هناك سوق تيمي الذي يؤم أسواقه الفلان و أهل

الغرارب (غرب إفريقيا)، كما يرتاد سوق تنظيم أهل ساهل، العرب، البدو، الجكانة، أولاد الحاج و سكان سوف<sup>(1)</sup>.

من خلال المعلومات التي قدمها الرحالة يبدو أنه كان على اطلاع بأمور الصحراء و عارفا لبعض اللغات و اللهجات الصحراوية و الإفريقية، الأمر الذي أكسب رحلته أهمية كبيرة، كما نوه بذلك القس بارجيس الذي قال إنها عمل مفيد و نافع للتعرف على أحوال الصحراء الجزائرية و السودان الغربي حول جوانب سياسية، تاريخية، اقتصادية و جغرافية<sup>(2)</sup>.

نستنتج مما سبق أن معلومات الرحلة جاءت غزيرة في الجانب الاقتصادي، الأمر الذي يوضح لنا تكليف الضابط بواسوني و بالتالي هدف الرحلة كان إفادة السلطات الفرنسية بأبجدية الطوارق و قائمة بأسماء قادة الصحراء من أجل إقامة علاقات معهم، كما أن التعرف على مواردها الاقتصادية بأسماؤها المحلية، كان بمثابة إحصاء و تنقيب على ما تتوفر عليه هذه المناطق للسيطرة على منتجاتها و لممارسة الفرنسيين التجارة بهذه المناطق.

أما عن رحلة اسماعيل بوضربة فقد جاءت نتاجا للعمل الكشفي الذي قام به الرحالة بونمان نحو غدامس، حيث توصل إلى نتيجة مفادها أن غات هي المحور الأساسي للتجارة و ليس غدامس<sup>(3)</sup>، الأمر الذي جعل فرنسا ترسل

(1).Ibid, p 15.

(2). فارس كعوان، المرجع السابق، ص 42.

(3). Bonnemain, Op.cit, p 131.

إسماعيل بوضربة<sup>(1)</sup> إلى غات وبعده دوفيريه، فما هي دواعي اختيار إسماعيل بوضربة لهذه الرحلة وما هي حيثياتها ونتائجها؟.

لكون الرحالة من أصول جزائرية؛ فقد استغلت فرنسا هذه الميزة و قام المارشال راندون بتكليفه عام 1858م بمهمة استكشافية من الأغواط إلى غات، لاكتشاف شمال أزجر و الوصول إلى غات، لاختبار زعمائهم في موضوع تسهيل ربط علاقات تجارية بين غات و الجزائر<sup>(2)</sup>.

هذه الرحلة تمت في غضون أربعة أشهر، من الفاتح أوت 1858م، إلى غاية الفاتح من ديسمبر 1858م، ابتدأت الرحلة من الأغواط أين كان بوضربة مترجما عسكريا لدى المكتب العربي، حيث توجه إلى تفرت للقاء الشيخ عثمان الذي كان دليل القافلة نحو غات.

خلال الجولات التفقدية التي قام بها الرحالة لمعاينة سوق غات، لاحظ رواج السلع الانجليزية، مع العلم أن ما وصلت إليه انجلترا استغرق وقتا طويلا؛ فقبل تصريف منتجاتها عبر طرابلس حاولت معرفة من يحمل بضائعها عبر هذه الطرق إلى وسط إفريقيا، فوق اختيارها على تجار غدامس، مع استقرار بعض الإنجليز هناك لتصريف منتجاتهم، بهذا الصدد يؤكد الرحالة أن تجارة وسط إفريقيا حقيقة و أن الإنجليز هم الذين يحتكرونها، فمنتجاتهم تصل إلى هذه البقاع عبر غينيا، سينغامبيا (Sénégalie)، المغرب، طرابلس و مصر.

(1). ولد بوضربة بمرسيليا في 25 جانفي 1823م، من أم فرنسية و أب جزائري مسلم، انخرط في الجيش الإفريقي في 28 فيفري 1853م، بين عامي 1854-1855م شارك في الحملة الفرنسية على تفرت (الجنوب القسنطيني) و أصبح مترجما عسكريا. أنظر:

- faucon , Op.cit, p 101- 102.

(2). Ibid, p 101- 102.

هنا تبادر إلى ذهن الرحالة تطبيق الفرنسيين فكرة الإنجليز و مشروعهم، فرأى أن قبيلتي الشعابنة وسوف، يؤدون نفس الدور الذي أداه الغدامسيون، فهم يتحملون متاعب الرحلة و الفرنسيون يجنون المال والأرباح و يتم تقاسمها بالنصف من 30 ٪ إلى 40 ٪، بعد التعرف على بضائعهم في غدامس و توات قد يأتون للبحث عنها عندهم . و بالتالي يجب أن يكون لتجارهم ممثليها في ميزاب و ورقلة<sup>(1)</sup>، الأمر الذي يفسر لنا معاهدة الحماية مع بني ميزاب و كذا الاهتمام الفرنسي بورقلة من خلال المذكرة المسلمة للجنة الجغرافيا من طرف السيد دولاسب (De Lesseps) يخبر السيد دوفيري ما يلي: « إن إنشاء خط سكة حديدية من الجزائر إلى ورقلة لشيء ممتاز تقوم به فرنسا، لقد كانت ورقلة منذ مائتي أو ثلاثمائة سنة المستودع الكبير للبضائع و نتيجة لأحداث سياسية تحول تجار قوافل الهاوسا و تنبكتو باتجاه طرابلس و طنجة، لكن اليوم لا يمكن أن تؤثر في ازدهار ورقلة<sup>(2)</sup> .»

من النتائج التي توصلت إليها فرنسا من خلال هذه الرحلة؛ معرفة مدى أهمية التجارة الإنجليزية بهذه المنطقة و في ظل التنافس التجاري بينهما سعت فرنسا لانتهاج سياسة بريطانيا لجلب التجارة الصحراوية عبر الجزائر كما كانت في السابق.

لكون الطوارق يتوزعون بالصحراء الوسطى فهم الذين يتحكمون في منافذ عبور الصحراء، عاودت الرحلة من طرف الفرنسي دوفيري و ذلك للتأكد من رد فعل الطوارق تجاه الفرنسيين و من أجل ربط علاقات تجارية بين فرنسا و الطوارق، النتيجة كانت تهيئة الأرضية لإبرام معاهدة غدامس التجارية، بعدها

(1). Ibid, p 305.

(2). V .Derregagaix ,Op.cit, p 6.

أُستثمرت هاتان الرحلتان من طرف فلاترز لرسم خطوط السكك الحديدية عبر منطقة الأهفار.

## 2. المشاريع المسطرة للنقل و اختراق الصحراء.

تعتبر طرق المواصلات الشرط الأول و الأساسي لتطوير التجارة و تغلغلها في أي بلد، الأمر الذي كانت فرنسا تدركه جيدا، فسارعت إلى دراسة و إنجاز مجموعة من المشاريع التي تخص النقل البري و البحري، فما هي مشاريعها و هل استطاعت فرنسا تنفيذها لربط أقاليمها التجارية ؟.

### أ. طرق النقل البري:

#### - مد خطوط السكك الحديدية.

ظهرت فكرة ربط الجزائر و إفريقيا الغربية بخطوط السكك الحديدية، على غرار الخطوط العابرة للقارات الأخرى مثل الخط العابر لكندا سنة 1878-1886م، على مسافة أربعة آلاف و سبعمائة كلم، و الخط العابر لسيبيريا ما بين 1891-1898م على مسافة سبعة آلاف و خمسمائة كلم،... الخ.

غير أن أبوية هذا المشروع؛ تعود للمهندس دو بونشال (M.Duponchal) الذي قدم الدراسات الأولى في عام 1858م، حيث رأى أن هذا المشروع سوف يسمح لفرنسا بالتوغل داخل الأوطان السودانية و يربطها بالجزائر، بهذا ينافس خط انجلترا من الكاب إلى القاهرة<sup>(1)</sup> و يمنح لفرنسا سوقا جديدا بمائة مليون مستهلك، هذه الدراسة نشرت في كتاب سنة 1878م.

منذ ذلك الحين أولت فرنسا اهتماما بهذا المشروع، حيث قُدمت دراسات كثيرة لإنجاح هذا المشروع و أهمها؛ الدراسة التي قدمها دوفيرييه، بروسلاو و ماج

(1). مياي، الاحتلال الفرنسي...، مرجع سابق، ص 437-438.

لخدمة مشاريع الربط بين الجزائر و السنغال بواسطة القطار، كما اهتم كل من شوازي، باروا، رولاند و فيجيرير بدراسة متنوعة طبوغرافية جيولوجية، إحصائية، مناخية و صحية لكل مناطق الصحراء ودرسوا الشروط اللازمة لمد خط حديدي بين الجزائر و السودان،... الخ<sup>(1)</sup>.

كان هدف فرنسا واضحا من خلال سعيها الحثيث لإنجاح هذا المشروع، لما له من فوائد عديدة من الناحية السياسية، الاقتصادية و الحضارية، لا سيما الدروب الصحراوية عبر صحراء الجزائر لربط مستعمراتها بها، فكانت فرنسا ترى فيه أداة فعالة لاستثمار أوسع بالقارة الإفريقية و تضمن لفرنسا السيطرة المطلقة سياسيا و عسكريا على الإمبراطورية المترامية الأطراف، كما تفتح شرايين وآفاق جديدة لكل المسافرين في العالم عبر القارة بطريق مباشر من البحر الأبيض المتوسط إلى رأس الرجاء الطيب.

كما رأت أن هذا المشروع سيجلب لها كل تيارات التجارة الدولية إلى الصحراء الجزائرية، حسب دراسة السيد رولون مهندس المناجم؛ التي قدم فيها حسابات دقيقة حول الأرباح المتوقعة للخط الحديدي العابر للصحراء ب عشرة آلاف و خمسمائة فرنك، بينما مصاريف كل قطار يوميا ب خمسة آلاف فرنك، حسب تقسيم السلع إلى أربعة أصناف برسوم متتالية: - من 0 فرنك إلى 8 فرنك، - من 0 فرنك إلى 35 فرنك، - من 0 فرنك إلى 25 فرنك، - من 0 فرنك إلى 18 فرنك.

و بالتالي ثمن النقل من مرسيليا (Marseille) إلى خليج غينيا (Golfe de Guinée) و المحيط يقدر ب عشرة أضعاف من نقله من الجزائر و البحر الأبيض المتوسط عبر الخط العابر للصحراء، فهذا الخط سينافس الملاحه<sup>(2)</sup>.

(1). بوعزيز، مع تاريخ الجزائر...، مرجع سابق، ص 96-97.

(2). مياسي، مرجع سابق، ص 443-444.

في سياق الحديث عن الأرباح التي ستجنيها فرنسا من خلال هذا المشروع، صرح جول كومبون أن فرنسا متمسكة بالمستعمرة الجزائرية و خاصة الصحراء الجزائرية، كما أوضح ساباتي أن منطقة توات بها ثروة كبرى و ما يمكن أن تحصل عليه فرنسا أكثر من ذلك؛ فهناك حوالي عشرة ملايين نخلة و بالتالي يمكن أن توفر 200,000 طن من البضاعة سنويا، فمنطقة توات وحدها تساوي السكة الحديدية<sup>(1)</sup>.

كما أصدر وزير الأشغال العمومية الفرنسي مجلداً بعنوان: " وثائق متعلقة بمهمة في الجنوب الجزائري " للسيد بويان (Bouyane) مهندس في المناجم الجزائرية، تحدث فيه حول هدف السكة الذي يمثل استجابة لحاجيات المستعمر العسكرية، لبناء سياسة للإمبراطورية الفرنسية الناشئة في حوض البحر المتوسط و غرب إفريقيا، مفادها القضاء على القوافل التجارية العابرة للصحراء، كما يجعل من هذه الخطوط محطات يستفيد منها خمسمائة ألف ساكن و تساهم في غرس سبعة ملايين نخلة. تختصر عنصر الزمن الذي تستغرقه القوافل ذهابا و إيابا، بالإضافة إلى مخاطر الطريق و الصحاري<sup>(2)</sup>.

بعد تنفيذ مشاريع السكة الحديدية بشمال الجزائر التي انطلقت منذ 1844م، أخذت فرنسا تبحث حول إمكانيات لمد هذا المشروع عبر الصحراء، ابتداء من سنة 1878م قُدمت عدة اقتراحات من طرف المهندسين و الخبراء حول هذا المشروع، من خلالها تم التوصل إلى إحداث ثلاثة خطوط و هي: الخط الشرقي عبر غدامس، الخط الأوسط من ورقلة إلى أمقيد و منه نحو النيجر و بحيرة التشاد و الخط الغربي عبر توات.

(1). أمحمد عميراوي وآخرون، المرجع السابق، ص 83-85.

(2). حوتية، المرجع السابق، ج2، ص 467-468.

بعد مباحثات فيما بينهم؛ توصلوا إلى أن طريق غدامس هو الطريق الطبيعي لبحيرة التشاد، و طريق توات هو الطريق الطبيعي لتنبكتو و النيجر، و بالتالي يمكن اعتماد الخط الأوسط الذي ينطلق من ورثلة نحو امقيد و هنا يتفرع الخط إلى فرعين؛ واحد يتجه نحو النيجر و الآخر يتجه نحو بحيرة التشاد، كما أخذت في اعتبارها مشاكل جيرانها، فمن جهة غدامس يتطلب على فرنسا التباحث مع الحكومة العثمانية بليبيا ليتنازلوا عن غدامس و غات و من الغرب يعتبر هذا الطريق طويلا بالرغم من أنه يمر على عدة واحات أهلة بالسكان، إلا أنه يمكن السيطرة عليه عن طريق المراقبة الدائمة<sup>(1)</sup>.

بعد مناقشات؛ وقع الاختيار على الطريق الأوسط و تم تسطير برنامج له للتوغل الهادئ عند الطوارق، فكلف الكولونال فلاترز سنة 1880م بتنفيذ هذا البرنامج، حيث يسير من الجزائر باتجاه ورثلة و يتجه نحو الجنوب صوب الأهقار و منه إلى النيجر و بحيرة التشاد<sup>(2)</sup>.

نفس الأمر قامت به فرنسا في غرب إفريقيا، فقد سعت الجمهورية الفرنسية الثالثة لتحقيق سياستها التوسعية و ذلك بربط السنغال بالنيجر، فقامت باكتشاف الأراضي الداخلية لكل من الداھومي و ساحل العاج للربط بينها و بين النيجر، تمهيدا لربط إفريقيا الغربية بإفريقيا الشمالية و إفريقيا الاستوائية ( من البحر المتوسط حتى الكونغو)<sup>(3)</sup>.

(1). مياسي، الاحتلال الفرنسي، ص 438-442.

(2). V.Derrécaix , Op.cit, p 9 .

(3). عبد الكامل عطية، التحولات السياسية و الاقتصادية في السودان الغربي بين 1750 – 1914م، رسالة ماجستير، كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية، قسم التاريخ، جامعة الجزائر 02، الجزائر، 2010/2009، ص 97.

عملت على إنجاز معظم السكك الحديدية بهذا الإقليم قبل سنة 1914م، و من أهم هذه الخطوط نذكر ما يلي: خط دكار و باماكو في حوض النيجر، خط ابيجان و جدوجو في فولتا العليا، خط كوتونو و باماكو شمال الداهومي، خط كوناكري و كانكن داخل غينيا و وسط هضبة فوتا جالون<sup>(1)</sup>.

من الخطوط التي أولتها فرنسا اهتماما هي محاولة الربط بين السنغال و النيجر للوصول إلى بعض الخلجان عند مصب السنغال ، لاستحالة دخول السفن بها في كثير من الأحيان ، هذا الشريط الذي أودى حياة الكثيرين. عبر هذا الخط يمكن التوغل إلى الداخل ، مما يجعلهم يسيطرون على كامل المنطقة من الغرب إلى الشرق، لتشكيل مستعمرة من السنغال إلى النيجر ، لهدف تحويل التجارة لصالحهم و ضمان فرص جديدة لصناعتهم بعد إلغاء تجارة الرقيق و قد وقّوا إلى حد ما في إنجاز مخططاتهم.

بالفعل تمكن الفرنسيون عام 1906م من ربط كل من نهرى النيجر و السنغال بسكة حديدية<sup>(2)</sup>، فتم مد خط يربط بين دكار و سانت لويس عند أعالي نهر السنغال و بين المدينة و كايس و باماكو بمبلغ خصص له قدره: 103 مليون فرنك.

تم الشروع في استغلاله ابتداء من سنة 1902م و بدأت ترتفع مداخيله من سنة إلى أخرى خاصة بين 1902م و 1906م، مما جر عنه ارتفاع قيمة الحمولة عن 10 ملايين كلغ للبضائع المستوردة من محطة كايس بالسنغال إلى محطة باماكو.

(1). نفسه، ص 165.

(2). بوفيل، تجارة الذهب و سكان المغرب الكبير، تر. الهادي أبولقمة و محمد عزيز، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي، ط2، 1988، ص 404.

## - تعبيد الطرق:

لقد شجع النشاط التجاري و تيسيره إنشاء عدد من الطرقات التي لم تكن موجودة قبل 1830م، ففي إحصاء لسنة 1890م تم انجاز 15,237 كلم من الطرق ذات الاستعمال المشترك، بما في ذلك ما يقرب من 3,000 كلم من الطرق الوطنية، هذه الطرقات أنجزت من قبل الجيش مع صيانة بعضها، غير أنها ما زالت ناقصة في العديد من النقاط البعيدة و هي في تحسن يومياً<sup>(1)</sup>.

من المنجزات التي قدمتها السلطات الفرنسية في غرداية، تعبيد طرق السيارات من سطافة إلى غرداية على بعد 82 كلم و ذلك سنة 1882م، تم استعماله في السنة الموالية، كذلك تم شق طريق من غرداية نحو الأغواط عبر وادي ميزاب ، ثم طريق من غرداية نحو ورقلة في نفس السنة<sup>(2)</sup>.

كما اهتمت السلطات الفرنسية بتعبيد الطرقات بسوف و بحلول سنة 1931م كانت توجد خمسة مسالك و هي: الوادي - نفطة، الوادي - بسكرة، الوادي - تقرت عبر الجامعة ، الوادي - نقرين، الوادي - تقرت عبر فرجان، المسالك الثلاثة الأولى هي الغالبة في الاستعمال و الطريق الرابع قلما يُستخدم أما

---

(1). M. Alfred Rambaud , RAMBAUD Alfred, **la france coloniale (histoire - géographie - commerce)**, Imp. charaire et Cie, Paris, 1893, p 118.

(2). يوسف بن بكير الحاج سعيد، تاريخ بني ميزاب (دراسة اجتماعية و اقتصادية و سياسية)، المطبعة العربية، غرداية، ط2، 2006، ص 151.

الطريق الخامس فهو صعب المسلك و لا تعبره إلا سيارات خاصة مثل ترانزأتلتيك<sup>(1)</sup>.

كما واصلت فرنسا عملية تعبيد الطرق البرية في الصحراء الجزائرية، للربط بين السكك الحديدية و طرق السيارات من الواحات الثلاث و رقلة، الأغواط و بشار، لتنتقل مسالك عابرة للصحراء ؛ واحد من كولومب بشار إلى غاو<sup>(2)</sup> عبر تنزروفت، و الطريق الثاني من الجزائر العاصمة إلى شرق إفريقيا عبر ثغرت، و رقلة و الأهشار إلى نيامي و التشاد، هذا الطريق الذي رسمة فلاترس للسكة الحديدية فتم تعويضه بطريق السيارات.

كما مهدت بعض الطرق البرية في إفريقيا الغربية للتوغل إلى الداخل، إلا أن الحكام الإفريقيين كانوا يعارضون هذه المشاريع و يعتبرونها اعتداء على ممتلكاتهم<sup>(3)</sup>.

ما يمكن قوله أن هذه الطرق جاءت نتيجة دوافع خلق أسس الاقتصاد التصديري، لأنه لم تكن سوى طرق قليلة تربط المستعمرات<sup>(4)</sup> و بتعبير أدق ربط

(1). عثمان زقب، الأوضاع الاقتصادية و الإجتماعية في منطقة وادي سوف 1918-1947م و تأثيرها على العلاقات مع تونس و ليبيا، رسالة ماجستير، كلية الآداب و العلوم الإنسانية، قسم التاريخ، باتنة، 2005-2006م، ص 118.

(2). على خط الطريق بين كولومب بشار- غاو، وضعت في الخدمة عشرين شاحنة، ذات محركات الديلز GV 130، صالحة للمسافات الطويلة (1,000كم)، بسرعة 50 كلم في الساعة و سيارات بولمان (Cars Pullman) الجديدة الخاصة بالمسافرين. أنظر:

- Robert Tinthoin, « Évolution récente de l'économie Algérienne », Annales de Géographie, T. 51, N°.287, 1942, marge No.01, p 201.

(3). شوقي الجمل و عبد الله عبد الرازق ابراهيم، المرجع السابق، ص 331.

(4). نفسه، ص 395.

شبكة من الطرق التي يعيش فيها معظم السكان الأوروبيين و الشركات الاحتكارية<sup>(1)</sup>.

### ب. النقل البحري:

## - مشروع البحر الداخلي (مشروع خليج قابس) (Projet Golfe de Gabes)

إن مشروع البحر الداخلي؛ هو أيضا أحد المشاريع الصحراوية الذي لا يقل أهمية عن مشروع الخطوط الحديدية، خلفيات هذه الفكرة تعود إلى نجاح فيرديناند دوليسبس (Ferdinand de Lesseps) عند حفره لقناة السويس (Canal de Suez)، الأمر الذي حفزهم للبحث في خلق بحر داخلي صحراوي، لإحداث تغيير في الظروف الطبيعية القاسية و يسهل عليهم تنفيذ سياستهم التوسعية الاستعمارية و الاقتصادية.

لقد انطلقوا من بعض النظريات الجغرافية و مقاربات جيولوجية تعود إلى العصور القديمة، مفادها أن هناك بحرا داخليا يدعى بحيرة تريتون، التي تحدث عنها الرحالة اليوناني هيرودوت و سيلاكس، هذا البحر له ثلاثة منافذ إلى البحار المجاورة؛ واحد من البحر المتوسط عبر مجرى نهر الشلف و الثاني إلى المحيط الأطلسي غربا عبر ممر تازة و الثالث إلى خليج قابس بشرق تونس عبر شط فجاج<sup>(2)</sup>.

---

(1). أحمد كساب و آخرون، « الإقتصاد الإستعماري ( شمال افريقيا) »، مقال نشر في كتاب تاريخ افريقيا العام ( افريقيا في ظل السيطرة الإستعمارية 1880-1935م) مجلد 7، اليونسكو، تحت اشراف، أ. أدو بواهن، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1990، ص 439.

(2). بوعزيز، مع تاريخ الجزائر، ص 99-100.

هذا البحر اختفت بعض أجزائه و بقي البعض الآخر على شكل أحواض و شطوط، أهمها أحواض الجريد، شط ملغيغ<sup>(1)</sup> و الهضاب العليا، حيث تقع أحواض ملغيغ على انخفاض خمسة و عشرين مترا من مستوى سطح البحر، فراجت هذه الفكرة عند الجيولوجيين بخلق بحر داخلي في هذه النقطة، من أجل إحداث تغيير جذري في مناخها و بالتالي تغيير أوضاعها الاقتصادية.

نواة هذا البحر الداخلي ستكون أحواض شط الجريد و شط الغرسة و شط فجاج، حيث يتم حفر قناة بحرية تصل هذه الشطوط بمنخفض ملغيغ و بوادي ريع في الغرب و بحوض ايغارغار في الجنوب عبر واد سوف<sup>(2)</sup>.

لقد تحمس لهذا المشروع السيد فرانسوا رودير فشرع في وضع دراسات حوله منذ عام 1873م، بعد اعتماد الجمعية الوطنية ملفا لدراسة الشطوط دراسة علمية، ذهب رودير من قسنطينة إلى بسكرة و منها إلى أحواض ملغيغ و درس تاريخها و جغرافيتها الطبيعية و مستواها عن البحر.

على الرغم أن رودير اكتشف أن شط الجريد يقع فوق مستوى سطح البحر على عكس أحواض ملغيغ والحضنة، إلا أنه لم يفقد الأمل في إنجاز هذا المشروع، لما له من نتائج حسنة على الجانب الاقتصادي، إذ يسمح البحر برفع منسوب المياه الجوفية في الشمال بالصحراء، كما أنه سيحدث تغيير في المناخ من الجفاف إلى الرطوبة، بفعل تبخر منسوب من المياه في الجو و بالتالي تساقط الأمطار و تلطيف جو الصحراء القاسي.

(1). Lanessan, Jean-Louis, **Expansion coloniale de la France , étude économique , politique et géographique sur les établissements français**, Imp. générale lahure, Paris, 1886, p 7.

(2). بوعزيز، مع تاريخ الجزائر، ص 101.

بعد هذه الدراسة قام رودير بإعداد ملفه و قدمه إلى المجلس العلمي في باريس، فتم تحويله إلى دوليسبس الذي استحسنه، لكن أعضاء المجلس تضاربت آراؤهم حول الغلاف المالي الذي يستنفذه هذا المشروع، في نهاية المطاف تم اعتماد غلاف مالي جديد سنة 1878م، للقيام بدراسات جيولوجية جديدة شارك فيها دوليسبس، تألفت لجنة رسمية بين عامي 1881 و 1882م ترأسها دوفريسيني (De Freycinet) و اكتشفت أن تكاليف المشروع تزيد عن ثلاثة ملايين، كما أن عملية الحفر تستلزم أضعاف حفر قناة السويس.

في سنة 1883م سافر كل من رودير و دوليسبس إلى منطقة قابس لدراسة المشروع على الطبيعة، لكن بعد عودتهما تم معارضة هذا المشروع من طرف أعضاء الجمعية الفرنسية، من بينهم أوقست بوميل و كوسون اللذان يعرفان الجزائر و تونس حق المعرفة<sup>(1)</sup>.

كما لا نستبعد ما قامت به بعثتي فلاترز أثناء الرحلتين، عندما اهتموا بوادي اغرغار و واد ميه، قد يكون الأمر خدمة لهذا المشروع.

بعد أن لقي مشروع رودير معارضة شديدة في أيامه، توفي سنة 1883م و بقي هذا المشروع يشغل بال الفرنسيين و تم إعادة فتح هذا الملف للنقاش سنة 1896م، من طرف هيئات علمية و رأسمالية، إلا أنه بقيت نفس الإشكاليات تُطرح، مثل الغلاف المالي الضخم و الصعوبات التقنية و موقع شط الجريد فوق مستوى سطح البحر، ليغلق هذا الملف مرة أخرى حتى سنة 1952م-1953م.

حيث استأنف من جديد بعد أن أكدت الحفريات خلال عملية البحث عن زيت البترول، على وجود صلة بين البحر المتوسط و منطقة الشطوط في العصر الجليدي، هنا تم إحياء مشروع رودير و تمكنت الجمعية من إيصال ملف البحر

الداخلي، إلى مكتب الجنرال ديغول عام 1958م، تم اقتراح استعمال خمسين قبلة هيدروجينية لشفق قناة هذا البحر بين واحدة و أخرى بضعة ثوان، على أن يكون عمقها من 400 و 500 ياردة، تمتد عبر شط الجريد و يتم إقامة سد ضخ من توزر لتوليد الكهرباء و تنجز هذه القناة و البحر، في ظرف بضعة شهور بدلا من ثماني سنوات.

بعد عام 1959م واصل اتحاد التعدين الفرنسي هيرنست، بحث الموضوع مع وزارة الأشغال العامة للحكومة التونسية، لكن فرنسا كانت مهتمة بالحرب مع الجزائر<sup>(1)</sup>.

### - النقل النهري:

عملت فرنسا في إفريقيا الغربية على تطوير المجاري المائية الداخلية، التي كانت تعوقها الشلالات و الجنادل بشدة، هذه العملية ساهمت في تنشيط الاقتصاد المحلي في بعض المناطق، حيث استخدمت بواخر مزودة بعجلات تجديف مثل النيجر و بنوي و السنغال، على الرغم من أن البواخر كانت ملكا لشركات القطاع الخاص، إلا أنها بذلت بعض المحاولات للتنسيق بين النقل النهري و السكك الحديدية، مثل السكك الحديدية التي تربط السنغال باماكو، كانت هناك وصلة تربطها بالنيجر الأوسط، بذلك كانت تصل دكار، تنبكتو و غاو، غير أن هناك مناطق كثيرة لأفريقيا الغربية الفرنسية، مازالت حتى اليوم محرومة من وسائل النقل الحديثة<sup>(2)</sup>.

كانت تعديلات الموانئ وثيقة الارتباط ببرنامج السكك الحديدية، فقد أخذت السفن البخارية تكشف عيوب موانئ إفريقيا الغربية، حيث لا يمكن

(1). نفسه، ص 107-108.

(2). هوبكنز، ص 393-394.

التعامل مع سفن أكبر من السفن الشراعية التقليدية، فالسفن البخارية لم يكن لها تأثير على إنتاج الصادرات مثل السكك الحديدية<sup>(1)</sup>.

بحلول عام 1900م كان واضحا أن الموانئ القائمة عاجزة عن التعامل مع حجم المنتجات التي كانت تحملها السكك الحديدية، فأحدثت ترميمات على الموانئ الرئيسية و استمرت طيلة الفترة الاستعمارية مثل دكّار، حيث قامت بإصلاح بعض الموانئ.

كما أنشأت موانئ جديدة مثل بورت، هاركورت و تاكورادي و النتيجة تدهور المراكز الصغيرة مثل باداجري، سانت لويس و كالابار، مع العلم تركيز تجارة التصدير كان في الموانئ التي تصلها السكك الحديدية، ففي العقد الرابع من القرن الماضي كان ما لا يقل عن 65٪ من مجموع تجارة إفريقيا الغربية عبر البحار تمر على دكّار<sup>(2)</sup>.

إن هذه المشاريع العابرة للصحراء التي يفترض أن تمتد إلى باقي بلدان الصحراء الأخرى، في غرب إفريقيا و وسطها لتصل بشبكة النيجر و التشاد و شبكة السنغال و موريطانيا، لكن صعوبات كثيرة حالت دون تكملة هذا المشروع و يمكن حصرها في النقاط التالية: التكاليف الباهضة لهذا المشروع، مما ولد ردود فعل معاكسة لتكملة المشروع، الظروف الدولية التي تمر بها فرنسا آنذاك، من منافسة الإنجليز لها و كذا خسارتها للعديد من مستعمراتها، مع ردود فعل معاكسة لهذه المشاريع من طرف الأفارقة بصفة عامة<sup>(3)</sup>، تطوّر علم الطيران جعل

(1). نفسه، ص 401.

(2). نفسه، ص 397.

(3). أمحمد عميراوي و آخرون، المرجع السابق، ص 86-87.

الفرنسيين يجمعون عن تكملة هذه الخطوط، خاصة بعد أحداث الحريين العالميتين و حركات الاستقلال الوطنية بالقارة، التي طردتهم في نهاية المطاف<sup>(1)</sup>.

### - خاتمة:

من خلال ما تقدّم ذكره، يمكن القول بأن السياسة التي شهدتها إفريقيا الغربية مع بداية القرن التاسع عشر في مجال الإنتاج و التجارة، كان بمثابة البداية الحقيقية في تحولات التجارة التقليدية، فتحول العبيد من سلعة تباع إلى يد عاملة لإنتاج المحاصيل النقدية مجانا بالمزارع الفرنسية، كما يعتبر تاريخ احتلال فرنسا للجزائر البداية الحقيقية للاهتمام الفرنسي بالمنطقتين .

وحتى تبلغ فرنسا هدفها قامت باستغلال كل الوسائل العلمية، الاقتصادية، العسكرية، السياسية لعبور الصحراء، فكان من نتائجها:

- تعرفت فرنسا من خلال الرحلات التي قام بها الفرنسيون و الجزائريون؛ على منتجات الصحراء و إفريقيا الغربية، أسواقها، طرقها، أسعارها، و القبائل المتحكمة فيها، مما دفعها إلى فتح مجال العلاقات التجارية مع الطوارق و عبر أراضيهم باعتبارهم المتحكمين في منافذها.

- لقد نتج عن سياسة الاستغلال الفرنسي لبعض القيادات شيوخ الطرق الصوفية و المبشرين بالإقليمين، أن حدث تصدّع كبير في صفوف الحركة الوطنية، مما سمح للفرنسيين بالتوسع في كثير من المناطق. كما أن تعرفها على التشكيل السياسي و القبلي للطوارق سهل عليها تشتيت قوتهم فيما

- كما نتج عن الدراسات التي قُدمت من خلال ما دونه الرحالة و المغامرين، أن مدت خطوط السكك الحديدية حتى أطراف الصحراء

(1). بوعزيز، مع تاريخ الجزائر، ص 98.

الوسطى كما ربطت طرفيها بطريق السيارات و الشاحنات، و بالتالي حققت حلمها التجاري عبر الصحراء الجزائرية.

ويكمن القول في الختام، بأن مؤتمر برلين (Congre de Berlin) جاء تنويجا لجهود ومحاولات الدول الأوروبية لتنظيم عملية التكالب و السيطرة على القارة الإفريقية و يعتبر هذا المؤتمر خاتمة المطاف لذلك الصراع الأوروبي، حول مناطق النفوذ الاقتصادي، حيث تحققت مساعي فرنسا في احتلال كل من الصحراء الجزائرية إفريقيا الغربية، و من ثمة الربط بين الإقليمين تجاريا.



## السياسة الاستعمارية الفرنسية في الجنوب الجزائري ما بين 1873-1962م - منطقة المنيعه نموذجاً-

الأستاذ: نواصر عبد الرحمان

جامعة يحي فارس المدية

مقدمة:

تعود بداية الاهتمام فرنسا بالصحراء الإفريقية عامة والصحراء الجزائرية بصفة خاصة، إلى ما قبل الاحتلال الفرنسي للجزائر سنة 1830م، وذلك من أجل استكشاف أسرارها، وتمهيدا للسيطرة عليها، خاصة بعدما أصدر البرلمان الفرنسي قرار ينص على احتلال الجنوب سنة 1844م<sup>(1)</sup>، ومن تمّ بناء المراكز العسكرية واحكام القبض عليه، وبفعل زحف القوات الفرنسية بدأت مدن الجنوب في السقوط تحت قبضة الفرنسيين واحدة تلوى الأخرى رغم شراسة المقاومة التي نظمها السكان، إلى أن سقطت مدينة المنيعه<sup>(2)</sup> سنة 1873م<sup>(3)</sup>، ومنذ ذلك الوقت شرعت فرنسا في تطبيق سياسة استعمارية تخدم مصالحها بالدرجة الأولى شملت الجانب العسكري، والديني، والاجتماعي والاقتصادي، وهذا ما سنحاول ابرازه من خلال هذه الدراسة.

### 1- السياسة العسكرية:

قامت فرنسا بتطبيق سياسة استعمارية عسكرية محكمة لضمان استمرارية سيطرتها على المنطقة، ولذلك قبل أن تبدأ في التوسع نظمت بعثات استكشافية لجمع كل المعلومات الخاص بالمنطقة، ومن بين هذه البعثات:

بعثة "دوفيرييه هنري" (Henri Duvyrier):

باشر رحلته الصحراوية يوم 8 ماي 1859م، عبر المدن التالية: من مدينة سكيكدة، بسكرة، القرارة، غرداية، متليلي، ثم إلى المنيعه وصلها في 09 سبتمبر

1859م، حيث يقول **دوفيري**: "قد تبدو رحلتي إلى القليعة لأول مرة هزيمة، حيث طردت من هذه المدينة، واضطرت تحت التهديد إلى الخروج منها ليلا في ظروف مشيئة، ومع ذلك فأنا أعتبر هذه الرحلة ناجحة... فأنا قد واجهت الشعابة الذين أقسموا أنهم سوف يذبحونني، وقد أقمت يوم و ليلتين في هذه المدينة شبه سجين، ولكن ذلك لم يضايقني... فقد أدركوا أنه لا يمكن تخويفي، والانطباع الذي أحمله هو أن هذه الطريق انفتحت" (4).

نستنتج من هذا كله مدى التركيز الكبير الذي أولته فرنسا إلى مدينة المنيعة وذلك لتوسطها الجزائر، ويمكن اتخاذها نقطة انطلاق نحو بقية مناطق الواقعة إلى جنوب منها بداية من هضبة تدميت، وستطلق عليها فرنسا فيما بعد لؤلؤة الصحراء، ويعكس لنا النص مدى وعي سكان المدينة بما تخطط له فرنسا من وراء هذه البعثات الاستكشافية، لذلك هددوا "**دوفيري**" بالذبح إن وجد مرة ثانية في المنطقة وحرصوا على عدم تنقله بحرية في المدينة، ومنعوه من الاحتكاك بالسكان حتى لا يتمكن من جمع كل المعلومات الخاصة بالمنطقة.

يواصل هذا الأخير طريقه إلى مدينة غدامس التي رفض سكانها استقباله، وحاول استدراج التورارق وألف كتاب بعنوان "توارق الشمال"، أصيب "**دوفيري**" فيما بعد بمرض فقدان الذاكرة.

وهناك مستكشف آخر هو الجنرال "**قاليفيه**" الذي غادر مارسيليا يوم 6 ديسمبر 1872 ممتجها نحو الجزائر قاصدا منطقة الجنوب، فمر بمدينة الأغواط، غرداية، متليلي، وبدأ رحلته الحقيقية على حسب قوله في 4 فيفري 1873م: "بدأت أخيرا الرحلة الاستكشافية الحقيقية حيث أتواجد في أصقاع ليست معروفة كثيرا من المنيعة إلى عين صالح". لم يستقبل من طرف السكان لكنه قدم معلومات كثيرة وقيمة للسلطات الفرنسية. (5).

**مشروع السكة الحديدية:**

اهتمت فرنسا بمد السكك الحديدية عبر الصحراء وذلك من أجل استغلال ثرواتها، لكن المشروع لم يصل إلى كامل ربوع الصحراء وتوقف عند تقرت وبشار، وذلك للتكاليف المالية الكبيرة، وصعوبة التضاريس لوجود مشكلة الرمال ومن هذه البعثات الاستكشافية العلمية التي وصلت بدراستها إلى مدينة المنيعه بعثة "شوازي" 1879م التي خصت المنيعه بدراسة للأهمية الاستراتيجية وشملت الدراسة المياه الجوفية، الزراعة وتوصلت إلى معلومات قيمة بها فيها معلومات من الناحية التاريخية مكتشفة قبر يعود "للغرمتتين" مما جعلها ترجح أنّ الذين بنو القصر القديم لهذه المدينة يعود لهؤلاء الآخرين<sup>(6)</sup>.

### إنشاء المراكز العسكرية:

عملت فرنسا على إنشاء مراكز وحصون عسكرية لمراقبة كل التحركات الخاصة بسكان الصحراء بما فيها مدينة المنيعه والمناطق المحيطة بها ومن بين هذه النقاط العسكرية: برج "ماكاهون" 1892م على مسافة 180 جنوب شرق المنيعه، وبرج "حاسي مية"، وبرج "ميريل" على مسافة 140 كلم غرب المنيعه، واستمرت في وضع المراكز العسكرية كلما دفعتهما الضرورة لذلك خاصة أثناء الثورة التحريرية 1954م سواء داخل المدينة أو خارجها، مثل مركز زرارة، ومركز حاسي لعبيد، ومركز المراقبة بالقصر القديم، معتقل في مركز للتعذيب...<sup>(7)</sup>.

### إنشاء المناطق المحرمة:

تم انشاء العديد من المناطق المحرمة للحد من تحركات السكان، وتسهيل عملية مراقبتهم ومحاصرة الثوار، ومن بين هذه المناطق المحرمة التي تشمل خاصة مناطق الآبار من بينها: حاسي علي بن حيمودة، حاسي المستور، وحاسي المحنة، وحاسي الكسكسي، ثم أضيفت آبار أخرى مثل: حاسي الحنّانة، وحاسي عبّازة، وحاسي تماسين، وحاسي مبروكة، وحاسي السبتي وغيرها من الآبار، وذلك

لعرقلة تنقلات المجاهدين عن طريق تشديد الخناق على مراكز التزود بالماء، وكل هذه السياسة العسكرية وجدت مقاومة من طرف الثوار الذين عملوا على كسر هذا الحصار، وهذا ما أدى إلى اشتباكات عديدة مع العدو مثل معركة العرق الغربي سنة 1957م وغيرها من المعارك<sup>(8)</sup>.

## 2- السياسة الدينية: وتتمثل في الآتي:

### سياسة التنصير في مدينة المنيعية:

النشاط التبشيري والحركة الاستعمارية متلازمان لأن هدفهما بسط السيطرة المادية والسيطرة الروحية والفكرية، وبالتالي ضرب مقومات الشخصية الجزائرية، واعتبر البعض أن مسار الحركة الاستعمارية لإفريقيا يعكس أهمية الإرساليات المسيحية إلى درجة أن هؤلاء تبوؤوا مكانة الاستعمار<sup>(9)</sup>، وعملت فرنسا من الوهلة الأولى بالجزائر إلى تمسيح العمران قبل تمسيح الأرواح استهدفت المساجد من تدمير لبعضها مثل مسجد السيدة بالجزائر العاصمة، وحولت مساجد إلى كنائس مثل مسجد "كتشاوة"، والبعض منها إلى اسطبلات للخيول أو كمراقد للجيش وقامت بمصادرة ممتلكات مصلحة الأوقاف لضرب المؤسسات الدينية في أهم مصدر مالي لتمول منه، وقامت بغلق بعض الزوايا لكونها مصدر تحريض ضد الاستعمار<sup>(10)</sup>.

وكانت من بين السياسات التي اتبعتها بعض رجال المؤسسة العسكرية الفرنسية مثل الجنرال "بيجو" ويظهر ذلك لما سلم بعض الأطفال الجزائريين إلى أحد الآباء وقال له: "حاول يا أبي أن تجعلهم مسيحيين، وإذا فعلت فلن يعودوا إلى دينهم ليطلقوا علينا النار"، وقال أيضا: "إن العرب لا يقبلون فرنسا إلا إذا أصبحوا فرنسيين، ولن يصبحوا فرنسيين إلا إذا أصبحوا مسيحيين"<sup>(11)</sup>.

مدينة المنيعية بدورها لم تسلم من النشاط التنصيري الفرنسي، ومن بين الطرق التي استعملتها في المنطقة، إرسال رجال الدين لجمع المعلومات الكافية عن

المناطق التي تريد التوسع على حسابها، وقد تعرض رجال دين المسيحيين إلى القتل على يد سكان الصحراء إلى الجنوب من مدينة المنيعه، وذلك بسبب الرفض الكبير لوجودهم في المنطقة، ودراية السكان بنواياهم الخفية<sup>(12)</sup>.

ومن بين الأعمال التنصيرية، والأساليب المتبعة في المنيعه فهي متعددة مها:

- بناء دار للأيتام في وسط المدينة وذلك حتى يشب على الدين المسيحي، وهؤلاء الأطفال من أمهات جزائريات تنصرن جمعتهم من مناطق عدة عبر الصحراء الجزائرية، وتزوجن من عسكريين فرنسيين تكفلت السلطات الفرنسية برعايتهم.

- إقامة أماكن لتعليم النسيج والخياطة عرف هذا المركز في مدينة المنيعه بـ: (لسورات) (les seurs)، وذلك من اجل استقطاب عدد كبير من البنات والنساء، وهي وسيلة ناجعة لإخراج المرأة من بيتها والتقرب منها، واستعملوا طريقة أخرى وهي التطيب عن طريق أخوات ممرضات يعالجن النساء، ومنه التمكن من الدخول إلى البيت، وهذه الطريقة شجعها كثيرا "لافيجري".

ومن الطرق التي استعملتها فرنسا في التنصير هي منح أراضي فلاحية للذين تنصروا وأتت بهم من مناطق عدة من الصحراء الجزائرية وأسكنتهم مدينة المنيعه، وقبل أن تقوم بذلك خصصت لهم حقولا أطلقت عليها اسم "حقول جوزاف"، وقسمتها إلى هكتارات، وكل هكتار مجهز ببيت، ومخصص له نصيبه من الماء الآتي من البئر الارتوازي الذي حفرته، وأكثر من ذلك أنّ هذه الحقول مخططها متناسق ووضعية الكنيسة التي بنيت سنة 1890م بمنطقة بلشير، وجهزت هذه المنطقة بمركز استشفائي تعليمي<sup>(13)</sup>، ووضعت فيه أخوات لتعليم هؤلاء "المستغورين" أو "المطورنين"<sup>(14)</sup>، ومن بين الأخوات اللواتي أشرفنا على تسيير هذا المركز ثلاثة: الأخت "تريس" مهمتها العلاج، والأخت "ماري لاغراس" للتعليم، والأخت "ماري دومونسيروا" لخدمات مختلفة<sup>(15)</sup>.

وعدد العائلات المستفيدة من هذا المشروع التنصيري الجهنمي 25 عائلة، وهؤلاء كانوا من جهات مختلفة من الصحراء من: تلمين، طيط، عين صالح، أقبلي، رواغة ورقلة، أذكر على سبيل المثال المبنى الذي تسكن فيه عائلتي في بلبشير كان ملكا "لموريس جان" مع زوجته من رواغة ورقلة والتي جاءت في زيارة تفقدية لبيتها سنة 1980م، والبيت المقابل كان لعائلة مستغورة تلقب بيت ماتيو، وعائلات أخرى مثل جون طارطرا وعائشة سيسيل وغيرهم، وحاول هؤلاء الآباء التقرب من الأهلي عن طريق توزيع المواد الغذائية كالشاي، والخبز... مثل ما كان يفعل الأب "براليوم" في الأربعينيات من القرن العشرين متنقلا بحماره عبر الأحياء<sup>(16)</sup>.

السياسة التنصيرية لم تنجح في مدينة المنيعه مثلها مثل بقية المناطق الجزائرية، رغم المجهودات والأموال الكثيرة المخصصة لهذا الغرض، ويعود السبب لتمسك الأهالي بدينهم الاسلامي، والبصمة التي تركها الشيخ "سيد الحاج يحي" مورثا عدد كبير من تلاميذه نخوة الدفاع عن الدين الاسلامي، والدور الكبير الذي لعبته بعض الزوايا مثل زاوية سيد الحاج بحوص.

### 3- السياسة الاستعمارية الاقتصادية في المنيعه:

عملت فرنسا على اتباع سياسة اقتصادية تخدم الاقتصاد الفرنسي بالدرجة الأولى، والمعمرين بالدرجة الثانية، ومن الوهلة الأولى تبين لها بأن مدينة المنيعه تتوفر على امكانيات اقتصادية هائلة، بما فيها الموقع الاستراتيجي كونها تتوسط الصحراء، وطبيعة مناخها الذي يساعد على انتاج البواكر من المنتوجات الفلاحية خاصة الفاكهة، وتتوفر على مياه جوفية باطنية عذبة على طول مجرى "وادي صغر" الذي ينطلق من جهة جبال الأطلس الصحراوي و منطقة البيض حتى المنيعه التي تعد مصباله<sup>(17)</sup>.

قامت فرنسا بعدة مشاريع اقتصادية من بينها:

### أ- حفر الآبار الارتوازية:

قبل أن نستعرض الاستغلال الفرنسي للمياه الجوفية في المنية، نتعرض للطرق المتبعة من طرف السكان في استخراج المياه الجوفية لاستعمالها للشرب وفي الزراعة، في البداية اعتمدوا على طريقة الفقاقير التي لعبت دورا كبيرا في فترة المملكة الزناتية، فقد وجدت بالقرب من العرق الغربي تستعمل مياهها في ري حقول منخفضة الأرضية الموجودة في الحمادة، لكن الفقاقير اندثرت بسبب مجيء القبائل العربية للمنطقة واستقرت بها فحفرت الآبار بالقرب منها فضعف منسوب مياهها، وتم التخلي عنها بسبب حفر الفرنسيين للآبار الارتوازية، ومن بين "الفقرات" التي كانت موجودة بالقرب من منطقة سانت جوزاف بمنطقة بلشير وتم عبر حقول الأخوات البيض، لذلك تقول بعض الدراسات الفرنسية أن "الفقرات" اندثرت قبل مجيء الفرنسيين الذين وجدوا آثارها، وهذا ما أقرته بعثة "شوازي" سنة 1898م<sup>(18)</sup>.

إضافة للفقاقير وجدت آبار تقليدية التي تستخرج مياهها عن طريق اليد أو الدواب بالقرقاز<sup>(19)</sup>، والأمر الذي ساعد على وجودها قرب المياه الجوفية من السطح على عمق ما بين 1 متر إلى 4 متر على حسب المنطقة تبعا لمجرى الوادي، ووجد لها عدد على حسب الدراسة التي قامت بها بعثة "شوازي"، بداية من منطقة "سانت جوزاف" (في بلشير) حتى حاسي الغارة<sup>(20)</sup>.

قامت فرنسا بدراسة معمقة للشبكة الهيدروغرافية للمنطقة متبعة بداية وادي صغر من الأطلس الصحراوي حتى مصبه بمدية المنية، فوجدت بأنها تتوفر على مخزون هائل، بل من خيرة المياه العذبة الجوفية، وهذه المياه الجوفية تتوفر على ضغط باطني يمكنها من الصعود إلى السطح دون آلة، وهذا يوفر عليها مصاريف الطاقة، فشرعت في وضع مخطط لحفر الآبار الارتوازية بداية من سنة 1891م في

منطقة بلعيد وبلبشير وحاسي القارة في عهد الحاكم العسكري (لامبي) (Lamy)، واستمرت في الحفر بين الحين والآخر حتى سنة 1955م فبلغ عدد الآبار المحفورة 23 بئر و الجدول الآتي يوضح ذلك (21):

البنير الإرتوازي	سنة الحفر	العمق(متر)	البنير الإرتوازي	سنة الحفر	العمق(متر)
بلعيد(قديمة)	1891	55.15 (انسداد)	حفرة العباس	1930	88.39
بلبشير	1891	68	تين بوزيد	-	102.17
حاسي القارة	1891	81.10	سانت جوزاف	1931	126.62
بادريان	1893	78	الحاجة حليلة(جديدة)	1948	151
فواتي	1893	83.6	بلعيد(جديدة)	1949	126.70
طلحاية	1893	83	حاسي القارة(جديدة)	1950	141
الآباء البيض	1894	77.5	شارل دوفوكو(الكنيسة)	1953	151.50
الحاجة حليلة	1896	81 (انسداد)	بوخشبة(دوار الخشب)	1954	160
الجيني	1898	65.30	مول قندوز	1954	155.4
باطروشوي	1907	70.5	المطار	1955	100.2
تاغيت(قديمة)	1908	-	تاغيت(جديدة)	1955	123.4
قصر بلفاسم	1908	-			

يعكس لنا الجدول التوزيع الجغرافي المحكم لهذه الآبار، بحيث تتوزع على حسب الأراضي المراد استصلاحها، وفي نفس الوقت يستفيد منها السكان في الشرب، اضافة إلى ذلك أن عمق الجيب المائي في مدينة المنيعه قريب من السطح فهو يتراوح ما بين 55م و155م، ويعطي هذا العمق كمية ضخ للماء عالية خاصة في البداية التي وصلت حتى 8500ل/دقيقة في دوار الخشب، و6500ل/دقيقة في حاسي القارة، و2900ل/دقيقة في بلبشير، واستقرت كمية الضخ لهذه العيون المائية حتى سنة 1955ما بين 250ل/دقيقة كحد أدنى إلى 6500ل/دقيقة كحد أقصى وذلك على حسب موقع كل عين من العيون وتعطي في مجموعها كمية ضخ للمياه 29530ل/في الدقيقة حسب الدراسة التي اجريت سنة 1955م، مما يوحي بالكمية الهائلة للمخزون المائي الذي تتوفر عليه مدينة المنيعه والذي يتغذى من مياه الأطلس الصحراوي (22).

هذه الامكانيات الزراعية من وفرة للمياه والتربة الزراعية التي قامت مياه الوادي على تسميدها عند جريانها المفاجيء، ووجود هذه المساحة الزراعية في مستوى منخفض ما بين العرق الغربي غربا والجبل شرقا وشمالا، مما وفر لها درعا طبيعيا واقيا من الرياح المضرة للمحاصيل الزراعية، كل هذا شجع فرنسا على أن تركز مجهوداتها على اتباع سياسة زراعية خاصة بمدينة المنيعه، وجعلت منها مركز تجارب مثل منطقة الواجدة والمزرعة البلدية ببدريان وحقول سانت جوزافيلبشير وأنشأت مشتلة بلعيد.

قامت فرنسا بتعبير للتربة الزراعية لمعرفة درجة خصوبتها وما ينبغي اضافته لاستدراك النقائص، ومن بين هذه الدراسات الخاصة بالزراعة دراسة (شوفاليي) (G.Chovalier) سنة 1934م، ووضعت خريطة خاصة بحفر الخنادق (drainage) من أجل امتصاص الماء الزائد عن التربة وهذا ما قاله السيد (ديرون) (Durand): "في جميع الأحوال هناك ضرورة استخدام الخنادق لامتصاص الماء الزائد وبعد ضرر الأملاح للمزروعات"، لأن المياه بتبخرها تزيد من كمية الأملاح مشكلة في النهاية بما يعرف بالسيخه، لذلك تداركت هذا لوضع من البداية بوضع هذه الخطة المحكمة، والتي تعدّ بالفعل تأسيسية للزراعة في مدينة المنيعه، وتضمن استمرارية وحماية لها<sup>(23)</sup>.

وفرة المياه أدت إلى توسيع مساحة الأراضي الزراعية، فلما جاء الفرنسيون إلى المنيعه وجدوا عدد قليل من النخيل يعتمد على السقي التقليدي عن طريق بئر القرقاز، ونصف هذا النخيل مهجور، في حين وصل عدد النخيل سنة 1956م إلى 128,080 نخلة، وبالتالي حولتها إلى مستثمرات بتكلفة قدرت 5000 فرنك في المتوسط للهكتار الواحد بمعدل 100 نخلة في الهكتار الواحد<sup>(24)</sup>.

**ب- التركيز على المحاصيل الزراعية الصناعية التجارية:**

لم يقتصر النشاط الاستعماري الزراعي على التمور وإِنما شمل منتجات زراعية صناعية تجارية أخرى مثل زراعة أزهار العطور، والحوامض، حيث خصصت لها هكتارات معتبرة كتجربة أولية ونجحت في ذلك، والذليل على ذلك اختيار مدينة المنية لعقد ملتقى عرف بملتقى الأزهار والبرتقال في الصحراء 1930م.

### المؤتمر الدولي للأزهار في الصحراء بمدينة المنية 29 جانفي 1930م:

قبل أن شرع في دراسة هذا المؤتمر نشير هنا إلى سنة 1930م سنة مهمة بالنسبة للاستعمار الفرنسي متمثلة في الاحتفال بذكرى مرور مائة سنة على احتلالها للجزائر، واعتبروها بداية عهد جديد من الانتصارات، وزاد اقتناعهم بأنهم سيظلون محتفظين بالجزائر إلى الأبد، وبذلك تشجعت فرنسا لتوسيع استثماراتها الاقتصادية ومن بينها الزراعة<sup>(25)</sup>.

### - أعضاء الملتقى:

حضر المؤتمر أزيد من 40 شخصية من مختلف الاختصاصات السياسية والعلمية والعسكرية، وحضي المؤتمر بتغطية اعلامية مثل جريدة التايمز، وجريدة "لو فيغارو" وصحف أخرى. ومن بين الشخصيات التي حضرت المؤتمر: الحاكم العام الفرنسي "بياربود" (Pierre Bordes)، والقائد العسكري "كوفي" (Cauvet) ضابط الشؤون الأهلية، وهو من الفرنسيين الأوائل الذين استكشفوا الكثير من المناطق الصحراوية، وأساتذة جامعيين من الولايات المتحدة الأمريكية التي مثلها "داوسون" (M. Dawson) ممثل المؤسسة الزراعية، وعن بريطانيا "ماجور شيب" (Major Chip) ممثلا لشركة الملكية الزراعية، وعن ألمانيا "فريكمان" (Frikmane) أستاذ بالمدرسة العليا للزراعة ببرلين، و"دولافراغ" (de la Frague) ممثل شركة أسفار ونزل شمال افريقيا، وله دراية كبيرة بالصحراء من تجواله فيها لمدة 20 سنة، وشخصيات أخرى مختصة في استثمار

الأزهار والبرتقال، ومجال النقل البري والجوي، وصناعة المواد الكيماوية والأسمدة الزراعية<sup>(26)</sup>.

### - أشغال الملتقى:

افتتح المؤتمر "ركار" (M.J.H.Ricard) المكلف بتسيير فعاليات المؤتمر بطرح ثلاثة أسئلة: من نحن؟، أين نحن؟ لماذا نحن هنا؟ مجيبا بمخطط عمل بداية الملتقى، والأعمال التي يجب مباشرتها، وعرف بالأماكن الصحراوية، من أجل ادخال الصحراء في طريق زراعي علمي جديد يؤهلها لأن تكون مكان خصب خاصة مدينة المنيعه مركزا على الأزهار والبرتقال كقاعدة اقتصادية في السياسة الزراعية للجنوب الجزائري، وهذا ما يتوخاه من أعضاء المؤتمر وما يقترحونه من آراء وقواعد علمية ومادية ترسم خطة أولية لإنتاج الأزهار والبرتقال في الواحات الصحراوية ومنه تمدين المساهمة في زيادة تمدين الصحراء.

أعمال فرنسا المتعلقة بزراعة الأزهار والبرتقال في منطقة المنيعه شرع فيها قبل هذا المؤتمر أي منذ مجيئ الفرنسيين لها، وعملوا على توفير مقومتها المادية والبشرية، وأردوا توسيعها عن طريق دراسة علمية انطلاقتها هذا المؤتمر.

### - مظاهر زراعة الأزهار والبرتقال:

نظرا لتوفر شروط زراعية ومناخية مشجعة منها: التربة الخفيفة، والماء العذب، وهواء مواتي، ودرجة حرارة مناسبة هذه المكنيات شجعت فرنسا على ادخال الكثير من أنواع الأزهار التي تستجيب للشروط المذكورة سابقا، ومن بين هذه الأزهار "زهرة دو دماس" (de DAamas) التي كانت تسمى في فرنسا قديما بزهرة غليكا (Gallica)، وكانت تزرع في سوريا والهند، والاحصائيات تقر بأن 1 هكتار من هذه الأزهار تنتج بمعدل 3000 كلغ. ومن بين الأزهار وجدت زهرة الباي والتي تسمى "دماسونا" (Damascena) تحتوي على كميات هائلة من العطر، وهي تزرع كذلك في بلغاريا خاصة واليونان، و"دماسونا" شمال افريقيا

أكثر عطاء للرحيق لطبيع المناخ التي استجابت لها، ومن بين الأراضي التي خصصت لزراعة هذه الأزهار نجد مشتل "بلعيد" وحديقة مركز الشؤون الأهلية التي حظيت بعناية كبيرة من طرف ضابط الشؤون الأهلية "كوفي"، بالإضافة إلى أراضي أخرى، ومن بين الأهالي الذين نجحوا في زراعتها "عبازة محمد" منطقة مزاب استطاع أن يحول مساحة معتبرة لزراعة الأزهار وكل أنواع البرتقال، بل كل أنواع أشجار الفاكهة بمجهوداته الخاصة طيلة 30 سنة قبل انعقاد المؤتمر لأن الزيارة الميدانية التي نظمها المؤتمر لمزرعته كان في قمة عطائها، وهي نموذج حي شجع على الاستمرارية في هذه الزراعة، وهذا يجعل أحد الضباط الذين حضروا المؤتمر أن ينصح بعض المهتمين بالاستثمار الاقتداء به وسمى على سبيل المثال "مادام برار" (Madame Berard)، والمشر في على حديقة نزل "ترونس أتلتيك" (Transatlantique) وغيرهم من الحاضرين<sup>(27)</sup>.

#### - أهداف زراعة الأزهار والبرتقال في المنية:

من خلال النتائج التي توصلت إليها فرنسا في مجال الأزهار والبرتقال، تبين لها توسيع المساحات الخاصة بها، وذلك من أجل إيجاد مصدر مهم لتموين مصانع العطر وعصير البرتقال في فرنسا بالمادة الأولية خاصة العطر، وذلك للأرباح الكبيرة التي ستحققها، بل أكثر من ذلك العمل على تقطير سائل العطر في مكانه أي المنية، حتى تضمن عملية نقله بسهولة من حيث طريقة وكمية نقله، وعملت على التركيز للإتيان بألة تقطير (Alambic) للمنطقة مع توفير وسائل النقل، وهذا ما صرح به الحاكم العام "بيار بورد"، بأن تكون المنية أول من يدشن أول تجارب تقطير عطر الأزهار، بل أكثر من ذلك عملت تهجين فصائل خالصة مخصصة للمنية مثل زهرة الشاي، ومن الأهداف التي رسمتها فرنسا من وراء هذه السياسة الزراعية الصناعية التجارية هي إيجاد مكان خالي من الأمراض التي تعرضت لها محاصيلها في العديد من مزارعها سواء على مستوى فرنسا، أو على مستوى مستعمراتها، ونذكر على سبيل المثال لما تعرض لها محصول عنب الخمر

مرض " فيلوكسيرا" في فرنسا عملت جاهدة على إيجاد بديل للأراضي المتضررة في مستعمراتها خاصة الجزائر التي تم توسيع زرع الآلاف من الهكتارات من عنب الخمر، نفس الشيء نلاحظه بالنسبة للأزهار والبرتقال، حيث تعرض محصولها للأزهار في المغرب الأقصى (زهرة دودماس) مرض الفطريات (Cryptogamiques) المثبط للإزهار، وهذا ما جعل بعض الأخصائيين يركز بل يشدد على المحافظة على الوسط الميني الخالي من الأمراض سوءاً فطريات أو ذبابة الحوامض، أعادوا السبب في ذلك لعزلتها وبعدها عن بقية المناطق التي قد تحدث عدوى، والتي قد تنتقل عبر وسائل النقل أو الغرسات القادمة من المشاتل الأوربية، ومنه قامت باتخاذ التدابير اللازمة للوقاية بإقامة مصلحة للتطهير، أو التركيز على المشاتل المحلية كما ونوع<sup>(28)</sup>.

الهدف الكبير من وراء هذه الزراعة تحقيق أرباح تجارية من جهة، ومن جهة أخرى إيجاد وسط ملائم لإنتاج البواكر من حوامض وكروم، إضافة إلى نقطة مهمة جدا كون أشجار الحوامض بالمنية تتصف بكبر حجمها ومذاقها الرفيع وارتفاع مردود الشجرة في السنة الواحدة، بل أكثر من ذلك ارتفاع معدل العصير الذي تحويه في حالة ادخالها للمصانع ومن تمّ تهيئة مدينة المنية لأن تكون وسط مشجع وجالب للاستيطان الأوربي، وخطوة تخدم السياحة الفرنسية الصحراوية هذه الأخيرة التي لم تغفل عنها الحكومة الفرنسية الاستعمارية وهذا ما سنوضحه في النقطة الآتية.

### ج- المشاريع السياحية الاستعمارية في المنية:

ركزت فرنسا على اعطاء المنية طابع سياحي مستغلة الامكانيات الطبيعية التي تتوفر عليها من مناظر طبيعية، بل حتى من حيث التخطيط العمراني، وتنظيم للشوارع وتزويدها بالمرافق كنزل "ترونس أتلتنيك" (Transatlantique) الذي كان يتمتع بطابع جمالي، ونزل روني مارسي، وكلها في وسط المدينة،

ورصدت مواقع زهرة الرمال المحيطة بها، والقصر القديم، ونقبت عن بقايا وسائل الانسان الأول، والتي جمعها في الأخير "الأب لوكلار"، والتي أصبحت فيما بعد النواة الأولى لمتحف عمومي وطني طبيعي، ألحقته الدولة الجزائرية بوزارة الثقافة، وأهم معلم سياحي متمثل في المتحف الذي أنشأه الكولونيل المتقاعد "أوجيراس".

### - متحف الكولونيل المتقاعد "أوجيراس (Colonel Augiras)"<sup>(29)</sup>:

هذا الرجل العسكري المتقاعد صبّ كل معرفته بالشؤون الافريقية في هذا المتحف، وتفتن الى الاستثمار في مجال السياحة، فخصصت له الحكومة الفرنسية أرضا واسعة تتسع لأزيد من 50 هكتار تمتد من قرب أراضي الكنيسة في منطقة بلبشير إلى حفر بلعباس، وقم بدوره إلى استغلالها كآلاتي: بناء متحف كبير مقسم إلى أربعة حجرات كبيرة وكل حجرة مخصصة لغرض معين، فالأولى خصصت لمكتبة للمطالعة، والثانية لجميع الحيوانات الموجودة على مستوى افريقيا محنطة، والثالثة لجميع وسائل الصيد المستعملة في افريقيا قديما وحديثا، والرابعة لجميع الحشرات والزواحف الموجودة في افريقيا تم تجفيفها أو المحافظة عليها بطريقة علمية، وبالتالي كان هذا المتحف قبلة للسواح وللعلماء والطلبة الجامعيين من كل بقاع العالم الذين يرغبون في اجراء دراسات عن الصحراء الافريقية وافريقيا وهذا ما يعرف بالسياحة العلمية، والأمر الذي جلب هؤلاء توفر وسائل الراحة والاستجمام، "فأوجيراس" بنى خيام على الطراز الإفريقي والتي تسمى "زرايب كرون كوكو" وكل زريبة محاطة بالماء متصلة مع الأخرى بخندق تشكل في مجموعها مساحة مغطاة بالنباتات المائية توحى للزائر بأنه في غابة افريقية، وحقق "أوجيراس" مداخيل معتبرة من هذا الاستثمار<sup>(30)</sup>.

### خاتمة:

مّمّا تقدم يمكن القول، بأن السياسة الفرنسية الاستعمارية تجاه مدينة المنيعه كانت لها انعكاسات عدّه ، تمثّلت في تحويلها إلى مركز مراقبة لكل التحركات الخاصة بسكان الصحراء عامه والثوار خاصة، كما أن سياستها الاقتصادية كانت موجّهة لخدمة الكولون والاقتصاد الفرنسي بصفة خاصة بصفة عامه، لأغراض دينية كنشر المسيحية، كما فعلت بحقول سانت جوزاف. أما الأهالي فقد تعرضوا للتهميش والاستغلال، وعانوا من ويلات الفقر والأمراض.

## الهوامش والإحالات:

- 1- محمد العربي الزبيري: مقاومة الجنوب للاحتلال الفرنسي، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1972م، ص28.
- 2- كانت تسمى المنيعَة قديماً تاوريرت، وهي كلمة زناتية أو بربرية تعني الهضبة أو الجبل القليل الارتفاع (محصن وبعيد عن العدو)، ونفس التسمية نجدها في المغرب الأقصى (هضبة سيدي سماعيل) وسميت كذلك القليعة: حسب حما بلحا: سميت بهذا الاسم لعدم وجود استقرار سياسي: قائد يقلع قائد آخر، وهناك من يقول بسبب انتقال سكانها من أسفل إلى أعلى الجبل الذي بنيت به القلعة، فسميت بالقلعة، واسم المنيعَة: سميت لكونها حصن منيع للهاربين (جماعة قتلوا أميرهم الهلالي بسبب تزويجه ابنته لأحد أمراء تلمسان)، انظر: بلحاج الطالب حمه والزهار يحي: تاريخ مدينة المنيعَة منذ نشأتها حتى الدخول الفرنسي لها، المنيعَة، 1982م، ص1.

3-Broc Numa. Les Français face à l'arabisation inconnue saharienne : géographes, explorateurs, ingénieurs (1830-1881) . In: Annales deGéographie. 1987, t. 96, n°535. pp. 302-338

وانظر كذلك:

- بلحاج الطالب حمه والزهار يحي: تاريخ مدينة المنيعَة منذ نشأتها حتى الدخول الفرنسي لها، المنيعَة، 1982م، ص3.
- 4- ولد هنري دوفيري سنة 1840م، درس التجارة في ألمانيا، تعلم اللغة العربية، كان محبا للمغامرة والاستكشاف لذلك خصص زيارة للجزائر سنة 1857م وصل حتى مدينة الأغواط ثم عاد إلى بلده، ليعود في رحلة ثانية إلى الصحراء يوم 8 ماي 1859م انطلقا من مدينة سكيكدة، انظر:

Broc Numa. Les Français face ...op.cit,p 302.

- 5- احميده عميراوي: السياسة الفرنسية في الصحراء الجزائرية (1844-1916)، دار مليلة، الجزائر، 2009، ص103.

- 6- Geneviève Capot-Rey :L'Eau et le sol a El-Goléa : Revue Travaux de de l'institut de Recherches Sahariennes, université d'Alger, Tome XVII, 1<sup>er</sup>.2<sup>me</sup> semestre,1958,pp83-126.
- 7- محمد عبد الحليم بيثي: تطورات الثورة الجزائرية في ناحية غرداية، دار زمورة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013، ص286.
- 8- أولاد حيمودة محمد بن الشيخ: استمارة خاصة بإطارات الثورة التحريرية، المنبعة، سنة2006، ص7.
- 9- احمدية عميراوي: السياسة الفرنسية في ...، مرجع سابق، ص103.
- 10- خديجة بقطاش: الحركة التبشيرية في الجزائر 1830-1871، الجزائر، ص24.
- 11- احمدية عميراوي: السياسة الفرنسية في ...، مرجع سابق، ص104.
- 12- Broc Numa. Les Français face ...op.cit,p306.
- 13- خديجة بقطاش: مرجع سابق، صص79-84.
- 14- المسغور أو المطورن بلغة الدارجة تعني الشخص الذي تخلى عن دينه واعتنق المسيحية.
- 15- الهامل بلحيران من موليد 1937م يوم 12 مارس 2012م صباحا، نظمنا معه لقاء كشاهد عيان .
- 16- نفس شاهد عيان السابق.
- 17- Geneviève Capot-Rey :L'Eau et le sole...,op.cit,pp83-126
- 18- 11- La Mission Choisy :cf.t III p41.
- 19- القرقاز: كلمة زناتية، وهو وسيلة تستعمل لاستخراج الماء من البئر، مصنوع من خشبة طويلة مزودة بحبل في نهايته دلو لسحب الماء، والخشبة مثبتة على عمودين من الطوب أو الحجر.
- 20- La Mission Choisy :cf.t III.,p20
- 21-Geneviève Capot :op.cit ;p125.
- 22-حسب نظرة كوسكوف المكلف بدراسة الجانب الهيدروغرافي التابع لمصلحة المياه والتهيئة الريفية (SHER) بالمنبعة سنة 1953: الجيب المائي المنيعي يتغذى من الأطلس الصحراوي وليس من العرق.

23-Geneviève Capot :op.cit ;p98.

24-Ibid,p 122.

25-أبو القاسم سعدالله: الحركة الوطنية الجزائرية، ج3، ط4، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1992م، ص16

26-Congrès de la Rose et de L'Oranger au Sahara ,29 janvier 1930,a El-Goléa, Paris,1930,pp10-11.

27-Idem,p12.

28- Geneviève Capot, op.cit pp83-126

29-أجرينا مقابلة شفوية مع الشيخ الهامل بلحيران من موليد 1937م يوم 12 مارس 2012م صباحا، كان أحد العمال في هذا المتحف مع السائق الخاص بأوجيراش المدعو "باغبغو" أصله من مدينة عين صالح ، ومازال الشيخ الهامل يتمتع بكل قدراته الصحية والعقلية، ومشهود له بسيرة حميدة وأعمال خيرية.

30-Geneviève Capot :op.cit ;p128.1

## إقليم توات (ولاية أدرار حاليا) في مشروع فصل الصحراء (1960-1962م)

الأستاذة: أسماء ابلاي

جامعة أدرار

### الملخص:

يحتل إقليم توات بموقع استراتيجي هام مكنه من اداء دور حضاري في منطقة الصحراء الجزائرية الكبرى على مر العصور التاريخية، اذ يعتبر حلقة ربط ووصل ما بين شمال البلاد وجنوبها من جهة وما بين شرقها وغربها من جهة اخرى وهو ما جعله عرضة للأطماع الخارجية بدءا من السعديين- الذين بسطوا سيطرتهم عليه خلال القرن السادس عشر الميلادي على عهد الملك (احمد المنصور الذهبي) وانتهاء بالفرنسيين الذين تمكنوا منه مع مطلع القرن العشرين (1900م) وزاد تمسكهم به بعد اكتشافات البترول التي توصلت اليها هيئات التنقيب الفرنسية آنذاك، واشتداد التنافس بين الدول الكبرى للالتحاق بالنادي النووي في اطار الحرب الباردة التي شهدها العالم بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، وهو ما جعل فرنسا الاستعمارية تبحث عن فضاء واسع لها في مستعمراتها ما وراء البحار ليكون حقلًا لتجارها النووية.

ومن هنا كان الاقليم كغيره من مناطق الصحراء الجزائرية الشاسعة مستهدفا من طرف المشروع الاستعماري الخطير الذي استعملته فرنسا كورقة ضغط على المفاوضات الجزائري أثناء المحادثات الفرنسية - الجزائرية والمتمثل في فصل الصحراء عن بقية ارجاء البلاد الجزائرية لتحويلها الى حقل للتجارب النووية ومستودعا للنفايات النووية وفوق ذلك ضمها إلى فرنسا الأم إلى الأبد، وهو ما جعلها تبذل العديد من المساعي الدولية والمحلية لتحقيق ذلك، لكن رفض الشعب الجزائري في هذه الربوع من البلاد وتصميم المفاوضات الجزائري على كسب

المعركة حالاً دون تحقيق فرنسا الاستعمارية لأهدافها المذكورة وسنحاول في هذه المداخلة ان نتبع باختصار مقاومة سكان المنطقة للاحتلال الفرنسي ابان الثورة التحريرية الكبرى مع ابراز مكانة الاقليم في مشروع فصل الصحراء عن الجزائر وردود الفعل المحلية من هذا المشروع في الاقليم. فكيف تصدى سكان اقليم توات للاستعمار الفرنسي ابان الثورة التحريرية؟ وما موقع الإقليم من المخطط الفرنسي الرامي إلى تجزئة الجزائر ترابياً؟ وفيم تتمثل أهم اهداف فرنسا من فصل الإقليم عن الجزائر؟ وما هي ابرز ردود الفعل الوطنية في المنطقة من مشروع التقسيم؟ وللإجابة على هذه الاسئلة قمنا بتقسيم المداخلة الى العناصر التالية:

- 1- موقع اقليم توات فلكيا وجغرافيا.
- 2- الثورة التحريرية في إقليم توات (1954-1962).
- 3- مكانة إقليم توات (ولاية ادرار) في مشروع فصل الصحراء.
- 4- اهداف فرنسا من فصل الاقليم عن الجزائر.
- 5- ردود الفعل المحلية من مشروع التقسيم (1960-1962)

### Résumé :

Le secteur de touat a un local extraordinaire et très important. Ce qui lui a donné un rôle urbain dans la région du grand Sahara Algérienne, durant les siècles historiques . Il se considère comme une chaîne de liaison et d'accord entre le Nord du pays et le Sud de ce donier d'un côté et entre son Est et l'Ouest de l'autre côté. C'est ce qui lui a mis face aux buts étrangers, surtout par les « Saâdistes » qui l'ont résidé durant le 16<sup>ème</sup> siècle sans l'assistance du roi ( Ahmed EL-Mansour Dahbi ), finalisé par les Français qui l'ont pris audébut du 20<sup>ème</sup> siècle (1900). Il l'ont bien attaché après la découverte du Pétrole suivi par la commission française . La concurrence a augmenté entre les grands pays pour participer au club nucléaire dans le cadre de la Guerre Froid découverte dans le monde après la fin de la 2<sup>ème</sup> guerre Mondiale .

Ce qui a forcé la France coloniale à chercher un espace vaste pour elle en ses colonies derrière les mers pour devenir un champ de ses opérations nucléaires.

Pour cela, le secteur était , comme les autres secteurs des régions de la Grande Sahara visé par le projet colonial dangereux utilisé par la France comme une feuille morte sur le négociateur algérien durant les discussions Franco-algériennes sous le sujet de saisonner le Sahara du reste du pays algérien pour le transformer en un champ des opérations nucléaires et un magasin des déchets nucléaires . En plus il sera ajouté à la France ( la mère ) à vie.

Elle était obligée d'ajouter ses buts internationaux et peuple algérien en ses régions et l'insistance du négociateur algérien à obtenir le combat immédiatement sans laisser la France à réussir ses buts indiqués . On va essayer ici de suivre brièvement le combat des habitants de la région au colonialisme français dès son départ jusqu'au déclenchement de la grande révolution libérale puis , montrer l'importance du secteur au projet de saisonnement saharien de l'Algérie, et des réflexions locales de ce projet sectoriale .

Alors , comment était la réflexion des habitants de secteur Touati envers le colonialisme français ? Quels sont les buts français de saisonner le secteur de l'Algérie en terre ? Quelle sont les différentes réflexions nationales dans la région envers le projet de la division ? .

## أولاً - الموقع الفلكي والجغرافي لإقليم توات (ولاية أدرار حالياً):

تقع ولاية أدرار<sup>1</sup> التي اخذت اسمها الحالي بعد الاحتلال الفرنسي لها مع مطلع القرن 20م بين خطي عرض 30/26 شمالاً وجنوباً وبين خطي طول 1 شرقاً إلى 4 غرباً وهذا الموقع يمثل امتداداً طبيعياً لمنخفض تنزروفت نحو الشمال<sup>2</sup>؛ أما جغرافياً فتقع ولاية أدرار التي انبثقت عن التقسيم الإداري الجزائري لسنة 1974م في أقصى جنوب غرب الصحراء الجزائرية يحدها من الشمال ولاية البيض، ومن الشمال الغربي ولاية بشار، ومن الشمال الشرقي ولاية غرداية، ومن الغرب ولاية تندوف ومن الجنوب دولة مالي ومن الجنوب الغربي دولة موريتانيا، ومن الجنوب الشرقي ولاية تمنراست وتبعد أقرب نقطة منها من الجزائر العاصمة بحوالي 1500 كلم. وتربع ولاية أدرار على مساحة شاسعة تقدر بـ 427,968 كلم مربع<sup>3</sup> أي ما نسبته 18٪ من مجموع مساحة الوطن، وتنقسم الولاية إلى أربعة مناطق اثنوثقافية تشترك في العادات والتقاليد يجمعهم تواجدهم على هضبة تادمايت (شمال عين صالح) الخزان الكبير للمياه الجوفية وهي:

أ - منطقة قورارة: أو (تينجورارين) وتقع شمال إقليم توات يحيط بها العرق الغربي<sup>4</sup> من جهة الشمال والشمال الشرقي ومن الجنوب هضبة تادمايت، ومن

---

1 - أدرار كلمة بربرية تعني الجبل

2 - فرج محمود فرج : إقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر: 1977، ص 1 .

3 - مدن وثقافة، أدرار جوهرة الجنوب، دليل ثقافي، (د،ط)، المركز الوطني للمخطوط، دار الثقافة: دت، ص 3 .

4 - العرق الغربي الكبير: هو بحر من الرمال مساحته 8000 كلم مربع يحده شمالاً الأطلس الصحراوي وشرقاً ميزاب ومنطقة القليعة جنوباً هضبة تادمايت وغرباً واحات توات ووادي الساورة يبلغ علو العرق 673م لكن كثبانته لا تتجاوز علوها أُل 120م، ينظر، عاشور شرفي:

الشرق الحوض الشرقي لواد الساورة ويوجد في المنطقة سبخة تينجورارين الممتدة من الشمال إلى الجنوب، وكذلك بعض الأودية الجافة مثل وادي امقيدن(ينبع من المنيعة) ووادي صالح<sup>1</sup>، وتشكل منطقة قورارة من مجموعة قصور ينتشر أغلبها حول الكثبان الرملية الهائلة على الحدود الجنوبية للعرق الغربي الكبير أهمها: قصور أوقروت، قصور تنركوك، قصور تيلكوزة، قصور تيميمون.

**ب - منطقة توات الوسطى أو تسوات:** تنحصر ما بين قورارة من ناحية الشمال وتيديكلت<sup>2</sup> من الجنوب الشرقي، وتحتوي توات الوسطى على جملة من القصور تمتد من قصور بودة وتيمي شمالاً إلى رقان جنوباً على مسافة 200 كلم تقريباً أي على طول الجبهة الغربية لهضبة تادمايت، ومن أهم قصور توات الوسطى: قصور بودة قصور تمنطيط، قصور تيمي، قصور فنوغيل، قصور تامست، قصور أنزجير، قصور زاوية كنته وقصور رقان<sup>3</sup>

**ج- منطقة تيديكلت :** تمتد تيديكلت من مدينة "أولف" إلى مدينة "فقارة الزوا" بدائرة عين صالح شرقاً على مسافة تقدر ب 150 كلم<sup>4</sup> وهي بهذا تقع في الجهة الشرقية لمدينة رقان، أي عند سفح صخري مرتفع من هضبة تادمايت،

---

معلمة الجزائر القاموس الموسوعي، تر: عبد الكريم اوزغلة وآخرون، (د،ط)، دار القصة للنشر، الجزائر: 2009، ص 1039.

1- محمد حوتية: توات والازواد خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر للهجرة ( الثامن عشر والتاسع عشر للميلاد ) ، رسالة دكتوراه دولة في التاريخ الحديث المعاصر، إشراف: ناصر الدين سعيدوني، جامعة وهران، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم التاريخ ، 2003-2004م، ص 3.

2 - تيديكلت: كلمة بربرية معناها كف اليد او اليد المفتوحة.

3 - محمد حوتية: المرجع السابق، ص ص (6-7-8) .

4 - مبارك جعفري: العلاقات الثقافية بين توات والسودان الغربي خلال القرن 12هـ/18م، (ط1)، دار السبيل للنشر والتوزيع، الجزائر: 2009، ص 31 .

وتزخر منطقة تيديكلت بمجموعة من الأودية التي تقطعها من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي مثل وادي "جارت" الذي يعتبر من روافد "وادي مسعود"<sup>1</sup>. وتتكون تيديكلت بدورها من مجموعة من القصور مثل قصور اولف - قصور تيط - قصور اقبلي موزعة على سطح منبسط قليل التلال ومركزها مدينة أولف (تيديكلت الغربية) حالياً إلا أن مدينة عين صالح أو (تيديكلت الشرقية) تعتبر العاصمة التاريخية للمنطقة فإليها كان يلجأ توارق الهقار وأهل أدرار وجانت في حالة الخطر، كما كانت الطريق الذي تمر منه القوافل التجارية المتجهة نحو تونس وطرابلس ونقطة تجمع ومعبّر للحجيج<sup>2</sup>.

**د- منطقة تنزروفت:** وهي صحراء شاسعة حصوية بيضاء اللون جافة قاحلة تمتد إلى غاية المناطق الخصبة بأهقار وكل طرقها تؤدي إلى بلاد السودان (مالي). وتكون كل من قورارة وتوات الوسطى وتيديكلت يضاف إليها تنزروفت الحدود الإدارية والرسمية لولاية أدرار حالياً.

من خلال تحديدنا للموقع الفلكي والجغرافي لولاية ادرار وعرضنا لمساحتها يتبين لنا أن للولاية أهمية كبيرة بحكم موقعها الجغرافي الاستراتيجي المتميز وهذا بشهادة الرحالة الذين زاروها والباحثة الذين تحدثوا عنها، فهي تعتبر همزة وصل بين كل مناطق الجزائر من جهة، ومفتقرا للطرق التي تربط الشمال بالجنوب ودول إفريقيا من جهة أخرى، فهي مفتوحة على منطقة الهقار في اتجاه عين صالح إلى ولاية تمنراست وعلى دول غرب إفريقيا من جهة تنزروفت عن طريق برج باجي مختار، وعلى جهة الجنوب الغربي عن طريق واد الساوره في اتجاه بشار، وعلى

1 - عبد الله عباس: التأثيرات الحضارية لمنطقة توات في بلاد السودان الغربي، مذكرة السنة الأولى ماجستير إشراف: موسى لقبال، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، السنة الجامعية 1997-1998م، ص 29.

2- التومي سعيدان: سكان تيدكلت القدامى والاتكال على النفس، (ط1)، دار هومة، الجزائر: 2005، ص ص (18 - 19)

موريتانيا باتجاه تندوف، وعلى منطقة البيض باتجاه تنزوك وعلى اتجاه الشمال الجزائري عن طريق المنيعة وغرداية، كما كانت في الماضي ممراً للقوافل التجارية العابرة للصحراء في اتجاه الدول الإفريقية حيث يقول "ليون الإفريقي" عن تينجورارين<sup>1</sup>: «... وهنا مجمع القوافل لان تجار بلاد البربر ينتظرون تجار بلاد السودان ثم يذهبون جميعاً...»، ومعبراً للحجاج الافارقة أوالمغاربة، فقد مر مثلاً: الموكب الحجى للسلطان "منسا موسى" رابع سلاطين إمبراطورية مالي (712-737هـ/1312م-1337م) بتوات<sup>2</sup>، كما مر بها الرحالة "العياشي" المغربى خلال رحلته إلى الحج عندما مر بقرية تسايت بقورارة .

### ثانيا/ الثورة التحريرية في إقليم توات (1954-1962):

لقد عبر سكان إقليم توات عن رفضهم للمحتل الفرنسى منذ أن وطئت أقدامه أرضهم ولعل معارك: أقسطن(الفقييرة) 1899/12/28م والدغامشة 1900/01/05م وإينغر 1900/01/24م وطلمين 1901/05/08م ولمطارفة وشروين 1901/02/28م أكبر دليل على ذلك؛ ونتيجة للسياسة الفرنسية المتبعة في المنطقة (الحكم العسكرى) يضاف إليها الوضع الذى آلت إليه جراء الاحتلال من تدهور وتدنى الاحوال الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والدينية بدأت تظهر بوادر للنضال السياسى بها خاصة في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية.

ففى سنة 1946م أرسى تمثيل الأحزاب الوطنية بمدينة ادرار وفسح المجال لانخراط مناطق إقليم توات في الحياة السياسية الوطنية حيث تم تشكيل مكتب حركة (انتصار الحريات الديمقراطية) في ادرار ضم السادة: "بن خدة الحاج عبد

1 - الوزان الفاسى (الحسن بن محمد) المعروف بليون الإفريقي: وصف إفريقيا، ترجمة: محمد حجى، محمد الأخضر، (ج2)، (ط2)، دار الغرب الإسلامى، بيروت: 1983م. ص 133.

2 - أحمد الشكرى: الإسلام والمجتمع السودانى إمبراطورية مالي (1230-1430م)، (ط1)، المجمع الثقافى، أبوظبى: 1999، ص 243.

الله" رئيسا- "بوزيد الشيخ" نائبا- "عبد السلام" مسؤول المال- "الحاج التوهامي" و"قادة العربي بلقاضي" و"قلوم الشيخ" أعضاء المكتب، واتخذ المكتب من دكان "قلوم الشيخ" مقراً له وعمّ تنظيم الحزب القصور والواحات وأنشئ مكتبا آخرًا للحزب في تيميمون ترأسه المناضل "علال بيتور" وجند المكتب وراءه قصور قورارة .

كما أوجد "الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري" (فرحات عباس) تمثيلاً له في قورارة ومدينة ادرار نهض به السيد "أقاسم عبد العزيز" الذي تحول عام 1948م إلى حركة (إ-ح-د)؛ أما "جمعية العلماء" فقد كان لها بدورها حضور وتمثيل في قورارة نهض به السيد "عبد القادر بوحادة" و"مولاي زعرور"<sup>1</sup> بعد وصول دعوتها التي تعارض السياسة الاستعمارية الهادفة إلى التجهيل والتنصير والفرنسة إلى الإقليم، وإلى جانب هذا برز جملة من المشايخ الذين ساهموا بشكل أو بآخر في بث روح الجهاد والدفاع عن الوطن، وتنوير العقول وتوعية الناس وإعداد جيل الثورة، - وإن لم ينضموا إلى "جمعية العلماء المسلمين الجزائريين" - من أمثال الشيخ "محمد بن الكبير" (ت عام 2000م) والشيخ "احمد الطاهري"<sup>2</sup> والشيخ "محمد باي بلعالم" (ت 2009م) رحمهم الله .

- 
- 1 - دحمان تواتي وآخرون: الثورة الجزائرية في أقاليم توات (1956-1962)، (د،ط)، منشورات مولاي سليمان بن علي لحماية مآثر الثورة التحريرية، د،ت، ص ص (28-29).
  - 2 - مولاي أحمد الطاهري السباعي الحسني: ولد عام 1325هـ بمراكش تلقى تعليمه بمسقط رأسه ثم انتقل سنة 1363هـ إلى توات فنزل أولا في تاوريرت بركان ثم انتقل إلى سالي أين أسس مدرسته المشهورة بالطاهرية بمساعدة الشرفاء من أولاد السي همو، فأصبح الطلبة يتوافدون عليها من كل مكان. وقد تخرج على يديه جم غفير من الطلبة، منهم الشيخ محمد باي بلعالم، و الشيخ بالحبيب، الشيخ الرقاني الفقيه وغيرهم، توفي عام 1390هـ / 1979م وله ذرية بسالي منهم ابنه عبد الله خليفته على المدرسة حاليا من مؤلفاته: الدفاع وقطع النزاع عن شرف أبناء السباع، الأجوبة السباعية عن الأسئلة المراكشية، وعدة قصائد ينظر، محمد باي بلعالم: الرحلة

ولقد شارك مناضلو حركة (إ- ح- د) في انتخابات 1948م أين أُلقت الإدارة الفرنسية القبض عليهم واعتقلتهم بما فيهم رئيس المكتب السيد "بن خدة عبد الله" وأعضاء مكتبه، وبعد تزوير الانتخابات رجحت الإدارة الفرنسية كفة مرشحها "سي الخلاصي" على حساب مرشح حركة (إ- ح- د) "باقي بوعلام" و"الحاج حمادي أقاسم" ممثل حزب "فرحات عباس"<sup>1</sup>.

وبعد اندلاع الثورة التحريرية نوفمبر 1954م اعتنقها سكان ولاية ادرار، وساهموا فيها بدمائهم وأبنائهم وأموالهم رغم قلة عددهم، وقلة السلاح لديهم آنذاك إلا أن حماسهم الوطني دفعهم إلى الانضمام إلى صفوف الثورة لمناصرة إخوانهم في الشمال من اجل تحرير الوطن، حيث كانت ادرار ضمن المنطقة الثامنة<sup>2</sup> من الولاية الخامسة التاريخية إلى غاية 1957م، ومنذ 1959م أصبحت متممة إلى المنطقة الثالثة من نفس الولاية؛ ومن الرواد الأوائل الذين أوفدتهم "جبهة التحرير الوطني" لحمل مشعل الثورة إلى المنطقة بعد عقد مؤتمر الصومام أوت 1956م "محمد جغابة"، "محمد الشريف مساعدي"، "عبد الله بلهوشات" وغيرهم حيث يروي "محمد جغابة" المكلف من قبل الولاية السادسة بتعميم نظام الثورة بالصحراء: «انه كلف في أواخر 1956م من طرف "سي الحواس" بمهمة استكشاف الجنوب بهدف توسيع رقعة الكفاح، فقام رفقة زملائه بتنصيب اللجان المدنية وتحسيس المواطنين وتجنيدهم فما إن جاءت نهاية 1957م حتى كان التنظيم

---

العلية إلى منطقة توات لذكر بعض الأعلام والآثار والمخطوطات والعادات وما يربط توات من الجهات، (ج1)، (د،ط)، دار هومة، الجزائر: 2005، ص ص (358 355).

1 - دحمان تواتي وآخرون، المرجع السابق، ص ص (29-30).

2 - المنطقة الثامنة من الولاية الخامسة كانت تضم ولايات: النعامة والبيض وبيشار وادرار وتندوف ينظر، عبد القادر خليفي: محطات من تاريخ الجزائر المجاهدة (1830-1962)،

(د،ط)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر: 2010م، ص 178.

السياسي شمل كل ولايات أقصى الجنوب بحيث أصبح التنظيم الموجود في الشمال موجوداً في الجنوب»<sup>1</sup>.

وفعلاً فقد قدم "محمد جغابة" إلى تيميمون في سنة 1956م وفي نهاية السنة عقد مناظرو تيميمون القدامى اجتماعاً بمنزل السيد "بودواية بودواية" فشكّلت اللجنة الخماسية لجهة التحرير الوطني بتيميمون، وشملت السادة: "عبد العزيز أقاسم" رئيساً و"بودواية بودواية" و"بوحدادة عبد القادر" و"بومدين سلركة" و"العامري بشير" أعضاء، وتكفلت اللجنة بالتعبئة وإنشاء الخلايا السرية ومراكز التموين وجمع المؤن للمجاهدين .

وفي منتصف سنة 1956م قام المناضلون بفاتيس وبتركوك بعقد اجتماع حضره كل من: "الهاشمي أحمد" <sup>2</sup>، "نوازي نوار"، "قدوري قادة"، "حكومي محمد" ... وغيرهم وقرروا الالتحاق بصفوف الثورة في نواحي البيض<sup>3</sup>.

ومن أهم المعارك التي جرت بولاية ادرار وكانت مسرحاً لها "معارك العرق الكبير" التي اندلعت ما بين 15 أكتوبر 1957 و1962م نذكر منها على سبيل المثال:

1 - عبد السلام بوشارب: الهقار أمجاد وانجاد، (د،ط)، المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار، روية: 1995، ص 131.

2 - الهاشمي أحمد: ولد خلال 1930 بتركوك كان ذا مستوى ثقافي متميز انضم الى جيش و جهة التحرير بعد تسريحه من المهارية، قام بتوعية الشعب في تيميمون و حثهم للالتحاق بالثورة، شارك في اربع معارك و استشهد في 21 - 11 - 1957 في معركة حاسي غنبو بتركوك، ينظر: السجل الذهبي لشهداء المقاومة الشعبية والثورة التحريرية الكبرى لولاية

ادرار، (د،ط)، جمعية سليمان بن علي لحماية مآثر الثورة التحريرية، أدرار: د،ت، ص 57.

3 - دهمان تواتي وآخرون: المرجع السابق، ص ص (30-31).

- معركة حاسي صاكة (على بعد نحو 80 كلم شمال شرقي تيميمون) وكانت أول معارك العرق قادها جماعة المهاري الجزائريين الفارين من صفوف الجيش الفرنسي، من أمثال "الهاشمي أحمد" و"عشاوي أمحمد" (بلعقون)، "الزاوي مول الفرعة" و"سليمان الدين" وغيرهم من مهاري حاسي صاكة الجزائريين حيث تمكنوا من الالتحاق بصفوف "جبهة التحرير الوطني" عام 1956م وأعلنوا انتفاضتهم يوم 15 من شهر أكتوبر 1957م فكبذوا قوات قائد قوات كتيبة توات المهارية النقيب "جاك صوايي" خسائر فادحة حيث تم القضاء على الجنود المكلفين بالرقابة والتفتيش على حاجز طريق تيميمون واستطاع مهاري حاسي صاكة اقتحام خيمة العقيد وكانت نتيجة المعركة مقتل ثمانية مهاري فرنسيين، واستولى المهاري الجزائريين على مائتين وخمسين جمل وكل الأسلحة والمؤن المادية التي كانت تحتويها الكتيبة المهارية (65 بندقية ومذيع راديو وصناديق المؤن (10 آلاف خرطوشة) وأكثر من 15 منظار) وغادر ثلاثة وستون شخصا المخيم<sup>1</sup>.

ولقد احدث نأ المعركة ضجة وسط هيئة أركان جيش الاحتلال فقامت الشرطة الاستعمارية بممارسة أسلوب القمع حيث شنت حملة قمعية ضد المشتبه في تموينهم الخزائن الخاصة بالمجاهدين، وأصدر الجنرال "دي كرافكار" "De Crevecoeur" تعليمات للقائد "بيار بوشي" بتتبع المهاري الفارين، فقام هذا الأخير بنشر أكبر قوة جوية في الشمال وشمال غرب وشمال شرق تيميمون في مربع طول ضلعه 200 كلم<sup>2</sup>، كما قام بقتل كل الجمال المتحركة عبر العرق (512 جملا منها 37 جمل تابع لكتيبة المهارية)، وتدمير خمسة آبار لمنع المهارية من التزود بالماء، كما شنت الشرطة السرية الفرنسية حملة اعتقال وتعذيب على أهالي تيميمون وقصورها انتقاما من المتمردين حيث تم قتل اثنين وعشرين شخصا، وتدمير ستة

1 - السجل الذهبي لشهداء المقاومة الشعبية والثورة التحريرية الكبرى لولاية أدرار، المرجع السابق. ص 24.

2 - المرجع نفسه، ص ص (25-26).

بيوت تابعة لمهاري حاسي صاكة مع حرق وتدمير عدة أشجار نخيل تابعة لعائلاتهم<sup>1</sup>.

وعلى الرغم مما ترتب عن هذه المعركة من آثار وخيمة على عائلات المهاري، إلا أنها تعد أول معركة أو مواجهة مابين المناضلين والجيش الفرنسي بعد امتداد الثورة للمنطقة اثبتت للمحتل الفرنسي قدرة الثورة على التعبئة وانتشارها، إذ جاءت في فترة تاريخية هامة من تطور الثورة الجزائرية وانتشارها حسبما جاء في مقررات مؤتمر الصومام (20 اوت 1956م) كما كانت رد فعل على مشروع التقسيم الذي قد شرع بموجب قانون 7 أوت 1957م؛ أما على المستوى الداخلي فقد أعطت انتفاضة "حاسي صاكة" نفساً قوياً لأبناء المنطقة للوقوف في وجه الاحتلال والتصدي لمشاريعه الاستعمارية.

- معركة حاسي تاسلغة: (شمال تيميمون على بعد 60 كيلو متر): حيث وصل المجاهدون الفارون من غارة الطيران الفرنسي عقب معركة حاسي صاكة إلى "حاسي غنبو" ثم اتجهوا نحو حاسي تاسلغة في نوفمبر 1957م وكان عددهم ستة وسبعين فرداً أين انضم إليهم القائد "فرحات" (بلعيد احمد) رفقة أربعين رجلاً<sup>2</sup> فنصبوا كميناً للسيارات الفرنسية القادمة بغرض التنقيب عن البترول والتي كانت تضم (واحداً وأربعين فرداً منهم اثنا عشر عاملاً جزائرياً ترافقهم فرقة أجنبية) فباغتها المجاهدون بهجومين متفرقين الأول قاده "علي حناني" والآخر قاده "سليمان بن عبد الله"<sup>3</sup>، مما أدى إلى مقتل خمسة عناصر من كتيبة الملازم "بلاني" "Palanet" واستسلم عشرة من العاملين في شركة بترول الجزائر قتل منهم سبعة،

1 - دحمان تواتي وآخرون: المرجع السابق، ص 45.

2 - المرجع نفسه، ص ص (52، 54).

3 - السجل الذهبي لشهداء المقاومة الشعبية والثورة التحريرية الكبرى لولاية ادرار، المرجع

السابق، ص 29.

وتم حرق ستة سيارات تابعة للشركة البترولية وإتلاف عتادها وغنم المجاهدون الذخيرة والأسلحة وعتاد ومؤن الشركة.

ولقد احدث هذا الكمين صدى إعلاميا في الجرائد الاستعمارية التي وصفت الحدث بعناوين مثل: البترول مههدد، الجنون عند الشركات البترولية،...<sup>1</sup>.

وبهذا شعرت فرنسا الاستعمارية بانتشار الثورة في الصحراء الجزائرية وتهديدها لمخططاتها السياسية والعسكرية وضررها لمصالحها الاقتصادية لذا منح الجنرال "راؤول سالان" القائد العام للقوات الاستعمارية بالجزائر الحرية المطلقة للعقيد "بيجار" للقضاء على المهارية بعد أن عجز النقيب "صوايي" في القبض عليهم فوصل "بيجار" مطار تيميمون في 13 نوفمبر 1957م مع قيادة الفيلق الثالث مظلي وأصبح له في منطقة تيميمون 1570 جندي موزعين حول المدينة وكلف ضباطه أمثال النقيب "بيتو" "pétot" والملازم الأول "دوسور" والنقيب "دولينو" بعدة عمليات للكشف عن التنظيم السياسي للثورة بالمدينة<sup>2</sup>، وتتبع المهاري الفارين فعاثوا فسادا في منطقة تيميمون وهتكوا الحرمات، وشنو حملة اعتقالات وتعذيب؛ وفي يوم 20 نوفمبر قامت القوات الفرنسية المشتركة بقتل نحو ستة وتسعين مواطناً من سكان تيميمون وواقروت ودمرت أكثر من سبعمائة نخلة - مصدر رزق السكان- وهدمت البيوت<sup>3</sup>.

**3- معركة حاسي غنبو 21 نوفمبر 1957م:** (أكثر من 80 كيلو متر شمال شرق تيميمون) حيث اتجه إلى هذا الحاسي أحد أفواج المجاهدين مع "أحمد الهاشمي" و"فضيل بن شراير" (1927-1957م) الذين كانوا متواجدين في

---

1 - هزيمة بيجار في ارض الأحرار ، تر : احمد عبد العزيز ، (د،ط) ، مؤسسة الشروق للنشر والإعلام ، د،ت ، ص 16.

2 - هزيمة بيجار في ارض الأحرار، المصدر السابق، ص ص (21، 23، 25).

3 - دحمان تواتي وآخرون : المرجع السابق، ص ص (60 - 61 - 62).

"تاسلغة" فتحررت نحوهم الفرقة الثالثة من تملكوزة يوم 21 نوفمبر بواسطة الطائرات المروحية، وقد أبدى المجاهدون مقاومة كبيرة بشهادة العقيد "بيجار" نفسه<sup>1</sup>، حيث أصيب المظليون بأفدح الخسائر فقد أصيب النقيب الأول "سانتيك" "Sentenac" المتوج بالنصر في الهند الصينية بجروح بليغة، كما سقط الملازم الأول "روهر" "Rohor" مما جعل "بيجار" يبعث الفرقة الرابعة من تيميمون فوصلت جواً إلى "حاسي غنبو"، أين احتدم القتال حتى غروب الشمس وكانت نتيجة المعركة خسائر فادحة في الجيش الفرنسي، وفقد المجاهدون اثنين وثلاثين جندياً من بينهم "أحمد الهاشمي" المحافظ السياسي واصر عشرة منهم تم إعدامهم (الخصيلة اثنان وأربعون شهيداً) من بينهم "بن شراير فضيل" مسؤول القسم، ومساعدته "لتييم الشيخ" (1915-1957م) وثلاثة رؤساء أفواج، في حين أقام العقيد "بيجار" في حاسي بوخلالة (على بعد 120 كيلو متر شمال غرب تيميمون) شبه محاكمة سريعة تحت خيمة، وواصل استجواب وتعذيب المدنيين الذين جيء بهم من تيميمون ومن العرق القريب وتم قتل كل مدني مشتبته فيه<sup>2</sup>.

**4- معركة حاسي علي: 7 ديسمبر 1957م** (على بعد 100 كيلو متر غرب حاسي بوخلالة وأكثر من 132 كيلو متر غرب تيميمون): كان سببها اكتشاف مكان وحدة جيش التحرير مختبئة في كثيب رملي فاتجه "بيجار" مع قواته من "بوخلالة" إلى "حاسي علي" فأخذت طائرات الاحتلال (T6) في قصف (حاسي علي) فأصيب عدد من المجاهدين، وبعد توقف القتال في المساء كانت حصيلة المعركة استشهاد أربعة عشر مجاهداً واحتجاز اثنين منهم وتراجع إحدى عشر، في

1 - هزيمة بيجار في ارض الأحرار: المصدر السابق، ص 38.

2 - السجل الذهبي لشهداء المقاومة الشعبية والثورة التحريرية الكبرى لولاية ادرار، المرجع السابق، ص ص (33، 35).

حين توجه أعضاء جيش التحرير بقيادة "فرحات" (بلعيد احمد) والناجين من المعركة إلى منطقة الساورة<sup>1</sup>.

وبعد نهاية معارك "حاسي غنبو" و"حاسي علي" انقطع النظام عن مناطق العرق لمدة خمسة عشر شهراً وفي بداية سنة 1959م قررت قيادة المنطقة الثالثة من الولاية الخامسة إعادة إحياء الثورة بالعرق الكبير، وإنشاء الناحية الثالثة في مناطق العرق وتيميمون، وأناطت المهمة إلى "حناني علي" وعدد من المجاهدين وبهذا عمّ النظام الثوري مناطق العرق وتيميمون وأنشئت عدة لجان لجهة التحرير الوطني في تيميمون كلجنة زاوية الدباغ<sup>2</sup>، كما أقيمت منظمات مدنية على مستوى مناطق الاقليم ساعدت في خدمة المجاهدين كان يشرف عليها بعض العائلات والشخصيات التي عرفت بدعمها السري للثورة وخدمة المجاهدين من أهم مراكزها نذكر: مركز زاوية كنتة "الحاج صديق عبد القادر" - مركز ادغا "حمادي البركة" - مركز انزجير "الحاج عبد الرحمن" - مركز تمنطيط "عبد القادر ديدي" - مركز رقان "الحاج قدور لقصاصي" مركز أولف "مولاي عبد الرحمن سي الوافي"<sup>3</sup>.

ونتيجة لتسهيل عملية التموين واستمرار فتيل الثورة عرفت المنطقة عدة اشتباكات ما بين (1959-1962م) اثبت من خلالها سكان ولاية ادرار صمودهم ومساهماتهم في الحرب التحريرية ورفضهم للاستعمار الفرنسي الغاشم، وقع معظمها قرب البئر (الحاسي)- أين تتجمع نقط الماء- أقلقت هاجس الإدارة الفرنسية وألحقت خسائر بقواتها العسكرية أهمها: معركة قرن القصعة في 17 مارس 1959م شمال حاسي غنبو بقيادة "حناني علي" - اشتباك بلعروق

1 - السجل الذهبي لشهداء المقاومة الشعبية والثورة التحريرية الكبرى لولاية ادرار، المرجع نفسه، ص 37.

2 - دحمان تواتي وآخرون: المرجع السابق، ص ص (78-79).

3 - دحمان تواتي وآخرون، المرجع نفسه، ص 87.

مارس 1960م - معركة حاسي زيرارة جوان 1960م شرق القصعة - معركة حاسي ثلجة الأولى 14 أكتوبر 1960م بقيادة "عيشاوي الشيخ" - اشتباك دماغ العبيد مارس 1961م<sup>1</sup>، وغيرها من المعارك التي اثبت المجاهدون من خلالها رفضهم للاستعمار الفرنسي.

وبعد إنشاء "جبهة مالي" في عام 1961م التي ضمت ممثلين عن قيادة هيئة الأركان العامة أمثال السادة: "عبد العزيز بوتفليقة"، "عبد الله بلهوشات"، "محمد الشريف مساعديه"، "دارية احمد"، "عيساني شويشي"، و"بشير نور الدين" عملت على تجنيد وتموين المنطقة وغيرها من مناطق الصحراء الحدودية بالأسلحة والمعدات انطلاقاً من النيجر فأقاموا معسكراً لهم في "غاو" بمالي التي تبعد حوالي 600 كيلو متر عن الحدود الجزائرية<sup>2</sup> وكان هذا عقب تطويق الثورة شرقاً وغرباً بخطي "شال وموريس".

وعلى الرغم من تواجد فرنسا في النيجر ومالي والجزائر إلا أن هذه البعثة استطاعت أن تثبت أقدام جيش التحرير في الصحراء الجزائرية - بما فيها اقليم توات- بما جندته من الشباب المتطوعين وبما أنشأته من مراكز للتدريب والتموين والاتصالات في شمال مالي والنيجر بالقرب من الحدود الجزائرية مثل: مركز القيادة "بقاو" ومركز "كيدال" (على بعد 480 كيلو متر من قاو) ومركز "تاسليت" (على بعد 35 كيلو متر من برج باجي مختار) ومركز "تمبكتو"... الخ<sup>3</sup>.

---

1 - السجل الذهبي لشهداء المقاومة الشعبية والثورة التحريرية الكبرى لولاية ادرار، المرجع السابق، ص 39.

2 - عبد السلام بوشارب: المرجع السابق، ص ص (132-133).

3 - دهمان تواتي وآخرون: المرجع السابق، ص ص (84-85).

فكلها لعبت دوراً كبيراً في نشر وتعميم الثورة في إقليم توات وتمنراست، كما ساهم فتح هذه الجبهة من جهة أخرى على مواجهة المخططات الاستعمارية الرامية إلى فصل الصحراء عن الجزائر .

### ثالثاً- مكانة إقليم توات في مشروع فصل الصحراء عن الجزائر:

برزت أهمية الصحراء الجزائرية الاستراتيجية بعد اكتشاف الغاز الطبيعي في "جبل برغة" قرب مدينة عين صالح سنة 1954م مما جعل فرنسا تتمسك بفصل الصحراء عن الجزائر بما فيها إقليم توات، وربطها بباريس مباشرة خاصة بعدما تأكد لها ما تزخر به الصحراء من ثروات بترولية ومعدنية، فقد قدر احتياطي الصحراء الشرقية بأكثر من خمسمائة مليون طن وبناحية حاسي مسعود وادرار وعين صالح ما يزيد عن المليار من الأطنان<sup>1</sup>، مما هو كفيلا بسد احتياجات فرنسا من النفط وزيادة، لذا أعلن الجنرال "ديغول" رئيس فرنسا آنذاك في خطاب تقرير المصير في 16 سبتمبر 1959م "أن فرنسا ستحتفظ بالإشراف على الصحراء إذا فضل الجزائريون الانفصال"<sup>2</sup>. كما عبر الكثير من الساسة الفرنسيين عن تمسكهم بالصحراء الجزائرية اذا ما استحال عليهم حل القضية الجزائرية.

ونظرا لموقع اقليم توات الاستراتيجي اذ يقع في اقصى جنوب غرب الجزائر وتربعه على مساحة معتبرة من التراب الوطني اعطته فرنسا عناية خاصة ليكون حقلا لتجارها النووية عندما وقع اختيارها على منطقة رقان التي تبعد عن مدينة ادرار بمائة كيلومتر كموقع مناسب لتجسيد مشروعها النووي في وقت أصبح فيه عنصر القوة متوقف على امتلاك السلاح الاستراتيجي(النووي) الذي عرفته العلاقات الدولية من خلال توازن الرعب الواقع بين العملاقين الأمريكي والسوفيتي، لذا شرعت في تنفيذ مشاريعها النووية حتى لا تقصى إلى الأبد من

1 - عبد السلام بوشارب : المرجع السابق، ص 140 .

2 - عبد السلام بوشارب، المرجع نفسه، ص ص (141-142).

نادي الأقوياء ولإظهار عظمة وقوة الدولة الفرنسية وجيشها المنهزم عسكرياً في أوروبا وفي الهند الصينية والجزائر<sup>1</sup> وبهذا أقامت فرنسا قاعدة نووية بالإقليم هي: **قاعدة رقان** حيث اختارت منطقة (الحمودية) التي تبعد عن رقان بـ 65 كيلو متر كقاعدة أساسية لمراقبة التجارب النووية عام 1957م أوكلت مهمة بناء منشآتها الرئيسية إلى الفرقة الثانية التابعة للجيش الفرنسي وكانت تضم 10 آلاف عامل من بينهم 3500 جزائري جيء بمعظمهم من مراكز الاعتقال أو من المناطق السكنية القريبة حيث شغلوا في أعمال السخرة، وسميت هذه القاعدة "بالمركز الصحراوي للتجارب النووية العسكرية" "centre saharien des "GSEN" (Le Essais Nucléaires) وقسمتها إلى قسمين المصالح التقنية والإدارية والمطار العسكري برقان<sup>2</sup>.

وبعد أن أتمت فرنسا صنع أول قنبلة نووية لها في مختبرات ومصانع برويار لوشاتل "Berruyers le chatel" نقلت إلى قاعدة رقان لتفجيرها وتم ذلك في منطقة "الحمودية" يوم 13 فبراير 1960م وحملت هذه القنبلة اسم اليربوع الأزرق "Gerboise Bleue"<sup>3</sup> تم تفجيرها بحضور ضباط عسكريين ورجال سامين في الحكومة الفرنسية يتقدمهم وزير الدفاع الفرنسي انذاك "بيار مسمر"

1 - محمد الأمين بلغيث : تاريخ الجزائر المعاصر دراسات ووثائق ، (ط3) ، دار مدني للطباعة والنشر والتوزيع ، الجزائر : 2009 ، ص 242.

2 - دحمان تواتي وآخرون : المرجع السابق ، ص 107

3 - اليربوع الأزرق : هو حيوان يعيش في الصحراء والألوان الثلاثة (أزرق، احمر، ابيض) التي سمت فرنسا القنابل التي فجرتها برقان ترمز إلى علم فرنسا ينظر، عمار منصوري: (الطاقة النووية بين المخاطر والاستعمالات السلمية) ، التجارب النووية الفرنسية في الجزائر دراسة وبحوث وشهادات : المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954 ، (د،ط) ، دار هومة ، الجزائر : 2010 ، ص 42.

(pierre messmer) في ظل تعتيم إعلامي غربي وفرنسي كامل حول الظروف وسير التجربة وأخطارها على الانسان والحيوان.

ولقد بارك الجنرال "ديغول" من باريس الحدث الذي اعتبره انجازاً كبيراً لفرنسا يضمن لها الأمن ويفتح لها المزيد من التقدم العسكري النووي، ويفك عقدة النقص التي لازمتها إلى غاية تلك اللحظة، غير مراعيًا تأثيراتها على الإنسان والحيوان، إذ كانت طاقتها التفجيرية تساوي (70 كيلو طن) أي أكثر بثلاث مرات من قنبلة "هيروشيما" (Hiroshima) اليابانية<sup>1</sup> قامت خلالها بإحضار عينات من مختلف الحيوانات من الجمال والدواب والماعز والكلاب والأرانب والقطة وستمائة فأر مخابر، وبعض الزواحف والحشرات والطيور والنباتات والماء والأغذية، ولم تكتف بهذا الصنف من العينات فحسب بل فقدت إنسانيتها فاستعملت مائة وخمسين سجيناً والنساء الحوامل والصبيان والشيوخ - كفئران تجربة- واستعملت كذلك أجهزة خاصة لدراسة مفعول التفجير النووي والإشعاعات الناتجة عنه على الكائنات الحية والنباتات<sup>2</sup>.

وعلى الرغم من الآثار السلبية للتفجير والتي لا تُحْفَى على فرنسا ومعارضة الرأي العام العالمي إلا ان فرنسا واصلت تجاربها في المنطقة حيث تلت التجربة الأولى تجارب أخرى في المنطقة وكذلك في منطقة الهقار فكانت التجربة الثانية في رقان يوم 1 ابريل 1960م تحت اسم اليربوع الأبيض " Gerboise Blanche" والثالثة في 27 ديسمبر 1960م تحت اسم اليربوع الاحمر "Gerboise rouge"، اما التجربة الرابعة فتمت على عجل يوم 25 افريل 1961م تحت اسم اليربوع الاخضر "Gerboise Verte" استعمل فيها 195

1 - دحمان تواتي وآخرون: المرجع السابق، ص (108، 110).

2- عمار منصور: (الطاقة النووية بين المخاطر والاستعمالات السلمية)، المرجع السابق، ص

جندي فرنسي في سرية تامة وبدون علمهم كحيوانات مخابر من طرف المتطفلين على الذرة. وبالجملة فان الطاقة التفجيرية الاجمالية للتجارب النووية الفرنسية بموقع رقان قدرت بـ 130 كيلوطن<sup>1</sup>.

ونظرا لأهمية رقان بالنسبة لفرنسا (كموقع للتجارب النووية) خاصة والصحراء بصفة عامة سعت سياسية "ديغول" إبان المفاوضات على الاحتفاظ بالصحراء الجزائرية مهما كلف الأمر، وهو ما سبب في عشر المفاوضات الجزائرية الفرنسية قبل "ايفيان 1962م" حيث أعرب "ديغول" عن ذلك في مذكراته عند ما قال: «... ولكي نحافظ على أوضاع آبار البترول الذي استخرجناه وقواعد تجارب قنابلنا وصواريخنا فبوسعنا أن نبقي في الصحراء مهما حصل، ولو اقتضى الأمر أن نعلن استقلال هذا الفرع الشاسع»<sup>2</sup> فكلف مستشاره "اوليفيه قيشار" "Olivier Guichard" بملف الصحراء فزارها هذا الأخير والتقى بعدة شخصيات جزائرية صحراوية التي كان لها نفوذ في الأوساط الشعبية لأخذ رأيها في شأن استقلال الصحراء في إطار جمهورية مستقلة.

كما كلفت السلطات الاستعمارية "حمزة بوبكر"<sup>3</sup>، وغيره من الشخصيات الفرنسية السياسية والعسكرية بالحصول على تأييد الشخصيات المحلية حول مشاريعها في فصل الصحراء، وإقامة الجمهورية الصحراوية التي تضم ولايتي

---

1 - عمار منصوري: المرجع نفسه، ص ص (42-43).

2 - الهادي درواز : الولاية السادسة التاريخية تنظيم ووقائع (1954-1962)، (د،ط)، دار هومة الجزائر: 2009م، ص132.

3 - حمزة بوبكر : نائب الواحات شخصية علمية ودينية كبيرة كان مواليا للسياسة الاستعمارية حول مشاريعها في فصل الصحراء وضع نفسه في خدمة المصالح الاستعمارية منذ 1959 استعمل العنف والاستعانة بالبوليس لإرغام الأعيان للوقوف معه في مشروع فرنسا الاستعماري الذي وعدته بان يكون رئيسه، ينظر محمد الأمين بلغيث : المرجع السابق ، ص 224.

الواحات والساورة وعلى الرغم من فشل "قيشار" في مسعاه هذا بقيت فرنسا بمنطقة رقان الى غاية 1967م في إطار اتفاقية ايفيان.

### رابعاً/ اهداف فرنسا من فصل الاقليم عن الجزائر:

من خلال توضيحنا لمكانة اقليم توات في مشروع فصل الصحراء عن الجزائر يمكن استنتاج اهم الاهداف التي كانت فرنسا الاستعمارية تسعى الى تحقيقها من خلال حرصها البالغ على الاحتفاظ بالإقليم بصفة خاصة والصحراء الجزائرية بصفة عامة ويمكن تصنيفها كالتالي:

1- العسكرية: 1- تحويل الاقليم الى حقل للتجارب النووية في وقت اصبح فيه عنصر القوة يعتمد اساسا على انتاج افنك الاسلحة دمارا وبالتالي التأثير على الكفاح الجزائري، ففرنسا اختارت اقليم توات لتفجير القنبلة الذرية وما سيتلوها من تفجيرات أخرى، ومقصودها الأول من ذلك هو التأثير المباشر على الكفاح الجزائري وعلى الثورة الجزائرية<sup>1</sup> التي حققت الى غاية ذلك التاريخ انتصارات كبيرة سواء على الصعيد الداخلي او على الصعيد الخارجي.

2- رفع معنويات جيشها المنحطة اثر انهزاماته المتكررة في الفيتنام وفي الجزائر، وكذا الرفع من معنويات شعبها الذي هزته انتصارات الثورة ودبلوماسيتها الخارجية فكان على ديغول مواجهة العسكريين الذين ارادوا ان يزيحوه من الحكم، كما كان عليه ان يواجه الرأي العام العالمي الذي كان يرى انه انتهج سياسة متناقضة ازاء القضية الجزائرية اذ انه من غير المعقول ان يتفاوض مع

---

1 - أحمد توفيق المدني: حياة كفاف، (ج3)، د، ط، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، 1982، ص ص (503-504).

الجزائريين ويحاربهم في آن واحد<sup>1</sup>. فوجد في الصحراء الجزائرية وبالأخص إقليم توات خير قاعدة لترسانة فرنسا النووية نظرا لعزلتها.

3- محاولة ربط مستعمراتها الافريقية ما وراء الصحراء الكبرى ببعضها البعض، فالإقليم كان مطلا وبشكل مباشر على مالي وموريتانيا.

ب- الهدف السياسي: محاولة الضغط على المفاوضات الجزائرية وإقناع العالم بـ"فرنسة الصحراء" بما فيها إقليم توات.

ج- الهدف الاقتصادي/ استغلال ثروات الاقليم مستقبلا بعدما تبين لها اثر عمليات البحث والتنقيب توفره على مخزون هام من الغاز الطبيعي.

### خامسا/ ردود الفعل المحلية من مشروع التقسيم (1960-1962).

نظرا لأهمية رقان بالنسبة لفرنسا (كموقع للتجارب النووية) خاصة، والصحراء بصفة عامة سعت سياسية "ديغول" إبان المفاوضات إلى فصل الصحراء عن الجزائر، وهو ما سبب في تعثر المفاوضات الجزائرية الفرنسية قبل "ايفيان 1962م" ومن اجل تحقيق ذلك قامت فرنسا بإنشاء شبكات الدعاية والجوسسة والحرب النفسية ضد سكان الصحراء في اطار مشروع فصل الصحراء عن الشمال فكان ان كلف "ديغول" مستشاره "اوليفيه قيشار" "Olivier" "Guichard" بملف الصحراء فزارها هذا الأخير والتقى بعدة شخصيات جزائرية صحراوية التي كان لها نفوذ في الأوساط الشعبية لأخذ رأيها في شأن استقلال الصحراء في إطار جمهورية مستقلة .

---

1 - مصلحة الدراسات في المركز: التفجيرات النووية الفرنسية في الجزائر وآثارها الباقية، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة اول نوفمبر 1954 سلسلة الندوات، التجارب النووية الفرنسية في الجزائر، دراسات وبحوث وشهادات، الجزائر، دارهومة، د، ط ، ص16.

كما كلفت السلطات الاستعمارية "حمزة بوبكر"، وغيره من الشخصيات الفرنسية السياسية والعسكرية بالحصول على تأييد الشخصيات المحلية حول مشاريعها في فصل الصحراء، وإقامة الجمهورية الصحراوية التي تضم ولايتي الواحات والساورة، إلا أن محاولاته باءت بالفشل لتفطن بعض أعيان الصحراء بمغريات ونوايا فرنسا.

فقد رفض "الشيخ بيوض" (1899-1981م) المشروع من أساسه كما رفض اقتراح "اوليفيه قيسار" في تكوين مملكة ميزابية سنة 1960م عندما أجابه قائلاً: « أن منطقة ميزاب جزء لا يتجزأ من التراب الجزائري »<sup>1</sup>، كما فشل من جهته "ميشال دوبري" في إقناع توارق تمنراست سنة 1960م بالانفصال حيث عرض على "الباي الحاج اخموخ" (ت1975م) تنصيبه سلطاناً على كل التوراق في دولة إسلامية تضم كل الجنوب الجزائري فرفض بقوله: « أنا جزائري ينالني ما ينال باقي الجزائريين »<sup>2</sup>.

ومن أعيان إقليم توات الذين حاولت فرنسا إقناعهم بفكرة الانفصال وإغرائهم بالسلطة الشيخ "أحمد الطاهري" حيث كلفت سلطات الاحتلال بهذه المهمة "محمد محمود بن الشيخ" قاضي تمبكتو صاحب أزواد الذي كان ينتقل ما بين السنغال ومالي والجزائر وفرنسا لاستمالة الزعماء المحليين فتبعه الكثير من أهل تمبكتو وأزود والطوارق الذين وقعوا له وثيقة انفصال الصحراء عن الجزائر والمغرب الأقصى ومالي، وعندما وصل توات اتجه إلى الشيخ "الطاهري" لما له من نفوذ وكلمة في المنطقة فقدم عليه هو وحاكم رقان وعرضاً عليه خطة فصل الصحراء عن الجزائر وطلباً منه الانضمام لهما لإقناع أهل الحل والعقد في توات، إلا أن الشيخ "الطاهري" اعتذر له لما أدرك من خطورة ذلك، وبعد زجره اضطر إلى

1 - محمد الأمين بلغيث : المرجع السابق ، ص 224 .

2 - الهادي درواز: المرجع السابق، ص 133 .

الذهب رفقتهم إلا انه كان يُعرف بالخطة في الظاهر وفي حضرتهم وفي الباطن وغيابهم كان يحذر الناس من "محمد محمود" جاسوس فرنسا؛ ولما أدرك الفرنسيون ما كان يقوم به شنوا حملة تفتيش على داره ومدرسته وكتبه ومسكن طلبته فلما اكتشفوا صلته بالثورة والجبهة والجنود المجاهدين الذين كان يجمع لهم المال القوا عليه القبض وأخذوه إلى مركز رقان أين تلقى أنواع الإهانة من الحاكم الفرنسي، وكان الشيخ "الطاهري" يتأهب في تلك الأيام إلى الذهاب إلى الحج فذهب فرارا من بطشهم وإهانتهم<sup>2</sup>.

وبهذا استطاع "الطاهري" أن يُخلص نفسه من مؤامرة لا تحمد عقبها بعد أن أشار على سكان توات خطورة التقسيم على مستقبل الجزائر، والصحراء إذا كان في صالح الاستعمار.

ولم تكتف فرنسا باستمالة العناصر المحلية ذات النفوذ فحسب، بل حاولت جعل مشكل الصحراء مشكلاً دولياً حيث اعتبرت بحراً داخلياً مشتركاً بين العديد من الشعوب الساحلية، والجزائر واحدة من تلك الشعوب وعليه لا يمكن الفصل في هذا الملف إلا بالعودة إلى استشارة جميع الدول المعنية والمطلة عليه حسب رأي "جورج بومبيدو"<sup>3</sup> رئيس الوفد الفرنسي في رده على سؤال السيد "الطيب بلحروف" عن عدم عرضهم للصحراء في لقاء "لوسارن" بسويسرا .

ومن جهتها قامت "الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية" بالتصدي للمناورات الفرنسية فكثفت اتصالاتها على المستوى الدبلوماسي لشرح المسألة ووجهت رسائل تحذيرية للشركات البترولية، وسجلت حضورها في المؤتمر

1 - احمد الطاهري: نسيم النفحات من أخبار توات ومن بها من الصالحين والعلماء الثقات، تحقيق وتعليق: عبد الله الطاهري، (د،ط)، د،ن: 2010م. ص (54-55).

2 - المصدر نفسه، ص ص (55-56-57).

3 - عبد القادر خليفي: المرجع السابق، ص 236.

العالمي للبترول لتؤكد للعالم أن الصحراء منطقة جزائرية محتلة<sup>1</sup>، وبذلت مساعي لكسب الأفرقة إلى جانبها من خلال تكثيفها لزيارة الدول الإفريقية جنوبي الصحراء التي سجلت تجاوباً مع القضية، حيث أعلن الرئيس المالي انذاك "موديبو كيتا" في 22 أوت 1961م «أن مالي تقف ضد مختلف المشاريع المشبوهة المرتبطة بالصحراء» كما أدلى الرئيس السنغالي "سنغور" منتصف يوليو 1961م بتصريح أكد فيه أن حدود البلد المستعمر هي حدوده بعد الاستقلال<sup>2</sup> كما ساندتها في ذلك دول غينيا وإثيوبيا وغانا وأوغندا خاصة عندما قامت فرنسا بالتفجيرات النووية في الصحراء الجزائرية .

وعلى المستوى الداخلي أعلنت "الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية" أن يوم 5 جويلية 1961م يوماً وطنياً ضد سياسة التقسيم، وأعلنت الإضراب العام والشامل الذي كان ناجحاً عبر كامل التراب الوطني باعتراف الصحافة الفرنسية والدولية<sup>3</sup>، أما على المستوى الدولي وقف الوطن العربي مع الجزائر دفاعاً عن وحدتها الوطنية والترايبية .

وأمام هذه الضغوطات الداخلية والخارجية لم يكن من "ديغول" إلا الاستسلام للأمر الواقع حيث صرح في 5 سبتمبر 1961م بان الصحراء جزء لا يتجزأ من التراب الجزائري، وانه ليس لفرنسا عليها أي سيطرة مع الاحتفاظ بمصالح فرنسا فيها كحرية استغلال المحروقات واستعمال المطارات، وبهذا أزال "ديغول" الحاجز الكبير الذي كان يعترض سير المفاوضات على حد تعبير الأستاذ "عبد القادر خليفي"<sup>4</sup>، حيث طالبت فرنسا في اتفاقيات "إيفيان الأخيرة مارس

1 - دهمان تواتي وآخرون: المرجع السابق، ص 117.

2 - محمد عباس: نصر بلا ثمن، الثورة الجزائرية (1954-1962)، (د،ط)، دار القصة للنشر، الجزائر: 2009، ص 768.

3 - الهادي درواز: المرجع السابق، ص 136.

4 - عبد القادر خليفي: المرجع السابق، ص 243.

1962م " أن توضع تحت تصرفها مطارات وقواعد بشار ورقان لمدة خمس سنوات على أن لا تستخدم لأغراض هجومية<sup>1</sup>.

وعلى كل فانه على الرغم من أن قضية الصحراء أطالت من عمر المفاوضات الجزائرية - الفرنسية، بل ومن عمر الثورة التحريرية إلا أن الجبهة استطاعت أن تحصل على تنازلات اكبر من فرنسا باسترجاعها للسيادة الوطنية وتحقيق الوحدة الترابية، أما فيما يتعلق ببقاء فرنسا في القواعد العسكرية فقد تم الجلاء منها بعد الاستقلال في إطار سياسية التأميم واسترجاع الثروات والشركات الوطنية.

### الخلاصة:

من خلال عرضنا لمكانة إقليم توات في مشروع فصل الصحراء عن الجزائر خلصنا الى جملة من الاستنتاجات اهمها:

1- إن الموقع الجغرافي الاستراتيجي لإقليم توات كان سببا في حرص فرنسا الزائد عليه واختياره موقعا لتجارها النووية خلال الثورة التحريرية لإظهار عظمة فرنسا المنهزمة في الحرب العالمية الثانية وفي الهند الصينية من جهة وللتأثير على المفاوضات الجزائري والثورة الجزائرية من جهة اخرى.

2- ساهم سكان إقليم توات الى جانب اخوانهم في شمال الجزائر في الثورة التحريرية التي احتضنها وعبروا من خلالها عن رفضهم للاحتلال الغاشم بشنهم لمعارك العرق الكبير (كانتفاضة حاسي صاكة اكتوبر 1957م ومعركتي حاسي تاسلغة وحاسي غنبو نوفمبر 1957م) التي كبدوا فيها قوات العقيد "بيجار" خسائر فادحة فضربوا بهذا مثالا للشجاعة والتضحية في سبيل حرية

الوطن مما جعل فرنسا تصب جام غضبها عليهم بتحويل المنطقة إلى حقل للتجارب النووية .

3- ان اهم الخطوات التي اتخذتها فرنسا لتحقيق مشروع فصل الصحراء عن الجزائر بما فيها اقليم توات هي اغراء الشخصيات والزعامات المحلية في المنطقة بالمناصب والألقاب كما فعلت مع الشيخ " احمد الطاهري " إلا أن محاولاتها باءت بالفشل بعدما تأكد لهذه الشخصيات سوء نوايا فرنسا الاستعمارية من تقسيم التراب الجزائري.

4- ساهم موقف الشيخ " الطاهري " وغيره من الزعامات المحلية الوطنية المخلصة التي رفضت مشروع فصل الصحراء عن الجزائر في تمهيد الطريق للمفاوض الجزائري لدخول مفاوضات إيفيان من موقع قوة اذ توجت بمنح الجزائر استقلالها مع الاعتراف بوحدتها الترابية فكان هذا اكبر مكسب حققه المفاوض الجزائري في معركته السياسية مع المفاوض الفرنسي.

---

## الملاحق.

خريطة إدارية للجزائر تين موقع وحدود ولاية ادرار



صورة الشيخ أحمد الطاهري الادريسي



صورة للقاعدة العسكرية بركان (منطقة الحمودية)



### قائمة المصادر والمراجع المعتمدة:

- 1- بلعالم (محمد باي): الرحلة العلية إلى منطقة توات لذكر بعض الأعلام والآثار والمخطوطات والعادات وما يربط توات من الجهات، (ج1)، (د،ط)، دار هومة، الجزائر: 2005 م.
- 2- سعيدان (التومي): سكان تيدكلت القدامى والاتكال على النفس، (ط1)، دار هومة، الجزائر: 2005 م.
- 3- المدني (احمد توفيق): حياة كفاح، (ج3)، مع ركب الثورة التحريرية، د،ط، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1982، ص ص (503-504).
- 4- الطاهري (احمد): نسيم النفحات من أخبار توات ومن بها من الصالحين والعلماء الثقات، تحقيق وتعليق: عبد الله الطاهري، (د،ط)، دن، د،م،ن: 2010م.
- 5- هزيمة بيجار في ارض الأحرار، تر: احمد عبد العزيز، (د،ط)، مؤسسة الشروق للنشر والإعلام، د،ت.
- 6- الوزان الفاسي (الحسن بن محمد) المعروف بليون الإفريقي: وصف إفريقيا، ترجمة: محمد حجي، محمد الأخضر، (ج2)، (ط2)، دار الغرب الإسلامي، بيروت: 1983م.
- 7- بلغيث (محمد الامين): تاريخ الجزائر المعاصر دراسات ووثائق، (ط3)، دار مدني للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2009.
- 8- بوشارب (عبد السلام): الهقار أمجاد وانجاد، (د،ط)، المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار، روية: 1995م.
- 9- تواتي (دحمان وآخرون): الثورة الجزائرية في أقاليم توات (1956-1962)، (د،ط)، منشورات مولاي سليمان بن علي لحماية مآثر الثورة التحريرية، د،ت.
- 10- جعفري (مبارك): العلاقات الثقافية بين توات والسودان الغربي خلال القرن 12هـ، (ط1)، دار السبيل للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009.
- 11- خليفي (عبد القادر): محطات من تاريخ الجزائر المجاهدة (1830-1962)، (د،ط)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر: 2010م.

- 12- درواز (الهادي): الولاية السادسة التاريخية تنظيم ووقائع (1954-1962)، (د،ط)، دار هومة الجزائر: 2009م.
- 13- السجل الذهبي لشهداء المقاومة الشعبية والثورة التحريرية الكبرى لولاية ادرار، (د،ط)، جمعية سليمان بن علي لحماية مآثر الثورة التحريرية، أدرار: د،ت.
- 14- الشكري(احمد): الإسلام والمجتمع السوداني إمبراطورية مالي (1230-1430م)، (ط1)، المجمع الثقافي، أبوظبي: 1999، ص 243.
- 15- شرفي (عاشور): معلمة الجزائر القاموس الموسوعي، تر:عبد الكريم اوزغلة وآخرون، (د،ط)، دار القصة للنشر، الجزائر: 2009 م.
- 16- عباس (محمد): نصر بلا ثمن، الثورة الجزائرية (1954-1962)، (د،ط)، دار القصة للنشر، الجزائر: 2009 م.
- 17- فرج (محمود فرج): إقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، (د،ط)، معهد العلوم الاجتماعية، الجزائر: 1977م.
- 18- مدن وثقافة، أدرار جوهرة الجنوب، دليل ثقافي، (د،ط)، المركز الوطني للمخطوط، دار الثقافة: د،ت.
- 19- عبد الله عباس: التأثيرات الحضارية لمنطقة توات في بلاد السودان الغربي، مذكرة السنة الأولى ماجستير إشراف: موسى لقبال، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، السنة الجامعية 1997-1998 م.
- 20- المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، (د،ط)، دار هومة، الجزائر: 2010م.
- 21- حوتية (محمد): توات والازواد خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر للهجرة (الثامن عشر والتاسع عشر للميلاد)، رسالة دكتوراه دولة في التاريخ الحديث المعاصر، إشراف: ناصر الدين سعيدوني، جامعة وهران، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم التاريخ، 2004/2003م.



## جوانب من تأثيرات سياسة التوسع العسكري الفرنسي في صحراء الجزائر التفجيرات النووية جريمة ضد البشرية

الدكتور علي العبيدي

جامعة تلمسان

على الرغم من جميع من أرخ للحقبة الاستعمارية في الجزائر يتفقون من أن فرنسا، منذ لحظة نزول قواتها ارض الجزائر في عام 1830<sup>(1)</sup>، وضعت نصب عينها الاستئثار بكافة مقدرات الجزائر على اختلافها، وهناك من الدلائل التي تؤكد أهمية الجزائر في الاستراتيجية الفرنسية آنذاك وحتى نهاية فترة الاحتلال. وتجلبت هذه الأهمية منذ اللحظة الأولى للاحتلال، حينما خاطب الجنرال كلوزيل جنوده، عند مغادرته مدينة البليدة نحو المدينة على رأس حملة عسكرية في نوفمبر 1830، قائلا: "إنكم ستقطعون أول سلسلة في جبال الأطلس، رافعين العلم المثلث في داخل افريقية، واضعين طريقا للحضارة والتجارة، والصناعة... إن كل أقطار العالم المتحضر تتابعكم"<sup>(2)</sup>. هذا التصريح يظهر أهمية الصحراء الجزائرية في الاستراتيجية الفرنسية منذ البداية، وليس مثلما يحاول البعض إظهار مسالة الاهتمام الفرنسي بالصحراء جاء في مراحل تالية.

---

1. للاطلاع على تفاصيل الحملة الفرنسية على الجزائر عام 1830. ينظر: أبو القاسم سعد الله، محاضرات في تاريخ الجزائر؛ جمال قنان، معركة اسطاوالي، مقال منشور في مجلة: مجلة الدراسات التاريخية، العدد 8، السنة 1994، الجزائر، ص 55-57.

2. M.P. Elausolles, *L'Algérie pittoresque ou histoire de la régence d'Alger depuis les temps les plus reculés jusqu'à nos jours*, imprimerie J-B-Paya, p 238 40.

على العموم، تناولت المصادر التاريخية الجزائرية منها والفرنسية الكيفية التي تطورت من خلالها المصالح الاستعمارية الفرنسية في الصحراء الجزائرية<sup>(1)</sup>، وهذا التطور هو الذي فرض تغيرا مستمرة على طبيعة سياستها تجاه المنطقة. فالغاية إذا ما كانت اقتصادية، وان استمرت حتى نهاية الاستعمار الفرنسي عام 1962، إلا أن صورها تنوعت ما بين أحكام السيطرة على طرق التجارة مع دول الصحراء مروراً باستثمار المقدرات الاقتصادية التي تكمن في الصحراء الجزائرية، وأخرها ما كانت تحتويه بطنها من ثروات طبيعة متنوعة. ولكن الاستغلال الأخطر، تمثل في إقدام السلطات الاستعمارية الفرنسية على جعل الصحراء موقعا لتفجيراتها النووية<sup>(2)</sup>،

1. من خلال تتبع موضوع تطور وتنامي المصالح الفرنسية في الصحراء الجزائرية، من انها تعاملت مع موضوع التفجيرات النووية بخط مواز مع فكرة انفصال الصحراء. لان القانون الفرنسي يمنع قيام تجارب نووية على الاراضي الفرنسية. وهنا يتبلور التساؤل الآتي: ماهي الأرضية التي استندت عليها السلطات الفرنسية في تنفيذ التفجيرات النووية في الصحراء الجزائرية، وهي وفق القانون الفرنسي جزءا من الأراضي الفرنسية. وهنا يظهر خبث التوجه الفرنسي في تكريس مفهوم أن الصحراء ليس جزائرية، وان خسرت فرنسا الجزائر فإنها سوف تحتفظ بالصحراء، من منطلق الحد الأدنى للخسارة. فالمسألة من هنا لم تكن جريمة ضد الإنسانية، وهو لا يمكن نكرانه، وإنما كان لعبة سياسية أرادت من خلالها فرنسا تأكيد مخططاتها في الاستيلاء على الصحراء الجزائرية، وهي التي كانت تزدهق الروح أمام ضربات مجاهدي الجزائر.

2. يجمع العديد من الباحثين على أن القرار الفرنسي بامتلاك وإنتاج السلاح النووي يحمل عدة دلائل وأبعاد استراتيجية وسياسية. وارتبط هذا القرار بالتغيرات الدولية والإقليمية التي أجبرتها على تدعيم القرارات العسكرية لحلف الشمال الأطلسي بحكم طبيعة الأخطار الأمنية التي كانت دول غرب أوروبا تواجهها منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، إذ تبلورت القناعة لدى الفرنسيين على أهمية المضي قدما في المشروع النووي الفرنسي لأغراض عسكرية نتيجة الاختلال بالتوازنات بين قطبي الحرب الباردة (الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي)، وفي مقدمتها الأزمة التي عرفت بـ(فجوة الصواريخ)، وهي الأزمة التي سجلت خلالها في ترسانة الصواريخ الأمريكية بالمقارنة بالترسانة السوفيتية. فضلا عن رغبة فرنسا في استقلالية القرار

وما رافق ذلك من آثار سلبية على المجتمع والبيئة هناك، وما خلفه من جرائم بحق الشعب الجزائري عبر تلوين الأرض وقتل العباد.

وهكذا، نجد أن السلطات الاستعمارية الفرنسية قد انتهكت حرمة الأرض والإنسان، واتبعت سياسة التعتيم والسرية بقصد إخفاء الآثار الحقيقية التي خلفتها التفجيرات النووية في الصحراء الجزائرية. وعلى مدى سنوات طويلة واصلت السلطات الاستعمارية تجاربها النووية من دون رادع أو خوف، وهي التي تجاوزت حدود المعقول بتفجيرها سلسلة كبيرة من التجارب النووية بقدرات تفجيرية مختلفة.

### أولاً: التفجيرات النووية:

أقدمت السلطات الفرنسية خلال الفترة المحصورة ما بين (1960-1962) على تنفيذ عدد من التفجيرات النووية في الصحراء الجزائرية من دون اتخاذ الإجراءات الاحتياطية اللازمة للحيلولة دون إلحاق الضرر بالسكان والممتلكات، وهو ما متبع دولياً. وإذ أقدمت فرنسا على فعلها هذا، بالرغم من الانتقادات الدولية الموجهة لها بهذا الخصوص، وادعت بأنها (تجارب) في مناطق بعيدة وخالية من السكان وعناصر الحياة<sup>(1)</sup>.

### - التفجيرات النووية في ركان:

وقع اختيار السلطات الاستعمارية الفرنسية في جوان 1957 على منطقة ركان لكي تكون مكاناً لإجراء التفجيرات القنبلة النووية الفرنسية. وانطلقت أشغال

---

النووي الفرنسي عن الهيمنة الأمريكية. للتفاصيل عن نشأة وتطور المشروع النووي الفرنسي، ينظر: عمار جفال وآخرون، استعمال الأسلحة المحرمة دولياً طيلة العهد الاستعماري الفرنسي في الجزائر... الأسلحة النووية نموذجاً، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، 2007، ص 29-48.

1. عمار جفال وآخرون، المرجع السابق، ص 52.

التهيئة في سنة 1958، وفي ظرف ثلاث سنوات تم إنشاء مدينة متكاملة في ركان يقطنها 6500 فرنسي و3500 جزائري، وهو مجموع العمال الذين كانوا يشتغلون ليل نهار لإنجاح عملية إجراء التفجير النووي في الآجال المحددة. وفي 13 فيفري 1960 وعند الساعة السابعة وأربع دقائق وفي منطقة حمودية<sup>(1)</sup>، التي تعتبر هي نقطة الصفر للتفجير<sup>(2)</sup>. والتفجير كان من نوع من عمليات التفجير النووية السطحية، وأطلق على هذه العملية اسم اليربوع<sup>(3)</sup> الأزرق (Gerboise Bleu)، وكانت قوتها تفوق قنبلة هيروشيميا بثلاثة أضعاف إذ بلغت 70 كيلو طن، وقد استعمل فيها مادتي اليورانيوم والبلوتونيوم<sup>(4)</sup>.

ويعتبر هذا التفجير خرقا من قبل فرنسا للميثاق الذي وقعته كل من: الاتحاد السوفيتي، الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا بخصوص منع التجارب النووية السطحية نظرا لخطورتها على البيئة والبشر، إلا أن فرنسا لم تأخذ ذلك الميثاق على محمل الجد، لأنها وشعبها كانوا بعيدين عن مكان التفجير، فضلا عن كونها تسعى للالتحاق بركب الدول النووية<sup>(5)</sup>.

عرفت منطقة ركان تفجيرات نووية سطحية أخرى، وهي: اليربوع الأبيض (Gerboise Blanche) في الأول من افريل 1960؛ واليربوع الأحمر (Gerboise Rouge) في يوم 27 ديسمبر 1960؛ واليربوع الأخضر

1. هي واحة صغيرة تبعد عن بلدية ركان حوالي 40 كم، وعن ادرار مسافة 150 كم.

2. Essai nucléaire Français en Algérie, in Internet : [www.El-annabi.com](http://www.El-annabi.com), consulté le 25 septembre 2010 à 23h 05mn.

3. اليربوع هو حيوان يعيش في الصحراء.

4. عمار منصوري، الطاقة النووية بين المخاطر والاستعمالات السلمية، بحث منشور في كتاب: التجارب النووية الفرنسية في الجزائر... دراسات وبحوث وشهادات، الجزائر، 2000، ط1، ص 45.

5. عمار جفال وآخرون، المرجع السابق، ص 128.

(Gerboise Verte) في يوم 25 افريل 1961، وكانت تقدر طاقة كل واحد من هذه التفجيرات بعشرة كيلو طن<sup>(1)</sup>. وأن اخطر ما حدث خلال هذه التفجيرات، أن السلطات الفرنسية تعاملت معها من بعدها السياسي، وتركت الجانب الأمني الوقائي من دون أي اهتمام، بمعنى آخر انه على الرغم من عدم شرعية القيام بتفجيرات النووية في الصحراء الجزائرية، إلا أننا نجد أن السلطات الفرنسية لم تتخذ الإجراءات الوقائية التي تكفل حماية سكان المنطقة من أي تهديد لحياتهم وممتلكاتهم؛ ولا سيما عملية اليربوع الأخضر التي جرت على جناح السرعة خوفا من وقوع القنبلة المستخدمة في يد الجنرالات الذين تمردوا على حكومة باريس في 23 أفريل 1961<sup>(2)</sup>. فقد صدرت التعليمات بإجراء التفجير قبل استكمال الإجراءات الوقائية اللازمة. ونتيجة ذلك، تعرض أكثر من 195 عسكري فرنسي ممن كانوا موجودين أثناء التفجير لإصابات بالأشعة النووية، توفي منهم 12 منهم، وانتشر الإشعاع النووي في محيط منطقة رقان. ومن الطبيعي، أن الخسائر البشرية لم تقتصر على الفرنسيين وحدهم، وإنما تعرض سكان المنطقة للآثار السلبية التي خلفها التفجير<sup>(3)</sup>.

1. عبد الكاظم العبودي، التجارب النووية الفرنسية ومخاطر التلوث الإشعاعي على الصحة والبيئة في المدى القريب والبعيد، بحث منشور في كتاب: التجارب النووية الفرنسية في الجزائر... دراسات وبحوث وشهادات، ص 86.
2. وهو الانقلاب الذي قام به جنرالات الجيش الفرنسي في الجزائر، وهم كل من: صالان، زيلار، جوهر ووشال في 23 افريل 1961، هدف إجبار ديغول على تغير سياسته فيما يخص الجزائر، الا ان الانقلاب لم يحقق أهدافه المرجوة، نتيجة عدم تأييد القوات الفرنسية الموجودة في الجزائر لقادة الانقلاب، مما أجبرهم على الاختفاء ليتهي بعد أربعة أيام من وقوعه. ينظر: بوعلام نجادي، الجلادون من 1830-1962، تر: محمد المراجعي، منشورات ANEP، الجزائر، 2001، ص 91.
3. عمار منصوري، المرجع السابق، ص 46.

### - التفجيرات النووية في عين أكر:

وأجبرت هذه الكارثة النووية السلطات الفرنسية على إصدار قرار في يوم 27 ديسمبر 1961 يمنع إجراء تفجيرات السطحية، وان تجري التفجيرات النووية في المستقبل في باطن الأرض، كما تقرر ترك منطقة التفجير في ركان واستبدالها بعين أكر في منطقة الهقار لتكون منطقة التفجيرات النووية<sup>(1)</sup>. وحاولت السلطات الفرنسية امتصاص ردود الفعل التي تسبب بها التفجير الخاطئة خلال عملية اليربوع الأخضر بإصدار قرار يوقف التفجيرات النووية الجوية واستبدالها بتفجيرات في باطن الأرض، وذلك لعدة أسباب منها:

- ما خلفته عملية اليربوع الأخضر من أثار كارثية على المستوى البشري أو البيئي (تسرب الإشعاع النووي) نتيجة الخطأ في التفجير.
- تظاهر فرنسا بالانحياز الحسن أمام الرأي العلمي واتفاقيات الدولية لان الدول الكبرى أبرمت اتفاقية تمنع القيام بالتجارب النووية الجوية.

وقع الاختيار على عين أكر من طرف لجنة الطاقة الذرية الفرنسية Commissariat de l'Energie Atomique (CEA) والتي تبعد 150 كم شمال مدينة تمنراست، وهي منطقة جبلية في الهقار تطل على هضبة ارتفاعها يقدر بـ 1000 متر، يمكن في هذا الجبل المكون من الغرانيت حفر الخنادق وأروقة أفقية بطول 800 إلى 1200 متر بحيث يعتقدون أن هذه الأروقة بإمكانها احتواء الإشعاع، تم اختيار هذه المنطقة من دون إعلام وإبلاغ سكان هذه المنطقة باعتبارها منطقة رعوية، فقامت السلطات الفرنسية بترحيل سكان القبائل مع قطعانهم إلى مناطق أخرى. وتم تسخير أكثر من 9000 شخص لإنجاز مركز عمليات التفجير النووي في عين أكر، نصفهم من الأهالي يقومون بحفر الأروقة الباطنية بينما النصف الباقي عسكريين فرنسيين يقومون بالأشغال العمومية كشق

1. عبد الكاظم العبودي، المرجع السابق، ص 86.

الطرق. وبلغ عدد التفجيرات التي قامت بها السلطات الفرنسية المختصة بـ 13 تفجير نووي في باطن الأرض خلال الفترة ما بين 7 نوفمبر 1961 إلى غاية 16 فيفري 1966<sup>(1)</sup>.

### ثانيا: آثار ومخلفات التجارب النووية :

من المؤسف، حينما كان الفرنسيون يهللون ويستبشرون خيرا بامتلاكهم القنبلة النووية التي سترفع من شانهم بين الدول الكبرى، كان المشهد، في ذات الوقت، وبالا على سكان الصحراء الجزائرية نتيجة التلوث الإشعاعي، إذ كان للتفجيرات النووية انعكاسات خطيرة على الإنسان والبيئة على المدى القريب والمدى البعيد<sup>(2)</sup>. ومهما كان نوع التفجيرات سطحية أو في باطن الأرض، فقد ترتب عن ذلك آثار كارثية، والتي كان لها وقع خطير على الإنسان والبيئة في الصحراء. واستنادا للشهادات التي قدمها بعض من ضحايا التفجيرات أو ممن عملوا في مواقع التفجيرات النووية، اجمعوا كلهم على ان انعكاساتها كانت وخيمة وأثارها لا يمكن أن تمحى، حيث تأثرت البيئة والإنسان بشكل مباشر وكبير. وعبر رئيس جمعية 13 فيفري 1960 عن ذلك بالقول: "إن أسوأ التضحيات التي يخافها ضحايا التفجيرات هو النسيان"<sup>(3)</sup>. بمعنى انه أراد من خلال هذا القول، إن تجاهل الكوارث التي سببتها التفجيرات النووية الفرنسية في الصحراء الجزائرية يعتبر جريمة لما لها من آثار سلبية و كارثية على الإنسان والبيئة في الصحراء.

1. عمار منصوري، المرجع السابق، ص 47.

2. المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، التجارب النووية الفرنسية في الصحراء الجزائرية دراسة حول الانفجار النووي بركان، الجزائر، 1 فيفري 1998، ص 11.

3. Bachir Ouguirti, Reggan, 50 ans après les essais nucléaires français : des plaies toujours béantes, El-watan, du 13 février 2010.

إن مسألة سبق الإصرار والترصد في الجريمة، كما يقول أهل القانون، موجود في السلوك الفرنسي خلال عمليات التفجير النووي في الصحراء الجزائرية. إذ لم تتخذ السلطات الفرنسية الإجراءات الاحترازية بشكل دقيق وواضح. ويبدو انها أرادت من خلال ذلك جعل الإنسان والبيئة الجزائرية حقل تجارب لمعرفة الآثار الدقيقة للسلاح النووي الذي كانت تلهب وراء إنتاجه. والدليل على ذلك:

- تجنيد الكثير من الجزائريين للعمل في حفر الخنادق دون علمهم بماهية العمل الذي يقومون به، وذلك بعد أن أوهموهم بان الحفر من اجل التنقيب عن الذهب.

- عدم اتخاذ الاحتياطات اللازمة في حماية التجمعات السكانية، حيث يوجد أكثر من مليونين نسمة لا يبعدون عن مكان التجربة أكثر من 700 كم، فضلا عن وجود قرى لا تبعد عن مكان التجارب أكثر من 30 كم، علما أن قوة التفجيرات في الصحراء الجزائرية قوتها تفوق قوة القنابل التي ألقيت على المدن اليابانية أثناء الحرب العالمية الثانية بعدة مرات<sup>(1)</sup>.

ومن خلال تتبعنا للآثار التي تركتها عمليات التفجير النووي في الصحراء الجزائرية، نجد إن السلطات الفرنسية، بتجاهلها عن عمد، اقترفت العديد من الجرائم التي يندى لها الجبين، والتي يعتبرها القانون الدولي جرائم ضد البشرية. والتي يمكن تحديد بعضها منها:

1. انتشار الإشعاع النووي على مساحات كبيرة، وتأثير ذلك على البيئة (الماء، التراب) والكائنات الحية (الإنسان<sup>(2)</sup>، الحيوان<sup>(1)</sup>، النبات<sup>(2)</sup>)، وتأثيرها

1. مقابلة إذاعية مع المحامي جاك فرجس، الإذاعة الوطنية الثالثة باللغة الفرنسية، في 13 فيفري 2010.

2. من الآثار الخطيرة التي خلفتها عمليات التفجير النووي على الإنسان فيما بعد كثيرة وخطير، ومن أهمها: تزايد معدلات إسقاط النساء حوامل، ارتفاع معدل الوفيات بين الأطفال الرضع؛

دائم ومتوارثة من جيل لآخر<sup>(3)</sup>. إذ كان يجب أو يفترض الابتعاد عن منطقة الصفر بين تفجير وآخر ما بين 100-150 كم على الأقل، لضمان سلامة العلماء والباحثين الفرنسيين أنفسهم أو بإجلاء القصور، ومعنى هذا أن هناك ما بين 400-600 كم<sup>2</sup> لم تعد صالحة للحياة، وحدودها غير معروفة<sup>(4)</sup>.

2. أحدثت التفجيرات هزات أرضية في كامل منطقة توات، وانتشار سحب من الغبار والأضواء المبهرة التي أصابت العديد من السكان بالعمى نتيجة مشاهدة عمليات التفجير بلا وسائل حماية. وقد وصل تأثيرها لمناطق خارج نطاق مناطق التفجير<sup>(5)</sup>.

فضلا عن انتشار حالات العقم؛ وانتشار أمراض غريبة في المنطقة وارتفاع معدلات الأطفال من ذوي البنية الجسدية الهزيلة. ينظر: التجارب النووية في الجزائر: دراسات وبحوث وشهادات، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة اول نوفمبر 1954، الجزائر، د.ت، ط1، ص 12.

1. استعملت عينات من مختلف الحيوانات من الجمال والماعز والكلاب والحمير والارانب والقطط و600 فار وبعض الزواحف والحشرات والطيور والنباتات. ينظر: عمار جفال وآخرون، المرجع السابق، ص 62.

2. ومن الآثار التي خلفتها على النبات، نذكر: تلف المحاصيل الزراعية، وتراجع معدلات إنتاجية الأرض. وهو ما تسبب في تحول العديد من الأراضي الزراعية إلى مساحات قاحلة وجرداء. ينظر:

Les essais nucléaires français de Reggane : un lourd contentieux avec L'Algérie, rédaction radio net ; 13 février 2011, 13 : 40, in Internet : [www.radioAlgerie.dz](http://www.radioAlgerie.dz), consulté le 12 octobre 010 à 17h 16mn

3. بشير كاشه الفرحي، مختصر وقائع واحداث ليل الاحتلال الفرنسي للجزائر 1830-1962، وزارة المجاهدين، الجزائر، 2007، ص 224.

4. عمار جفال وآخرون، المرجع السابق، ص 54.

5. المرجع نفسه، ص 55.

3. جعل مجاهدي جيش التحرير الأسرى<sup>(1)</sup> عرضة للإشعاع الذري من اجل دراسة تأثير الإشعاعات على الإنسان<sup>(2)</sup>. وتعمدت في استعمالهم ك(فئران تجارب) في تفجيراتها النووية<sup>(3)</sup>.

لقد أظهرت الشهادات الى تقصير السلطات الفرنسية في حتى مواطنيها من التأثيرات السلبية من جراء استعجالها وعشوائية إجراءاتها الأمنية خلال عمليات التفجير. ومن هذه الأخطاء ما حدث في عملية التفجير التي جرت في الأول من ماي 1962 التي حملت اسم (بيريل / الزمرد المصري) حينما أخطأ المعينون عن التفجير في تحديد القوة التفجيرية المقدره بـ 15 كيلو طن وجعلها بقدرة 60 كيلو طن. وهي العملية التي كان قد حضرها وزير الدفاع بيير ميسمر ( Pierre Messmer) والبحث العلمي كاستن بلواسكي (Gaston Palewski) نظرا لأهميتها البالغة في إطار المشروع النووي الفرنسي. ويصف ايبس روكار ( Rocard Ives) خطورة الحادث والكارثة التي أحدثها بالقول<sup>(4)</sup>: " في الوقت المحدد لعملية التفجير، حدث شيئاً غير طبيعي، اذ تكسرت الأبواب وأنبوب القياس أطلق سحابة بشعة من الدخان الأسود الذي يحمل الحطام المشع"<sup>(5)</sup>. وعلى اثر ذلك هروب الجميع إلى مركز الإيواء الذي يبعد حوالي 20 كم من مكان التفجير.

1. يعتبر هذا التصرف مناقض لما ورد في اتفاقية جنيف الرابعة الخاصة بحماية الأشخاص المدنيين في وقت الحرب في 12 اوت 1949، والتي منعت في مادتها (13) من تعريض صحة الأسرى للخطر كما لا يجب استعمالهم لإجراء تجارب طبية وعلمية ومعاملتهم معاملة إنسانية . ينظر نص الاتفاقية في الشبكة العالمية للمعلومات:

[www.icrc.org/ara/resources/documents/misc/5nsla8.htm](http://www.icrc.org/ara/resources/documents/misc/5nsla8.htm)

2. شهادة محمد كزاوي، منشورة في: جريدة المجاهد في 22 فيفري 1993.

3. جريدة الخبر: 19 نوفمبر 2006.

4. Yves Rocard décrit l'accident du tir Béryl, in Internet :

[www.moruroa.org](http://www.moruroa.org), consulté le 13 octobre 2010 à 19h 13mn.

5. Ibid.

ونفس الشيء حدث في بقية عمليات التفجير الأخرى حينما تسرب الإشعاع النووي ليلوث مساحات كبيرة من الصحراء الجزائرية<sup>(1)</sup>.

وعن آثار التلوث الإشعاعي الخطير في صحراء الجزائر، الذي ما زال يحصد الأرواح منذ أكثر من خمسين سنة، يؤكد برينو مارينو (Bruno Marino) الخبير في الإشعاع النووي بعد زيارته لاماكن تفجير القنابل النووية في الصحراء الجزائرية على هذه الجريمة البشعة، من: " أن الإشعاع النووي لا زال منتشرًا وموجودًا في الآلات المبعثرة في أاماكن تفجير القنابل، وأن لمس هذه الآلات والأشياء يترتب عليه الإصابة بأمراض مختلفة منها مرض السرطان، والأخطر أن ليس كل الأاماكن التي تم تفجير فيها القنابل هي معروفة اليوم، توجد إلي يومنا أاماكن غير معروفة، واستمر قائلًا أن أثناء زارته إلي الصحراء الجزائرية في أكتوبر 2010 ليتفقد هذه الأاماكن عشر علي جمل فريسة، فبعد فحصه كشف انه مصاب بالإشعاع النووي"<sup>(2)</sup>.

أن التجارب النووية السطحية كانت أم في أعماق الأرض، والتي بلغ عددها 17 عملية تفجير (11 منها كانت بعد الاستقلال) جرى تنفيذها خلال الفترة الممتدة ما بين عام 1960 حتى عام 1967، ترتب عنها كميات هائلة من النفايات النووية، وهي مردومة على بعد سنتيمترات من سطح الأرض وخلفت عدد كبير من الضحايا، وعددهم في ارتفاع إلي يومنا هذا، نتيجة الأمراض التي لا تعد ولا

---

1.L'essai raté Béryl d'In Ekker (Sahara mai 1962, la bombe ne dégageda par 20 kilotonnes, mais 50), les portes blindés cédèrent. In internet :[www.jp-petit.org/Divers/Nucleaire\\_souterrain/in\\_ekker.htm](http://www.jp-petit.org/Divers/Nucleaire_souterrain/in_ekker.htm), consulté le 04 juillet 2010 à 15h 03 mn.

2. برينو مارينو، مخلفات التجارب النووية في الصحراء الجزائرية، حصة قضايا الساعة، التلفزيون الجزائري / القناة الثالثة، في: 22 فيفري 2010.

تحصي، مثل: أمراض السرطان على اختلاف أنواعها. ولم تتحرك فرنسا حتى يومنا لتحمل مسؤوليتها إزاء هذه الجريمة شيئا لتخلصنا من هذه التركة المسمومة، فعلي فرنسا أن تتحمل مسؤوليتها القانونية.

### مسؤولية فرنسا القانونية تجاه جريمة التفجيرات النووية:

لا يختلف اثنان على أن القانون الدولي فيه من الثغرات التي توفر للدول الكبرى المنفذ لتنفيذ سياساتها من دون النظر إلى تداعيات تلك السياسات ونتائجها السلبية على باقي الدول الأخرى. ومن هذا المنطلق، نجد أن القانون الدولي لا يتضمن إشارة واضحة لتجريم استخدام الأسلحة النووية في الحروب، أو يمنع إجراء (التجارب) النووية. وذلك على الرغم من اعتراف فقهاء القانون من أن استخدام السلاح النووي لا يمكن حصره في إطاره العسكري أو (التجريبي)، بل يتعدى نطاقها التفجيري ليشمل مناطق أخرى غير المعنية بالصراعات المسلحة أو (التجارب) المنفذة. ولا سيما وان هوامش الخطأ في التنفيذ لا يمكن تجاهلها، مثلما رأينا في الحوادث التي رافقت عمليات التفجير النووي في الصحراء الجزائرية.

ولكننا نجد، بعض القرارات التي جاءت على احتشام، أن صح التعبير، تدين استعمال السلاح النووي، كما هو الحال في قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة المرقم 1653 لسنة 1961 الذي اعتبر استعمال الأسلحة النووية يتجاوز نطاق الحرب ويسبب آلاما غير محددة ودمارا للجنس البشري، فهو يعتبر ذلك خرقا لقواعد القانون الدولي والقوانين الإنسانية. وبالتالي فإن استعمال الأسلحة النووية للأغراض العسكرية يؤدي إلى انتهاك مبدأ حظر استخدام الأسلحة التي تسبب آلاما لا داعي لها للمقاتلين<sup>(1)</sup>. هذا إذا كان الحديث عن الحرب والمقاتلين، فكيف

1. عباس هاشم السعدي، مسؤولية الفرد الجنائية عن الجريمة الدولية، دار المطبوعات الجامعية، الإسكندرية، 2002، ص 124.

لنا ان نتصور الحال عند الحديث عن المدنيين العزل الذين لا حول ولا قوة لهم في ذلك.

إن التسليح النووي يلاقي معارضة دولية، من قبل، في الوقت الحاضر ذلك لطابعه الغير إنساني، بالرغم من أنه يلعب دورا كبيرا في حماية الأمن الوطني، نظرا للقوة العسكرية التي يوفرها وقلة تكلفته<sup>(1)</sup>. الا ان ذلك يحمل الدولة المالكة مسؤولية سياسية وأخلاقية تجاه المجتمع البشري بعمومه. ويؤكد الخبير في القانون الدولي عامر الزمالي هذه المسألة من أن القانون الدولي لا يحظر هذه الأسلحة، فاستخدامها يخضع للمبادئ المتعلقة بسير العمليات الحربية، أي إذا كان الهدف منه القيام بعمل عشوائي يصيب المقاتلين وغيرهم ولا يفرق بين ما هو عسكري ومدني فهو يتعارض والقيود القانونية المتعارف عليها<sup>(2)</sup>.

إن ميثاق هيئة الأمم المتحدة في مادته 173 تنص على التزام عام يقضي بضرورة التزام الدول (الدول الاستعمارية) التي تضطلع بتبعيات عن أقاليم لم تنل شعوبها قسطا كاملا من الحكم الذاتي بان تعامل الشعوب المستعمرة بإنصاف وان تحميها من ضروب الإساءة<sup>(3)</sup>. ومن هنا، فان فرنسا تتحمل مسؤولية التقصير والإهمال وعدم اتخاذ الاحتياطات الضرورية والمناسبة لمنع حدوث الإصابات

---

1. Jacques Fontanel – Ron Smith, Le Nucléaire une Arme a Moindre .

Cout, Le Monde Diplomatique, aout 1987, p.22

2. عامر الزمالي، مدخل إلى القانون الدولي الإنساني، المعهد العربي لحقوق الإنسان، تونس، 1997، ط 2، ص 83.

3. صباح مريوة، جرائم الحرب النووية الفرنسية في الصحراء الجزائرية: التجربة النووية الفرنسية 13 فيفري 1960، من بحوث الملتقى الدولي الخامس حول: حرب التحرير الجزائرية و القانون الدولي الإنساني، جامعة حسيبة بن بوعلي/ كلية العلوم القانونية و الإدارية، في: 9-10 نوفمبر 2010، الشلف، ص 24.

بالإشعاع النووي، أي ما يعرف بالفقه القانوني بـ (المسؤولية المطلقة)<sup>(1)</sup>، لاسيما وان اتفاقية جنيف لحماية المدنيين لعام 1948 ألزمت الدول الاستعمارية مسؤولية توفير الحماية لشعوب الدول التي تسيطر عليها، اذ حددت المادة (4) طبيعة الأفراد: (الأشخاص الذين تحميهم الاتفاقية هم أولئك الذين يجدون أنفسهم في لحظة ما وبأي شكل كان، في حالة قيام نزاع أو احتلال، تحت سلطة طرف في النزاع ليسوا من رعاياه أو دولة احتلال ليسوا من رعاياها.)، أما المادة (27) التي حددت حقوق المدنيين: (للأشخاص المحميين في جميع الأحوال حق الاحترام لأشخاصهم وشرفهم وحقوقهم العائلية وعقائدهم الدينية وعاداتهم وتقاليدهم. ويجب معاملتهم في جميع الأوقات معاملة إنسانية، وحمايتهم بشكل خاص ضد جميع أعمال العنف أو التهديد، وضد السباب وفضول الجماهير. ويجب حماية النساء بصفة خاصة ضد أي اعتداء على شرفهن، ولاسيما ضد الاغتصاب، والإكراه على الدعارة وأي هتك لحرمتهن. ومع مراعاة الأحكام المتعلقة بالحالة الصحية والسن والجنس، يعامل جميع الأشخاص المحميين بواسطة طرف النزاع الذي يخضعون لسلطته، بنفس الاعتبار دون أي تمييز ضار على أساس العنصر أو الدين أو الآراء السياسية. على أن لأطراف النزاع أن تتخذ إزاء الأشخاص المحميين تدابير المراقبة أو الأمن التي تكون ضرورية بسبب الحرب)<sup>(2)</sup>.

وعليه، فان المسؤولية الدولية (القانونية والاخلاقية) الناتجة عن اخلال الدولة بالتزاماتها التعاقدية، لا يشترط القانون الدولي ان تنص المعاهدة التي حصل الاخلال بها على وقوع المسؤولية صراحة<sup>(3)</sup>، فعلى سبيل نصت اتفاقية جنيف بشأن الاسرى نصت في مادتها (12) على ما يلي: "يقع أسرى الحرب تحت سلطة الدولة المعادية، لا تحت سلطة الأفراد أو الوحدات العسكرية التي أسرتهم،

1. عمار جفال واخرون، المرجع السابق، ص 124.

2. [www.icrc.org/ara/resources/documents/misc/5nsla8.htm](http://www.icrc.org/ara/resources/documents/misc/5nsla8.htm)

3. عمار جفال واخرون، المرجع السابق، ص 124.

وبخلاف المسؤوليات الفردية التي قد توجد، تكون الدولة الحاجزة مسؤولة عن المعاملة التي يلقاها الأسرى. لا يجوز للدولة الحاجزة نقل أسرى الحرب إلا إلى دولة طرف في الاتفاقية، وبعد أن تقتنع الدولة الحاجزة برغبة الدولة المعنية في تطبيق الاتفاقية وقدرتها على ذلك. وفي حالة نقل أسرى الحرب على هذا النحو، تقع مسؤولية تطبيق الاتفاقية على الدولة التي قبلتهم ما داموا في عهدها. غير أنه إذا قصرت هذه الدولة في مسؤولياتها في تنفيذ أحكام الاتفاقية بشأن أية نقطة هامة، فعلى الدولة التي نقلت أسرى الحرب أن تتخذ، بمجرد إخطارها من قبل الدولة الحامية، تدابير فعالة لتصحيح الوضع، أو أن تطلب إعادة الأسرى إليها. ويجب تلبية مثل هذه الطلبات. <sup>(1)</sup>. ولكن السلطات الاستعمارية تعاملت مع أسرى جبهة التحرير الوطني على أنهم نماذج اختبار لدراسة تأثيرات الإشعاع النووي على العنصر البشري، كما رأينا من قبل. هذا إذا ما اعتبرنا ان الشعب الجزائري، لاسيما سكان الصحراء، كانوا اسرى في ظل الاحتلال الفرنسي للجزائر.

على العموم، هناك شروط للمسؤولية الدولية تتمثل في: وجود الفعل أولاً، والتصرف غير المشروع ثانياً. فالشرط الأول يتجسد بمسؤولية فرنسا عن التفجيرات النووية في الصحراء الجزائرية؛ والشرط الثاني أن يكون التصرف والفعل الذي تقوم به الدولة غير مشروع في نظر القانون الدولي، والفعل الذي أقدمت عليه السلطات الاستعمارية الفرنسية هو بطبيعة الحال غير مشروع. ومن هنا، فإن ما حدث من أعمال إجرامية، تمثلت في التفجيرات النووية في الصحراء الجزائرية، تتوفر على شروط المسؤولية الدولية<sup>(2)</sup>.

1. للاطلاع على نص اتفاقية جنيف بشأن معاملة اسرى الحرب المؤرخة في 12 اوت 1949، ينظر: الشبكة العالمية للمعلومات(الانترنت):

[www1.umn.edu/humanrts/arab/b092.htm](http://www1.umn.edu/humanrts/arab/b092.htm)

2. صباح مريوة، المرجع السابق، ص 25.

وعليه، فإن مسؤولية فرنسا بشقيها الدولية والجنائية هي مجرد تكييف قانوني يتضمن الوقائع التي تشكل عناصر عمليات التفجير التي قامت بها فرنسا في الصحراء الجزائرية. ومن أجل تأسيس صحيح لهذه المسؤولية، فإنه مطلوب تقديم الاثباتات العلمية (ملف علمي) بشقيه الانساني والبيئي يتعلق بكل الاخطار التي نجمت عن التفجيرات النووية، والى جانب ذلك يحتاج الامر لتقديم الدراسات التاريخية الرصينة التي تتضمن سردا كرونولوجيا للحدث يعتمد على دقة المعلومات والوقائع المرتبطة بها.

من خلال ما سبق، نجد خطورة ما قامت به فرنسا من تفجيرات نووية، والتي يمكن إدراجها في باب العدوان العسكري، وبالفعل تحرك العديد من الخبراء في ميدان النووي ورجال القانون والسياسة والمؤرخين للعمل على فضح الآثار التي خلفتها التفجيرات النووية في الصحراء الجزائرية. وهي جريمة لا تقل شأنًا عن الجرائم الأخرى التي قامت بها فرنسا خلال فترة احتلالها للجزائر (1830-1962). ويمكننا بلورة هذا الموقف بما أشار إليه الدكتور محمد القورصو حينما اعتبر ما قامت به فرنسا من تفجيرات نووية في الصحراء الجزائرية يعد جريمة لا بد أن تحاسب عليها فرنسا نظرا للأضرار التي أحدثها بيئيا وبشرياً، لان هذا فعل تسبب في أضرار مباشرة وأخرى غير مباشرة من الناحية الجسدية والمعنوية لأشخاص لم يكن ذنبهم سوى أنهم يقيمون ضمن نطاق تأثيرات تلك التفجيرات<sup>(1)</sup>.

إن إقدام فرنسا على تفجير قنابلها في أرض غير أرضها، لا يمثل فقط تعديا صارخا على الجزائر، ولكنه تجسيد لخروج فرنسا عن إجماع العالم وتحديها لعواطف

1. محمد القورصو، حصة تلفزيونية (قضايا الساعة)، التلفزيون الجزائري / القناة الثالثة، في 22 فيفري 2010.

شعوبه وتوصيات الأمم المتحدة<sup>(1)</sup>. لاسيما وان فرنسا تعرضت لانتقادات دولية حتى قبل القيام بهذه التفجيرات، حينما عارضت كل من : الاتحاد السوفيتي واليابان وكندا، فضلا عن: العراق، مصر والمغرب. وكانت الجمعية العامة للأمم المتحدة قرارا في 20 نوفمبر 1959، أبدت تخوفها من الاتجاه الجديد الرامي إلى إجراء تجارب نووية على الجنس البشري، ودعت الحكومة الفرنسية إلى عدم القيام بمثل هذه التجارب الخطرة<sup>(2)</sup>.

ونتيجة لكل ما سبق فإن التفجيرات النووية الفرنسية في الصحراء الجزائرية تعتبر من أكثر الجرائم عدوانية، وذلك لأن الفرنسيين سخروا سكان المناطق الصحراوية لأن يكونوا عينة بشرية للاختبارات وعرضتهم للإبادة الشاملة والبطيئة، فقد صنفت فرنسا الملفات النووية ضمن الملفات السرية التي لا يستطيع العامة أو المختصون الاطلاع عليها هذا ما أثر على علمية وموضوعية الدراسات التي تعرضت إلى هذه التجارب، وهي ضئيلة على العموم.

خلاصة القول، يتضح لنا ان فرنسا تتحمل المسؤولية القانونية والسياسية على فعلها الاجرامي، واعني هنا التفجيرات النووية في الصحراء الجزائرية، وهذه المسؤولية تفرض عليها اتخاذ الخطوات اللازمة للاعتراف وتنفيذ التزاماتها ازاء ذلك. وعلى ما يبدو، ان جسامة ووحشية الفعل الاجرامي، جعل فرنسا نفسها تتهيب وتتخوف من الخوض فيه، وتردد في القيام بواجبها الأخلاقي الذي يفرض عليها ان تتحمل مسئوليتها القانونية. وتعترف فرنسا بما قامت به من فعل يتنافى مع ابسط القيم الانسانية والاخلاقية. وفي سلوكها هذا، تحذو حذو دول اخرى

1. جريدة المجاهد: 22 فيفري 1960، ص2.

2. جريدة المجاهد: 27 نوفمبر 1959، ص3.

اعترفت بمسؤوليتها تجاه سكان المناطق التي اجرت فيها تفجيرات نووية، وقامت بمجهودات كبيرة ومكلفة في ميدان التعويض ومعالجة الاضرار<sup>(1)</sup>.

ولابد من الإشارة هنا، إن خروج فرنسا من الجزائر لا يعني انتهاء مسؤوليتها وعدم إمكانية تعقبها قانونيا وسياسيا. وحاولت فرنسا ذر الرماد بالعيون من متابعة تأثير عمليات التفجير في المناطق التي شهدتها تجاربها المدمرة، حيث تم بعث أطباء ومهندسين لمتابعة الملف النووي، فوجهوا للعمل في المناطق الصحراوية، ذلك لمعرفة آثار الإشعاع بعد التفجير والتغيرات البيئية والمناخية والصحية الواقعة. ولكن هذا الأمر لا يكفي لمواجهة آثار الكارثة التي لازالت قائمة.

نظرا لكل هذه المعطيات، تثبت المسؤولية القانونية لفرنسا في الجريمة الإنسانية والبيئية التي سببتها في الجزائر، وما اعترفت به لا يمثل شيء مقارنة بفضاعة الجريمة نظرا للمخلفات الجسيمة سواء بشريا أو بيئيا، لذا نطالب فرنسا بما يلي:

- تعويضات لكل الضحايا سواء الذين أصيبوا أثناء عملية الانفجار أو المصابين بعد العمليات من جراء تسرب الإشعاع النووي إلى المناطق القريبة من التجارب، وكذلك ضحايا بقايا النفايات النووية.
- تعويضات عن المساحات الزراعية التي كانت منتجة قبل التفجير وتحولت إلى أراضي قاحلة بعد التفجير.
- تعويضات عن التلوث البيئي للمناطق التي أجريت فيها التجارب النووية.
- إزالة كل النفايات التي ما زالت مردومة قرب سطح الأرض.

1. عمار جفال، المرجع السابق، ص 156-157.

### رابعاً: تردد فرنسا في فتح ملف التجارب النووية:

حاولت فرنسا في سنة 1996 فتح ملف التفجيرات النووية في الصحراء الجزائرية، ومحاولة إيجاد تسوية لغلقه بشكل نهائي ولكنها اصطدمت بموقف صلب من جانب الحكومة الجزائرية التي أصرت على اعتراف فرنسا بجريمتها قبل كل شيء، ومن ثم التفكير بالتسوية بشكل نهائي. وخلال زيارة الرئيس الفرنسي نيكولا ساركوزي (Nicolas Sarkozy) للجزائر في الفترة 3-5 ديسمبر 2007، اريد فتح الملف مرة ثانية حيث صرح السفير الفرنسي في الجزائر برنار بتجولي (Bernard Bajolet) قائلاً: " أن فرنسا تقوم بإرسال بعثة من الخبراء لزيارة المكان (مكان التفجيرات النووية) من اجل التحقيق في الأضرار الناجمة عن هذه التجارب على سكان المنطقة، وأن الدبلوماسية الفرنسية تتحرك حسب النتائج التي تتوصل إليها البعثة"<sup>(1)</sup>. ولكن الأحداث تشير إلى عكس ما كانت تشير إليها التصريحات، فعلى سبيل المثال، لم تقوم فرنسا بتزويد الجزائر بالخرائط التي تحدد مواقع تخزين النفايات المشعة. ولم تسمح بالاطلاع على أرشيف التفجيرات النووية في الجزائر بحجة أنها أسرار عسكرية، على الرغم من أن هذه التجارب خلفت وما زالت تخلف أضرار جسيمة بيئية وصحية في الصحراء الجزائرية.

لقد صوت البرلمان الفرنسي بتاريخ 22 ديسمبر 2009 على الاعتراف بمخلفات التفجيرات ومنح تعويضات لضحاياها، ولكن جاءت هذه التعويضات رمزية بالنسبة للجزائريين والجزائر عامة نظرا لما خلفته هذه التجارب من تلوث بيئي وضحايا بشرية ووجود إلى يومنا نفايات الإشعاع الذري في الجزائر. كما أدى تسرب الإشعاع النووي والنفايات المتراكمة للإشعاع الذري في

---

1. Rabah Beldjenna, la France n'exclut pas de l'indemnisation des victimes, El-watan, du 25 décembre 2007.

أماكن غير معروفة إلي يومنا إلي حصد الكثير من الضحايا منذ سنوات التفجيرات ولا يزال يحصد الضحايا إلي يومنا، تجاهلت فرنسا كليا هؤلاء الضحايا وحرمتهم من التعويضات.

لم تقتصر فرنسا على تحديد وتقليل عدد الضحايا المصابين لمنحهم تعويضات، وإنما تناست كليا قضية إزالة التلوث النووي الذي لا زال يلحق أضرار جسيمة بيئيا وصحيا على المناطق الصحراوية، لذا ما زالت فرنسا مسؤولة على إزالة التلوث النووي من الصحراء الجزائرية وكذا توسيع التعويضات لتشمل كل الضحايا التجارب النووية حتى لو كانت بعد التجارب لان لو لا هذه التجارب لما كان هؤلاء الضحايا<sup>(1)</sup>.

تعد هذه التفجيرات النووية الفرنسية في صحراء الجزائر جريمة ضد الإنسانية واعتداء على الطبيعة، نظرا لعدد الكبير من ضحايا المدنية التي خلفتها هذه التجارب والدليل على ذلك الملفات التي هي بحوزتهم خاصة العمال الذي اجبروا للعمل في القاعدة النووية ومعظمهم من القصور: 40% من ادرار، 24% من زاوية كونتا، 7% من فنوغل و 11% من رقان والبقية من مناطق تندوف وبشار، ويقدر سن هؤلاء ما بين 15 إلى 45 سنة<sup>(2)</sup>.

### خاتمة:

من خلال دراستنا للموضوع، يمكننا استنتاج الآتي:

1. استطاعت فرنسا من خلال برنامجها النووي في تحقيق نوعا من الاستقلال وحرية المناورة في المواقف الدولية. ولكن تحقيق هذا الهدف كان على حساب

---

1. M. Ait Ouarabi, cinquante ans après les essais nucléaires français, El Watan, 12 février 2009.

2. Ibid.

شعوب أخرى، في مقدمتها الشعب الجزائري، إذ لازالت أجيال عديدة منها مجبرة على دفع تكاليف الانجاز النووي الفرنسي، لأنها استعملت أراضي الغير، الأرض والشعب الجزائري، كحقل تجارب لبرنامجها النووي.

2. ضرورة إلزام فرنسا بالاعتراف بالضرر الذي تسببت به جراء التفجيرات النووية، ومن ثم تقديم اعتذارها رسميا، والتعويض المادي للضحايا والتكفل بهم صحيا وإعادة البيئة الى ما كانت عليه قبل التفجيرات قدر الإمكان.

3. أن جريمة التفجيرات النووية تعتبر من أبشع الجرائم التي اقترفتها فرنسا في الجزائر، لان آثارها لم تخصص شريحة معينة بقدر ما هي جريمة ستكون قائمة لأجيال قادمة، وان مهها فعلت فرنسا، وهو ما لم يحدث لحد الآن، فان آثارها ستبقى قائمة. وهناك من الدلائل التي تؤكد على مناطق التفجيرات النووية ما زالت ملوثة وتساهم في نشر الأمراض وتدمر البيئة تلك الإصابات بالإشعاع النووي، ففي شهادته، أشار المواطن عمار بجلالة، وهو ليس من سكان الصحراء، إلى الكيفية التي أصيب بها، حين قال: "أثناء أدائي الخدمة الوطنية في تمراست، اقتربت من مناطق التجارب النووية، وبعد إنهاء الواجب الوطني العسكري، أصبت بعدة أمراض والتشويه الجسدي، فأجريت فحوصات طبية التي تبين منها أن الأمراض سببها الإشعاع النووي"<sup>(1)</sup>.

4. استهزاء فرنسا بالقيم الإنسانية والمواثيق الدولية حينما سخروا سكان المناطق الصحراوية لأن يكونوا عينة مختبرية وعرضتهم للإبادة الشاملة والبطيئة. وهي بهذا السلوك ضربة بعرض الحائط قواعد الأخلاق الدولية ومبادئ القانون الدولي اللذان يمنعان مثل هذه الأفعال التي تترتب عنها انعكاسات صحية وبيئية خطيرة.

1. عمار بجلالة، حصة قضايا الساعة، التلفزيون الوطني / القناة الثالثة، فيفري 2011.

5. تكتتم السلطات الفرنسية على الأرشيف الخاصة بالتفجيرات النووية، وجعلها ضمن الملفات السرية المحظورة على المهتمين. مما يمنع الوصول إلى الحقيقة التي تفضح جرائمها البشعة التي قامت بها في الجزائر.

## مواقف سكان الجنوب الجزائري من مشروع السياسة الاستعمارية الفرنسية فصل الصحراء عن شمال البلاد

الدكتور: الزين محمد

جامعة جيلالي ليابس - سيدي بلعباس

### 1- أهمية الصحراء في الاستراتيجية الفرنسية:

تُعد الصحراء الجزائرية من المحاور الأساسية في الاستراتيجية الفرنسية من جميع النواحي السياسية والعسكرية والاقتصادية، ويبدو ذلك من خلال الاهتمام المتزايد والمضطرد بها، فمن سنة 1902 إلى سنة 1957 كانت الصحراء الجزائرية مقسمة إلى أربعة مناطق هي: غرداية، تقرت، الواحات، عين الصفراء وتغير هذا النظام من سنة 1957 حتى سنة 1962 حيث أصبحت الصحراء تنقسم إلى عمالتين (ولائتين) هما الواحات ومركزها الأغواط والساورة ومركزها بشار<sup>1</sup>.

وقد كانت في المرحلة الأولى تابعة للحاكم العام بالجزائر يحكمها باسم فرنسا، والسبب المباشر لاحتلال هذه المناطق ومنها إقليم توات وتيديكلت هو الحاجة إلى تغطية النفقات الباهظة التي استنفذت في تمويل الحملة العسكرية<sup>2</sup>.

ويعتبر قانون 24 ديسمبر 1902 معدلا عن الصيغة الأولى نظرا لتحفظات ومخاوف المستوطنين حيث جاء مستجيبا لجملتها، وتتلخص هذه المخاوف في:

---

1- فصل الصحراء في السياسة الاستعمارية الفرنسية سلسلة الملتقيات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954 ص 143.

2 C.N.A Gouvernement général de l'Algérie, commissariat générale du Centenaire, les territoires du sud de l'Algérie, deuxième partie : l'œuvre accomplie du 1er Janvier 1903 au 31 Décembre 1929, Alger, imp. Algérienne. 1929, pp 43-44.

- الخوف من هذا التنظيم الجديد في المناطق الجنوبية الذي يهدد الإدارة المدنية في الشمال، ما قد يؤدي إلى تصنيفها لصالح الحكم العسكري.
- الخوف من محاصرة حركة الاستيطان الأوروبي وغلقت أبواب الجنوب أمامها.
- الخوف من تحمل خزينة مستعمرة الجزائر نفقات القوات المتمركزة في الجنوب.<sup>1</sup>

وقد جاء القانون من أجل:

- التقليل من نفقات الاحتلال العسكري بالجنوب.
- الموازنة بين النفقات المدنية والمواد المحلية.
- اعتماد أساليب حكيمة في إدارة هذه المناطق والدفاع عنها.<sup>2</sup>

وحسب النصوص والمواد المحددة لصلاحيات واختصاصات الحاكم العام على الجزائر بهذه الأقاليم، فإن تقسيم الصحراء الجزائرية يكون إلى أربعة أقاليم هي:

إقليم عين الصفراء، إقليم الواحات، إقليم غرداية وإقليم تقرت، وتخضع لنظام الأقاليم القيادية حيث يوجد على كل إقليم منها قائد عسكري معين بمرسوم، ومما يميز هذه الإدارة الجديدة ازدواجيتها، حيث أوحى بوجود إدارة

---

1قنان جمال، قضايا ودراسات في قانون الجزائر الحديث والمعاصر، الجزائر منشورات المتحف الوطني للمجاهد 1994، ص 148.

2C.N.A Gouvernement général de l'Algérie, commissariat générale du Centenaire, les territoires du sud de l'Algérie, deuxième partie : l'œuvre accomplie du 1er Janvier 1903 au 31 Décembre 1929, Alger, imp. Algérienne .1929, 648 P1.

عسكرية ومدنية في نفس الوقت وإن كانت أقرب إلى العسكرية، لأن الإدارتين تتبعان لضباط الشؤون الأهلية.<sup>1</sup>

وتعتبر هذه السياسة التي اتبعتها فرنسا في أقاليم الجنوب منذ إحداثها، مميتة لها ببطء مستعملة في ذلك الإرهاب والقهر والطغيان بجميع أشكاله و صورته<sup>2</sup>، فأصبحت الصحراء ثكنة كبيرة يخضع كل من بداخلها إلى قوانين عسكرية صارمة ، فكل حركة تخضع بإذن و كل تنقل يخضع بتصريح، مما جعل الحركة الوطنية بالشمال تدرك شدة وطأة هذا النظام على هذه المناطق ، ليكون من أهم مطالبها الأساسية منذ وقت مبكر هو إلغاء النظام العسكري بالجنوب.<sup>3</sup>

ومما يلاحظ أن أراضي الجنوب كان معترف بها كجزء لا يتجزأ من الجزائر، وأن الأحكام القانونية لم ترم إلى إقامة وحدة سياسية منفصلة عن الجزائر، وهذا ما يؤكد وحدة الأرض الجزائرية، فالضرائب والرسوم التي كانت تجبى في أراضي الجنوب شأنها شأن الضرائب المفروضة في جزء آخر من الجزائر.<sup>4</sup>

وفي حديثنا عن أهمية الصحراء لا يفوتنا إلى أن ننوه إلى أن الصحراء كانت تعتبر رهانا علميا وتكنولوجيا لكل من له علاقة بالجزائر ، حتى بعد وجود شركات أجنبية منافسة للشركات الفرنسية كالأمريكية والأوربية ، وبدأ البحث عن البترول في الصحراء الجزائرية سنة 1941، و لقد قامت بهذه المهمة عدة مكاتب و شركات منها مكتب البحوث البترولية عام 1945 ، و الشركة القومية

1 محمد بن دارة، السياسة الفرنسية في الصحراء ما بين 1952-1962، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ، تخصص تاريخ الثورة، معهد التاريخ، الجزائر، 1998-1999 ص05.

2 قنان جمال، قضايا ودراسات، المرجع السابق، ص 151.

3 قنان جمال، نفس المرجع السابق، ص 153-154.

4 Bejaoui Mohammed, la révolution Algérienne et le droit, préface de pierre cot, bruxelles, ed, de l'association internationale des juristes démocrates, 1961, p ; p224-231.

للبحث عن البترول في الجزائر C.F.P.A ومكتب التنقيب عن المعادن في الجزائر في مارس 1948 ، والذي شمل نشاطه ولايات الواحات والساورة ، وفي أواسط سنة 1951 أنشئت شركة البحث و إستغلال بترول الصحراء C.R.P.S<sup>1</sup> وفي عام 1954 اكتشف الغاز الطبيعي لأول مرة في جبل برغة قرب عين صالح ثم اكتشف حقل البترول في مارس 1956 بمنطقة إيجلي، وبعد أسابيع قليلة اكتشف في منطقة تيفشورين وفي 12 جوان 1956 توجت الأبحاث في حاسي مسعود على بعد 800 كلم شرقي ورقلة بالنجاح حيث اكتشف على عمق 3300 م حقل هام للبترول تبلغ كثافته 140 م<sup>2</sup>.

وأمام هذه الاكتشافات للثروات الطبيعية في الصحراء الجزائرية تغيرت السياسة الفرنسية بشكل واضح ويبدو ذلك من خلال استراتيجيتها الجديدة التي حملت شعار "الصحراء الفرنسية" بدل "الجزائر الفرنسية" وهو ما سيكون له انعكاسات كبيرة على الصحراء وسكانها وهذا ما سنتطرق له في المحور الثاني في هذه المداخلة .

## 2- المساعي الفرنسية لفصل الصحراء :

### • التهيئة النفسية لسكان الصحراء من أجل تنفيذ عملية الفصل:

إن مشروع فرنسا، ولا شك في هذا الإطار، يتوقف على مدى تبني واعتناق سكان الصحراء لهذا المشروع، ولذلك لم تتوانى فرنسا من أجل إعطاء هذا الجانب حقه من الاهتمام والدراسة فجعلت له سياسة خاصة تسعى من خلالها إلى أن يشعر ساكن الصحراء بالعامل الإيجابي لبقاء القوات الفرنسية في بلده أو منطقتة

1 محمد لحسن زغيدي، مؤتمر الصومام وتطور ثورة التحرير الوطني الجزائرية - 1962 - 1956، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1989 دار البعث قسنطينة ص277.

2 الصحراء الجزائرية مصدر رخاء وتقدم للجزائر والمغرب - جريدة المجاهد العدد 91-13 مارس 1961.

وقد اسند أمر تحقيق هذه المهمة إلى ضابط المكتب الثالث والخامس للجيش الفرنسي، وهو المكتب المكلف بالدعاية والحرب النفسية في إطار حرب التهذئة الموجهة للقضاء على الثورة الجزائرية.<sup>1</sup>

### • شبكة الدعاية والحرب النفسية بالصحراء:

لقد آلت إدارة الاحتلال الفرنسي على نفسها الذهاب إلى أقصى نطاق في سياق السعي المحموم من أجل كسب رهان الحرب النفسية التي أضحت حديث الساعة وقت ذلك، نتيجة للأمل الكبير الذي علق عليها في إمكانية إحداث الففزة النوعية في عملية ضرب الثورة ببعضها، من خلال الرغبة في الوصول إلى إحداث القطيعة الجذرية بين الشعب والثورة من جهة، والعمل على زعزعة صف الثورة من الداخل.<sup>2</sup>

وفي ضوء ذلك ورغبة في تجسيد أهداف العسكريين والساسة الفرنسيين، رصدت إمكانات مادية كبيرة ما فتئت تنمو باضطراد بالتوازي مع امتداد وتوسع الثورة.

### • شبكة الاستقطاب والدعاية النفسية بين الشباب:

وهي شبكة جسدها مراكز التنشيط الاجتماعي، التي تم إنشاؤها أولاً بالشمال بقرار 25 أكتوبر 1955، ثم جرى تعميمها بالصحراء بقرار 09 جوان 1959 وبمعدل مركز واحد في كل دائرة، أي بمجموع 15 مركزاً بالعمالتين، وقد اسند لهذه المراكز مهمة اتخاذ وخلق وتنسيق ودعم جميع التدابير والمبادرات الكفيلة

1 El Moudjahid, Femmes et enfants algériens face à l'action psychologique n°27 du 22 juillet 1958, vol.1 p.p 42.43

2 شريط لخضر وآخرون، استراتيجية العدو الفرنسي لتصفية الثورة الجزائرية، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954. ص314.

بضمان الترقية الاجتماعية والثقافية للسكان، وتحسين أوضاعهم المعيشية، وذلك عن طريق النشاط في المجالات التالية:

- الرعاية الصحية وتكوين الشباب في مجال الطب الاجتماعي للسكان.
- ضمان التكوين الأساسي، كالتكوين المهني "مراكز التمهين" ودراسة سوق التشغيل.
- الاعتناء بالشباب والرياضة، من خلال بث وتدعيم عدد من مراكز التكوين المهني، ونوادي الشباب والمخيمات الصيفية والنوادي الرياضية.
- ترقية المرأة من خلال دعم حركات التضامن النسوية، وتوسيع شبكاتها "النوادي-النسوة-المشاغل".
- الاهتمام بالسكن الريفي والنوادي الريفية.
- تنمية الصناعات الحرفية.
- تقديم المساعدة الاجتماعية للعسكريين من قداماء أفراد القوات النظامية والاحتياطية.
- التكفل بالمسائل المتعلقة بقدماء العمال والأشخاص المتقدمين في السن.

يشرف على كل مركز من هذه المراكز مشرف إداري، أو ضابط من ضباط الشؤون الصحراوية تساعده في مهامه لجنة استشارية متكونة من تسعة أعضاء، تضم ممثلين عن مختلف الهيئات، تجتمع هذه اللجنة الاستشارية مرة كل سنة لبحث القضايا والمسائل المختلفة للنوادي الاجتماعية وتوزيع الاعتمادات المالية عليها.<sup>1</sup>

### • شبكة الدعاية والنشاط البسيكولوجي بين الكبار<sup>2</sup>:

وهي كالآتي:

---

1 محمد بن دارة، السياسة الفرنسية في الصحراء، نفس المرجع السابق، ص136.

2نفسه، ص 139-140

✓ مراكز الإشعاع: وهدفها الأول هو إعلام وتربية وتنظيم السكان، تسهر على تنشيط هذه المراكز خلية اتصال مكونة من ضابط ذو رتبة ومترجم ومنشطين عن النوادي الرياضية، وممثل عن فرقة الدرك وغالبا ما تكون هذه المراكز على مقربة من المدارس والنوادي لتسهيل عليها عملية الاستقطاب والتأثير.

✓ مراكز تكوين مسؤولي الدفاع الذاتي: وكان عددها اثنين بالصحراء، مهمتها البحث عن زعامات مستقبلية محلية بين السكان والأهالي.

✓ جمعيات قدماء المحاربين: هي عبارة عن جمعيات مهنية للدفاع عن مصالح هذه الفئة، والهدف منها ربط فئة قدماء المحاربين -سواء كانوا أوروبيين أو أهالي- بالمؤسسة العسكرية وجعلها في حالة تأهب واتصال دائمين لخدمة فرنسا، وقد أعربت مجموعة من المحاربين القدامى الذين كانوا في استقبال الوزير المكلف بالصحراء "ماكس لوجون" عن ثقتها في فرنسا لتغيير الوضع نحو الأحسن.<sup>1</sup>

ومن خلال ما سبق تتضح لنا شبكة الدعاية والنشاط السيكولوجي جلية، إذ كانت تحاصر السكان وتطوقهم وتعمل على تهيئتهم وإعدادهم لفصل قريب عن الجزائر، وقد انتشرت وتغلغلت بين فئات مختلفة من السكان وقد حرصت مصالح الدعاية والنشاط السيكولوجي لإنجاح نشاطها على استغلال وتوظيف جميع عناصر النجاح المتوفرة، بما في ذلك العنصر الأوروبي المتواجد بالصحراء، فمستقبل الصحراء في نظر الفرنسيين يتوقف أولا وأخيرا على مدى انخراط العنصر الأوروبي، وانضباطه ووحدة عمله لإنجاح هذا المشروع.

### • مشروع الجمهورية الصحراوية:

لقد سعت فرنسا من خلال مخططاتها إلى إعطاء الصحراء إطارا سياسيا مستقلا ومتميزا عن ذلك الذي سيكون غدا للجزائر، وهو ما سعت إليه من خلال مشروع "الجمهورية الصحراوية" كما سنرى ذلك.

كما يمكننا القول بأن المصادر والمراجع التي رجعنا إليها في هذا الصدد بما في ذلك شهادة المجاهدين لا تفي بالغرض وهو تغطية الموضوع من زوايا عدة، بل تكتفي بالتعميم والإشارة فقط إلى هذه المناورة، لذلك فلن يكون هذا العنصر موضحا ومبيننا للمناورة على حقيقتها، بقدر ما هو محاولة لجمع شتات هذا الموضوع، كما أننا لا ندرى إن كان هذا المشروع "الجمهورية الصحراوية" حقيقة شغلت فرنسا أم مجرد مناورة لإرباك جبهة التحرير الوطني، وهو ما يبقى التاريخ كفيلا بالإجابة عنه.

ومهما يكن الأمر، فإن الشيء المؤكد هو أن نية فرنسا لفصل هذه المناطق سياسيا كانت أكيدة رغم أن مساعيها في هذا الاتجاه كانت سرية وغير رسمية<sup>1</sup>، وهذه المحاولات ابتدأت وتكاثفت من بداية سنة 1957، وتجسدت بزيارات لشخصيات وكبار المسؤولين في الحكومة الفرنسية إلى المنطقة<sup>2</sup> للقيام بمساعي مختلفة لجلس النبض والبحث عن الشخصيات المحلية، والإتيان بأعوان توكل إليهم مهمة تنفيذ سياسة الفصل، وفي هذا الإطار تم تقديم عدد من العروض السياسية لعدد منهم، نذكر من بينهم "حمزة بوبكر"<sup>3</sup>، الشيخ "إبراهيم بيوض"<sup>1</sup>

1 محمد بن دارة، السياسة الفرنسية في الصحراء الجزائرية، المرجع السابق، ص 145.

2 الزبير بوشلاغم، الثورة وقضايا أخرى بناحية غرداية، مجلة أول نوفمبر العددان 126-127 مارس، أبريل، ص 47.

3 Achour Cheurfi, Mémoire algérienne, Dictionnaire biographique, Alger, Dahleb, 1996, 896, PP225

و"الباي أخوا موخ" سلطان الهقار، وهي شخصيات لها وزن في مجتمعاتها التي تعتبر الأكثر من حيث الكثافة السكانية، كأولاد سيدي الشيخ، بني ميزاب، قبائل التوارق، وقد باءت كل هذه المخططات والمساعي بالفشل، ما عدا تلك المتعلقة بالمدعو -حمزة بوبكر- الذي تبنى هذا المشروع وأخذ يعمل على تحقيقه، وعرفت هذه المشاريع تطورا كبيرا باستلام الجنرال ديغول الحكم في 1958، فبعد تعيين "ميشال دوبري M.DEBRE" في منصب الوزير الأول، أرسله إلى الجزائر لدراسة أوضاعها عامة وأوضاع الصحراء خاصة، وكان الجنرال ديغول قد طلب دراسة ملف الصحراء رفقة مستشاره "اليفي قيشار Olivier GUICHARD"، وفي جويلية 1958 أجرى ديغول تعديلا في حكومته بتعيين "لويس جوكس L. JOXE" كاتب الدولة بمكتب الوزير الأول، وكلف "فيشار" بملف الصحراء فاتصل بالوزير المفوض المقيم بالجزائر "سوستيل Soustelle"، الذي زار في 12 جوان 1959 منطقة ميزاب لتفقد أوضاع الصحراء، ولقد قابل "أوليفي قيشار" بعض الشخصيات التي تتمتع بالنفوذ في أوساط المجتمع، وسبقت لها مواقف في قضايا الصحراء، كالشيخ بيوض، فوقع الاجتماع بمكتب رئيس الدائرة العسكرية بغرداية "الكولونيل" كلان كلاش" وهو رئيس بلدية غرداية فقال "فيشار" مخاطبا الشيخ بيوض: "إني مبعوث من طرف الرئيس الجمهوري ديغول للمفاوضة معك في شأن مستقبل الصحراء واستقلالها فهي تملك الموارد الضخمة من الغاز والبتروول وهي متاخمة لموريطانيا الجمهورية الإسلامية، وأعرب عن استعداد فرنسا لتقديم العون اللازم لتجهيز الدولة. وأخبره أن خط ديغول الهاتفي مفتوح وهو ينتظر الجواب، وتوالت البعثات فكان هذه المرة دور رئيس الوزراء قيشار مرفوقا بالكولونيل الجزائري -علي مراد- من

1 الشيخ بيوض: ولد بالغرارة بتاريخ 1899/04/21، وبها نشأ وترعرع وهب حياته للعلم، فهو عضو بجمعية العلماء المسلمين، توفي في 1981/01/14، السياسة الفرنسية في الصحراء ما بين 52-62، محمد بن دارة، ص 145-146.

الأغواط إلى منطقة ميزاب في أكتوبر 1959، وعقد اجتماعا في قصر بلدية غرداية حضره نائب ميزاب في المجلس الجزائري، ونوابه في مجلس العمالة بورقلة، ورؤساء بلديات ميزاب السبع، فبذل الوفد محاولات يائسة عن إقناعهم بقبول فصل الصحراء عن الجزائر.<sup>1</sup>

وقد عبرت جريدة المجاهد، اللسان المركزي للثورة الجزائرية وجبهة التحرير الوطني عن حجم هذه الجريمة، وانفردت في توجيه الاتهام لهذا الكولونيل الجزائري، ووصفته بالخائن الذي باع نفسه للإدارة الفرنسية وبأنه يتحرك علنا للدفاع عن المصالح الاستعمارية وعميل للأوساط المالية الفرنسية وغلاة المعمرين...<sup>2</sup>، كما تحدثت الجريدة عن مختلف المساعي التي قام بها هذا الأخير بداية من 1959 سعيا للإعلان عما سمي بالجمهورية الصحراوية المستقلة من خلال اجتماعاته بالأعيان في كل من الأغواط وورقلة في خريف 1960، ثم سانت أوجان بضواحي العاصمة وأخيرا بورقلة في أفريل 1961 وما رافق ذلك من أساليب مختلفة للضغط والتهديد<sup>3</sup> مارستها الإدارة الاستعمارية على الأعيان والسكان، وأخيرا قيامه بزيارة إلى النيجر في 04/12/1961 رفقة ماكس لوجان الذي قدمه إلى الرئيس النيجيري على أنه ممثلا لسكان الصحراء وكيف رفض هذا الأخير ما عرض عليه من أمر الجمهورية الصحراوية المستقلة قائلا: "لن أعين أبدا وبأي شكل على خلق كطنغا صحراوية"<sup>4</sup>، ويشير الشيخ بيوض أنه تلقى دعوة من

1 الحاج موسى بن عمر، السياسة الفرنسية في الصحراء الجزائرية، 1962/1945، منطقة ميزاب نموذجاً، مذكرة نهاية السنة الثانية ماجستير معهد التاريخ-1992/1993، ص 51-52.

2 Elmoudjahid, « Les agissement de Boubaker », N° 89, Janvier , 1962, vol3, P666-668.

3 تقرير الملتقى الجهوي الثاني لكتابة تاريخ ثورة نوفمبر 1954 (للولاية السادسة) - المنعقد بمدينة بسكرة 5-6 فيفري 1958 المنظمة الوطنية للمجاهدين.

4 المرجع السابق

السيد حمزة بوبكر للاجتماع به في الأغواط، حيث تحدث مباشرة حول قضية الصحراء، وحول هذا الاجتماع يقول الشيخ بيوض: "وكان في حديثه غموض ولف ودوران، فصارحته بالحقيقة التي لا محيد عنها، إننا جزائريون ومصيرنا هو مصير الجزائر وكفى، لا نبغ بذلك مثيلا مهما كان الثمن، وعلمت أنه اجتمع بآخرين، لكنني لم أعلم ما دار بينهم فعدت أدراجي لميزاب وتركتهم بالأغواط".<sup>1</sup>

ومنذ ربيع 1960، عقدت اجتماعات سرية بين المسؤولين العسكريين والمدنيين والأعيان حول فكرة فصل الصحراء عن الجزائر، وفي خريف 1960 انعقدت دورة المجلس العمالي في ورقلة، وفي غضون أشغال الدورة، أعلن رئيس المجلس حمزة بوبكر أن جلسة المساء ستكون مغلقة، اجتمع النواب المسلمون والفرنسيون في الوقت المحدد وافتتح الكلام رئيس المجلس وكشف عن اللقاء بالجنرال ديغول وما جرى بينها من حديث حول الصحراء، ثم طلب رأي النواب وحسم الشيخ بيوض الموقف<sup>2</sup>، بقوله: "أرى ان فرنسا لم تكن تستشيرنا في سياستها في هذه البلاد، ولم تستشيرنا يوم قطعت الصحراء، وجعلت لها نظام التراب الجنوبي وتتحكم كما تريد، بل أكثر من هذا كنا نطلب أشياء من حقنا ونرفع أصواتنا بها فلا سمعنا حتى في تطبيق قوانين سنتها هي، لا أنت أيها الرئيس ولا أنا ولا أحد من النواب يملك أكثر من بطاقة استفتاء يليقها يوم الاستفتاء".<sup>3</sup>

وقد استمر حمزة بوبكر في لقاءاته وخدمته المجانية للمستعمر، فعقد لقاء في أبريل 1961 ضم 54 شخصية من أعيان الصحراء، واستعان هذه المرة بالشرطة الفرنسية لإجبارهم على الحضور وتم الاجتماع في بيت والي الواحات بورقلة لكنه

1 الشيخ بيوض، أعماله في الثورة نشر جمعية التراث بالقرارة- غرداية، 1990، ص 34.

2 فصل الصحراء في السياسة الإستعمارية، ص 50.

3 المرجع السابق، ص 51.

فشل<sup>1</sup>، يؤكد الشيخ بيوض أن أساليبيهم كانت مختلفة في الإقناع في عرض القضية وطلب الرأي بفائدة انفصال الصحراء عن الجزائر، وجعلها جمهورية مستقلة تجمعها فرنسا وتحتضنها إلى غير ذلك<sup>2</sup>.

أما الشخصية الأخرى التي كانت محل اهتمام القادة الفرنسيين العسكريين منهم والمدنيين هي شخصية "أخاموخ" الذي تلقى عرضا من ديغول مباشرة سنة 1958، وتضمن هذا العرض منح الاستقلال لمنطقة التوارق. والتي تشمل منطقة الهقار حتى الحدود الليبية شرقا، بالإضافة إلى المناطق الشمالية الأهلية بسكان التوارق لكل من مالي والنيجر<sup>3</sup>، وفي هذا الصدد اجتمع "ميشال دوبري" في تمناست 1960، وجاء بأعيان التوارق من مالي وتشاد والنيجر، ودام اللقاء أسبوعا كاملا، وعرض على الباي الحاج أخاموخ تنصيبه سلطانا على كل التوارق في دولة إسلامية تضم كل الجنوب الجزائري، فرفض بقوله: "أنا جزائري ينال ما ينال باقي الجزائريين"<sup>4</sup>.

وقد تلقى "أخاموخ" عرضا ثانيا بعد أن يأس ديغول من مسعاه الأول ودعاه إلى باريس لحضور احتفالات العيد الوطني الفرنسي بتاريخ 14 جويلية 1960، وبعد أن قدم أخاموخ على رأس وفد من التوارق وحضر الاحتفال والعروض العسكرية، استقبل من طرف الوزير الأول "ميشال ديبري" وعرض عليه هذا الأخير العرض السالف الذكر، عرض فيه لهجة المساومة والتهديد ولكن جواب

1 درواز الهادي، الولاية السادسة التاريخية تنظيم ووقائع، 1954-1962، دار هومة، الجزائر، 2002، ص 132.

2 الشيخ بيوض، أعماله، ص 38.

3 MohamedGuentari, organisation politico-administrative et militaire de la révolution algérienne de 1957-1962 alger, o.p.u, 1994, 2vol, 949, PP678.

4 بوشارب عبد السلام، الهقار أمجاد وأنجاد، نشر المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر، 1995، ص 143.

أخاموخ كان "نحن جزء من الجزائر وهي مستعمرة وسنبقى جزء منها عندما نستقل".<sup>1</sup>

وكان ديغول في تصور المستقبل السياسي للصحراء، ينطلق من مقاطعة ثلاثة بالصحراء، تضاف إلى مقاطعتين أخريتين يتم إنشاؤهما بالجزائر الشمالية هما: مقاطعة غربية خاصة بالأوروبيين والمسلمين الموالين لفرنسا، ومقاطعة شرقية خاصة بالمسلمين الجزائريين الموالين لجهة التحرير الوطني، حيث تتمتع كل مقاطعة من المقاطعات الثلاث بالاستقلالية الذاتية، لأنها في نفس الوقت تتعاون فيما بينها مع فرنسا في إطار اتحاد فيدرالي من جهة أخرى، كما أنه يحذر من عدم تعاون مقاطعة جبهة التحرير الوطني مع هذه المقاطعات لأنها ستكون حينئذ قد جنت على نفسها، وحينها يشرع في تقسيم وتجزئة الجزائر تجزئة سياسية حيث تكون هناك "جمهورية صحراوية" جنبا إلى جنب مع جمهورية الجزائر الخاصة بالأوروبيين والمسلمين الموالين لفرنسا، وتحصل هاتان الأخرتان على الاعتراف من طرف الأمم المتحدة وتنالان العضوية فيها على غرار مالي وموريتانيا والسنغال.

لكن السؤال الذي يتبادر إلى الأذهان هل كانت هذه المؤامرة لفصل الصحراء مناورة أم حقيقة، وهل كان بمقدور فرنسا الاحتفاظ بالصحراء؟

يرى البعض أن ديغول حين أعلن عن فكرة التجزئة كان يهدف إلى مناورة سياسية للضغط على جبهة التحرير الوطني بعد فشل مفاوضات "لوگران".

وأن أهم رأي نسجله في هذا الصدد رأي السياسي والكاتب الفرنسي "ألان بيارفيت"<sup>2</sup> وهو مقرب من الرئيس ديغول، حيث قال له هذا الأخير في شهر

1 محمد بن دارة، السياسة الفرنسية في الصحراء، ما بين 52-62، ص 148.

2 آلان بيارفيت: سياسي وكاتب فرنسي ولد سنة 1925، نائب في البرلمان الفرنسي وتولى الوزارة وله عدة مؤلفات.

جويلية 1961: "أنت الذي تكتب، لماذا لا تعمق هذا الحل أي التجزئة في مقالات صحفية؟<sup>1</sup> وهو ما كان فعلا إذ نشر مقالا في هذا المسعى بتاريخ 04 أوت 1961 بالصحيفة الفرنسية وبعد هذا ذكر صاحب المقال بأن جورج بومبيدو G. Pompidou اتصل به وأخبره بموافقة الجنرال ديغول على ما كتبه، ويتمنى أن يقوم بعمل أهم، واقترح عليه كتابة مجموعة من المقالات في نفس الموضوع بجريدة « Le monde ».<sup>2</sup>

نكتفي من خلال هذا العرض بالقول أن هناك على الأقل نية من طرف ديغول للمضي في هذا الهدف وهو التجزئة، لكن هناك طرف آخر من السياسيين والكتاب يرون أن هذه المؤامرة لم تكن سوى مناورة من ديغول، حيث لا يقتنع بها هو في قرارة نفسه، وما يمكننا قوله هو أن المشروع طرح بقوة وفرض نفسه على الساحة السياسية والعسكرية سواء تعلق الأمر بالسلطات الاستعمارية الفرنسية أو بجهة التحرير الوطني وستتعرف في المحور الأخير من هذه المداخلة على موقف سكان الصحراء وكيفية تصديهم لهذه المؤامرة.

### 3- موقف سكان الصحراء من السياسة الفرنسية:

لقد أدى تطور الثورة الجزائرية وموقفها الراض للفصل، إلى التسليم بضرورة أن أي حل سلمي للقضية الجزائرية لا يكون إلا عن طريق المفاوضات مع الحكومة المؤقتة، وكان هذا الضغط كذلك من الثورة، وراء تراجع الحكومة الفرنسية عن فكرة التقسيم، وبدأ الاعتراف بالسيادة الشعبية على الصحراء، وتأجيل التفاوض حول ملف التعاون بعد تقرير المصير.

1 محمد بن دارة، السياسة الفرنسية، المرجع السابق، ص 149.

2 لموند جريدة يومية ظهرت في باريس منذ 18 ديسمبر 1944، وهي يومية حرة تميل نحو اليسار.

أما عن سياسة الجبهة فقد كان لمجهود الثورة الجزائرية في الصحراء نتائج باهرة على المستوى الشعبي العام، توجت بذلك التجاوب الواسع والكبير الذي لقيه إعلان الحكومة المؤقتة، في جعل يوم 05 جويلية يوما وطنيا ضد التقسيم، إذ خرج سكان الصحراء في مظاهرات عارمة مطالبة بالصحراء الجزائرية والوحدة الوطنية، وكان أشهر هذه المظاهرات مظاهرات مدينة غرداية في شهر سبتمبر 1960، ومظاهرة تقرت 1961، ومظاهرة ورقلة 1962/10/28، والتي أرغمت فيها الجماهير وزير فرنسا المكلف بالصحراء على العودة من حيث أتى بعدما كان يعزم الاجتماع بجماعة حمزة بوبكر.<sup>1</sup>

ولم تقتصر المظاهرات على المدن الجنوبية، بل تعدتها لتشمل الشمال، وقد اعترفت الصحف الفرنسية بأن الإضراب كان عاما في كل مدينة وقرية بنسبة 100٪. واعترفت بأن الجبهة نجحت في أهدافها التي قصدتها من جعل يوم 05 جويلية يوما وطنيا ضد التقسيم.<sup>2</sup>

ومن خلال هذا يتبين لنا حجم التعبئة التي قامت بها الثورة، والتي كانت واسعة النطاق، وشملت جميع الشرائح الاجتماعية، بما فيها الفعاليات والشخصيات المحلية والدينية، وتوعيتها بمخاطر التقسيم، والهدف من وراء المشاريع الاستعمارية.

وما يمكننا قوله كذلك في هذا المحور من هذه المداخل هو أن الثورة وجدت لها في نفوس أهل الصحراء مكانا، وأرضا خصبة لها وذلك من خلال تفاعلهم معها، وكذلك نتيجة الوعي القومي والثوري الذي وجد منذ أمد بعيد بفضل الحركة الوطنية بمختلف تنظيقاتها السياسية وخاصة حركة الانتصار للحريات

1 التقرير الجهوي للولاية السادسة بسكرة، 1959-1962.

2 الغالي الغربي، السياسة الفرنسية لفصل الصحراء وردود الفعل، ص 271: فصل الصحراء، أنظر كذلك المجاهد 1967/07/17

الديمقراطية التي طال تنظيمها جميع المدن الصحراوية مثل الوادي وورقلة وغرداية والمنيعه ومثليبي وغيرها بما في ذلك تندوف.<sup>1</sup>

كما أنه حتى المجندين من الأهالي في فرق ما كان يعرف "بالمهاري"<sup>2</sup> التي أنشأتها فرنسا من أجل بسط سيطرتها على الصحراء وسكانها بشكل أكبر، أصبحوا خطرا على فرنسا وقواتها في كثير من الأحيان لأنهم كانت لهم عمليات انقلاب كبدت قوات الاستعمار العديد من الخسائر، كما يحكي ذلك الجنرال بيجار نفسه في أن مجموعة من المهاريين التحقوا بالثورة وقتلوا سبعين شخصا بين إطار وضابط وأخذوا الأسلحة والجمال.<sup>3</sup>

وقد كان هذا التغير في سلوك الأهالي المجندين في فرق المهاري الصحراوية يسجل حضوره منذ سنة 1943 أي بعد هزيمة فرنسا في الحرب العالمية الثانية، وكذلك ما يمكننا الإشارة إليه في هذا الموضوع أن الشعابنة<sup>4</sup> ظلوا ولفترة طويلة يمثلون أهم العناصر المجندة بفرق المهاري والقوة الضاربة لها بعد أن أحكمت قبضتها على الصحراء وكان لهم الفضل في ذلك بعد أن استغلت فرنسا فيهم معارفهم الفطرية والمكتسبة في معرفة أسرار الصحراء ومعرفة مسالكها وكيفية

1M. Guentari, vol2, P694-695.

2 فرق المهاري الصحراوية Compagnies Meharistes sahariennes تم إنشاؤها بمرسوم 01 أبريل 1902 بمبادرة من لابرين Laperrine وكان مبدأ إنشائها يقوم في جوهره على ما يلي: إسناد مهمة إقرار الأمن بالصحراء إلى وحدات عسكرية تتمتع بالكفاءة والفعالية العالية وقلة النفقات، يتم تجنيد عناصرها من البدو المتواجدين بعين المكان، تعهد إليهم مهمة التكفل بأنفسهم من لباس ومؤونة وراحلة وكان عددها في بداية الأمر ثلاثة، واحدة في إقليم تيديكلت وأخرى في إقليم توات وثالثة في قورارة.

3 Crier Ma vérité, Bigeard, P 160

4 الشعابنة: مهدهم مثليبي - حوالي أربعين كلم جنوب غرب مدينة غرداية، ومنها انتشروا بكل من غرداية والمنيعه وورقلة، كما توجد أعداد منهم بكل من واد سوف، والساورة بناحية بشار، وإقليم توات وتمنراست، وحتى بهالي والنيجر.

الاهتداء فيها وكيفية السفر بالجمال إلى غير ذلك من الخصائص الأخرى التي تتعلق بالروح البدوية الصحراوية، لكنهم ورغم هذا كانوا السابقين لتلبية نداء الجهاد ولهم في هذا المجال صفحات مشرفة على غرار ما حدث في ثورة أولاد سيدي الشيخ وبوعمامة، وقد ساهموا في انتشار الثورة في كافة ربوع الصحراء لمعرفةهم بها كما أشرنا سابقا.<sup>1</sup>

وحسب التقرير الجهوي الثاني لكتابة تاريخ ثورة نوفمبر 1954 للولاية السادسة أن مجموعة من المجاهدين يرأسها محمد مزيان كلفت بالتوجه إلى أقصى الجنوب بهدف دعم التنظيم السياسي والعسكري بوادي ميزاب وملتيلي والمنيعة وعين صالح وتامنغاست، وكانت من أهم مهامها جمع السلاح والتنظيم الشعبي والفدائي كان ذلك في أول أكتوبر 1956 وعلى أساس التوجيهات والتعليمات المكتوبة للقائد سي الحواس باشرت عملها ابتداء من بريان والقرارة وغرداية وملتيلي.<sup>2</sup>

وقد كانت المجموعات تنطلق من ملتيلي أساسا التي كان إقبال مناضليها على الثورة إقبالا حماسيا ثم شمل بعد ذلك هذا النشاط كل قصور غرداية، وهو ما تم كذلك في المنيعة وعين صالح وتامنغاست، حيث توجت الاتصالات بالنجاح والتوفيق، وذلك لأن عامل طبيعة نشاط السكان كتجار بصفة عامة جعلهم متواجدين عبر التراب الصحراوي، كما أن صلة القرابة سمحت لهذه المجموعات أن تتصل بالشعب بهذه المدن بطريقة منهجية تصب على أساسها التنظيم المناسب، ووصل بنسبة كبيرة تنصيب اللجان في بريان والقرارة وغرداية وملتيلي والمنيعة أما بناحية وادي سوف فيقدم لنا كل من العمارة سعد وعون علي تسجيلا ب 11 معركة وحادث وقع بالقرب من العمران، و 16 ما بين معركة وحادث وقعت على

1 El moudjahid, N° 40- 24 Avril 1959, vol2, P 233.

2 التقرير الجهوي لكتابة التاريخ بسكرة، 1985.

الحدود الجزائرية الليبية<sup>1</sup>، لكن في عين صالح وتامنغاست كان الأمر صعباً نظراً للسيطرة المطلقة للسلطات الاستعمارية من جهة إنزال المنطقة عن باقي المدن الأخرى من جهة أخرى، وللعلم فإن هذه المرحلة الأولى لنشاط الثورة لم تسمح بإقامة فرق الجيش وذلك للأسباب التالية:<sup>2</sup>

- الوسط الطبيعي التضاريسي وتباعد المناطق الأهلة بالسكان، يجعلان من الصعب إقامة فرق مسلحة زيادة على صعوبة التمويل.
- التواجد العسكري المكثف في هذه المنطقة سرعان ما ينكشف، لذلك عملت الجبهة بإستراتيجية العمل الفدائي وهذا لإثبات وجود الثورة والتدليل على أن أهل الجنوب مستعدون لبذل أرواحهم بنفس الحماس والتضحية التي برهن عليها إخوانهم في الشمال.

#### 4-إنشاء الجبهة الجنوبية بأقصى الصحراء وتفاعل السكان معها:

بقي العمل الثوري في الأساس مسند إلى تنظيمات شعبية و فرق فدائية تقض مضاجع الاحتلال وتثبت التواجد العملي للثورة، وتعد سنة 1957 سنة هامة وحاسمة في مشاركة السكان الصحراويين في الثورة، وتميزت بتزايد أعداد المنخرطين منهم بها وتكثيفهم للعمليات العسكرية التي اتسع نطاقها لتشمل كل من متليلي وغرداية وورقلة، والتحقّت أعداد منهم بكل من المنطقة الثالثة والأولى وأعداد أخرى بجبال القعدة وجبال العمور بناحية آفلو والبيض.<sup>3</sup>

1 العمارة سعد وعون علي، معارك وحوادث حرب التحرير بمنطقة وادي سوف، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1988، ص 7-8.

2 فصل الصحراء في السياسة الاستعمارية، سلسلة الدراسات والبحوث، ص 86.

3 بعد معركة أفرانة التي وقعت مع القوات الفرنسية بشبكة متليلي سنة 1957، تعرض التنظيم الثوري بالمنطقة لبعض الهزات، التحق ما يقارب 111 مجاهد بناحية البيض (منهم 75 مجاهد

وقد نجحت جبهة التحرير الوطني في التصدي للمخططات الفرنسية من الناحية النفسية والعسكرية إلى حد ما<sup>1</sup>، وكان الشعابنة أول من ساهم في إنشاء الجبهة الصحراوية بأقصى الجنوب حيث انطلقت منهم أول وحدة لجيش التحرير مكونة من 35 مجاهدا نحو تامنغست في أوائل 1957. وهذا دون أن ننسى نشاطهم الثوري الآخر الذي كان وراء فرار أعداد هامة من المجاهدين المجندين في فرق المهاري كما أشرنا سلفا من "شعابنة" و"توارق" و"رقيبات".

وتعتبر موقعة "حاسي صاكة" من أشهر المعارك في هذا الصدد حيث تم التحضير والتخطيط لها أكثر من أربعة أشهر، وحاسي صاكة هو بئر يقع شرق مدينة تيميمون على بعد حوالي 90 كلم، و35 كلم على تينركوك وكانت المعركة يوم الثلاثاء 01 أكتوبر 1957 شارك فيها عدد من الفارين والمتمردين من الجيش الفرنسي من أبناء المنطقة، والذين نفذوا العملية بنجاح وفق الخطة المعرفة<sup>2</sup>. وتمكنوا من الفرار نحو توات وعددهم 69 من المحاربين وقتلوا 08 ضباط فرنسيين وتحصلوا على 130 قطعة من السلاح من عيارات مختلفة منها: (3 رشاشات عيار 24 ملم - رشاش عيار 12/49 - 12 مسدسا من مختلف العيارات، 15 قنبلة، كمية كبيرة من الخراطيش (حوالي 08 صناديق) - 3 ملايين فرنك - حوالي 250 جمل - كمية من الألبسة و05 أجهزة راديو للاتصال)<sup>3</sup>.

---

من متبلي و36 مجاهد من المنبعة: أنظر التقرير المقدم لندوة الجهوية لكتابة تاريخ الثورة لفترة ما بين 1956-1958 للولاية السادسة، جانفي 1958.

المركز الوطني للأرشيف، Boite 11، DZ/AN/2G/011/01/014، C-N-A N° 146-

2 مولاي عمر الطيب، مداخلة في التعريف بمعارك العرق الغربي الكبير تيميمون، المنطقة الثالثة، الناحية الثالثة للولاية الخامسة التاريخية.

3 نفس المرجع السابق، أنظر كذلك علي العياشي (معركة حاسي صاكة) مجلة أول نوفمبر، عدد 77، 1986، ص ص 20-23.

وأثناء مقارنتنا للنتائج في هذه المعركة بين مختلف المصادر فقد وجدنا اختلافا طفيفا بين المصادر الجزائرية خاصة ما يتعلق بالتقارير وأرشيف الولايات، أما في المصادر الفرنسية فإن الأمر يختلف كثيرا وهذا طبيعي لأن الاستعمار ومن كتب له لا يريدون تصويره بهذه الحالة التي تجعله ضعيفا أمام الثورة وصمود أهلها رغم عدته وعتاده.<sup>1</sup>

وللإشارة فقد كانت منطقة تيميمون مهياً للثورة كباقي أنحاء الوطن لتقوم بالدور المنوط بها، وقد تجلّى ذلك منذ البداية في جمع المؤونة وكانت المنطقة في أول الأمر قاعدة خلفية للولاية الخامسة<sup>2</sup>. ومن أهم المراكز التي ساعدت على إمداد الثورة بالزاد والمؤونة: -مركز "حاسي وسكير" -ومركز "حاسي الفقرة" - "وحاسي بوخلالة"، و"حاسي تسلقة".<sup>3</sup>

وأما عن ثوار الهقار وعاصمتهم تمنغاست، نجدهم منذ 1957 أي بعد زيارة الأخوين محمد جغابة ومحمد شروف، قد شكلوا تنظيماً للثورة بمنطقتهم، استطاع تجنيد ما يزيد عن مائتي رجل منهم بجيش التحرير.<sup>4</sup>

أما عن توارق الأجار بمنطقة "جانت"، فقد شاركوا كذلك بدورهم في الثورة، وانقادوا من كامل وجودهم في الحدود الليبية الجزائرية وتقوية جيش التحرير بها "الجبهة الليبية" وانخرط عدد منهم في جيش التحرير، وساهموا من

1 Crier ma vérité, Bigeard, France, ed 2002, P236, P160 Combats sahariens, P 62.

2 مديرية المجاهدين لولاية درار الملتقى التاريخي الخاص بمعارك العرق الكبير، تيميمون في 22-21 ديسمبر 1997.

3 حوتية محمد صالح، مداخلة للتعريف بمعارك العرق الغربي الكبير، الملتقى التاريخي الخاص بمعارك العرق الكبير، تيميمون في 22-21 ديسمبر 1997.

4 M. Guentari, vol2, PP 67-675.

ليبيا في انطلاق عدة عمليات عسكرية استهدفت مراكز اقتصادية وعسكرية للعدو، المتواجدة على مقربة من حدود البلدين.<sup>1</sup>

كما وقف بنو ميزاب (من جماعة الإياضية) بدورهم موقفا مناهضا للسياسة الفرنسية محصنين باستقلاليتهم وخصوصيتهم الاجتماعية والثقافية، وقد مكّنهم هذا من تحقيق جملة من المكاسب كالاستقلال في تسيير مؤسساتهم الدينية والاجتماعية، حرية تعليمهم الديني، الإعفاء من التجنيد الإجباري، وهي مكاسب لا خلاف في أهميتها خاصة في منطقة تخضع لحكم عسكري.<sup>2</sup>

ولا يمكننا صرف النظر عن طبيعة بني ميزاب أو المجتمع الإياضي الذي هو مجتمع "الجماعة"، فلا صوت يعلو على صوتها، ولا مجال للمبادرات الفردية ولذلك وجدت الثورة صعوبة للوصول إلى قلب هذه المنطقة ذلك أن موضوع اعتناق الثورة والانخراط فيها يصبح عندئذ موضوع قناعة عامة هي قناعة الجماعة خلافا لما يحدث في المناطق الأخرى.<sup>3</sup>

مع أن هذا لا يقلل من شأنهم في دفع مسيرة الثورة، فلقد كانت لهم إسهامات عديدة ومواقف مشرفة.

وفي الأخير إن تركيزنا على هذه القبائل والعناصر السكانية لا يعني إغفال باقي المناطق الأخرى كتقرت والوادي وبشار وعين صالح وتوات<sup>4</sup>، فقد كانت

1 A.W.O .A.F.P, Sahara O.C.R.S, « la rébellion algérienne au pays Touareg 25/10/1997, PP 5-16 أرشيف ولاية وهران

2 محمد بن دارة، المرجع السابق، ص 209.

3 الزبير بوشلاغم، المقال السابق، ص 43.

4 أنظر تواتي دحمان وآخرون، الثورة التحريرية في أقاليم توات، 1962/1956، منشورات جمعية مولاي سليمان بن علي، الجزائر، 2004.

هذه المناطق كلها نائرة ضد الاستعمار على غرار معركة الشواير بالأغواط سنة 1956، وكان عدد المجاهدين يناهز فيها 400 مجاهد.<sup>1</sup> أما عن اللجان المدنية فقد أدت دورها على أكمل وجه وتحملت مسؤولياتها، وهكذا كان للمراكز المدنية والعسكرية للجبهة الجنوبية فضل في نشر الثورة التحريرية وتعميم نظامها في إقليم توات وتمنراست<sup>2</sup> وقد توزعت مسؤولية قادة الجبهة الجنوبية على النحو التالي<sup>3</sup>:

عبد العزيز بوتفليقة: قائدا سياسيا وعسكريا على المنطقة.

عبد الله بلهوشات: عضو قيادة المنطقة مكلف بالشؤون العسكرية.

محمد شريف مساعدي: عضو قيادة المنطقة مكلف بالشؤون السياسية.

أحمد دراية: عضو قيادة المنطقة مكلف بالاتصالات والأخبار.

عيساني شويش: مسؤول مصلحة التموين.

بشير نور الدين: مسؤول مصلحة الصحة.

لقد حاولنا من خلال هذه الورقة البحثية تسليط الضوء على مواقف سكان الصحراء التي عرفتها ربوع الولاية السادسة حتى سنة 1962م في مجاهبتها للسياسة الفرنسية ومشاريعها في الصحراء التي تعددت أشكالها، ورغم ذلك فشلت في بلوغ أهدافها، بفضل ما قام به أولئك الأبطال المجاهدين الشرفاء، الذين بفضل إيمانهم بقضيتهم العادلة رفعوا مشعل العمل الثوري في المناطق الصحراوية، وأفشلوا مخططات الاستعمار ورفعوا لواء الصمود رغم كل الصعوبات والتحديات وقهروا المحتل ودحروه عن أرضهم.

1 ابن حرز الله شارف، دور منظمة الأغواط في الثورة الجزائرية، 1954-1962، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ المعاصر، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 2003-2004، ص 80.

2 جمال يحيوي، تطور جيش التحرير الوطني 1956-1962، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة وهران، قسم التاريخ، ص 325.

3 نفسه، ص 318.

## التفاعل التجاري والثقافي بين السودانيين والمغاربة خلال القرن 10هـ/16م

الطالب الباحث: عميمور أيمن،

جامعة الجزائر (02) أبو القاسم سعد الله.

### مقدمة:

يشمل السودان الغربي بمفهومه الواسع المنطقة المحصورة بين المحيط الأطلسي غربا والصحراء الكبرى شمالا وبحيرة التشاد شرقا، وخليج غانا جنوب خط عرض 10، شمال خط الاستواء، وصل إليه الإسلام في وقت مبكر، واشتهر بقيام عدد من الإمارات والممالك في العصرين: الوسيط والحديث على رأسها مملكة غانا ومملكة مالي ومملكة سنغاي، ومن المعروف أن العلاقات التي ربطت السودان الغربي بالشمال الإفريقي مند القديم إلى أن جاء الاستعمار الأوروبي إلى المنطقة، كان لها الفضل في حدوث تراكم وتفاعل حضاري بين الطرفين، وقد انتظمت وتوطدت تلك الصلات بين الجانبين عبر قنوات متعددة كالتجارة، لكن البعد الديني كان حاضرا بقوة في هذه العلاقات من خلال الأدوار المختلفة التي اضطلعت بها بعض المؤسسات الاجتماعية والجماعات الدينية كالزوايا والمساجد والكتاتيب، وكانت التجارة بمثابة المحرك والميكانيزم الحقيقي لتلك الروابط التي جمعت بين الطرفين وكانت الوجه الأكثر وضوحا من أوجه تلك العلاقات باعتبارها المنطلق الأول الذي نبعت منه وترتبت عنه الروابط الأخرى السياسية منها والاقتصادية والحضارية وحتى العقائدية.

بعد الفتح الإسلامي لشمال إفريقيا تولى المغاربة تأمين أسواق السودان الكبرى وعملوا على تنظيم المواصلات مع هذه البلاد على أساس تجاري أولا ثم ما فتئ يتوطد عبر الفترات التاريخية اللاحقة حاملا معه مجموعة من التنظيمات الاجتماعية والدينية والحضرية، حيث كان للإسلام الفضل الأكبر في نقل اللغة

العربية ومختلف علوم الدين إلى أماكن كثيرة من السودان الغربي، ولم يكن لجهود الدعاة والوعاظ ولا لحلقات العلم في الجوامع من هدف سوى تعريف السودانين بالآداب الإسلامية وقواعد الدين وتنظيم المجتمع على أسس جديدة، والقول بأن الفكرة الإسلامية التي تحالفت مع التجارة كانت العامل الأساسي في بناء الممالك السوداء، لا يعني بالضرورة قيام مجتمع يعتمد في تجانسه الفكري والحضاري على الثقافة العربية الإسلامية.

ولم تكن الصحراء الكبرى في يوم من الأيام تعيق التواصل بين بلدان المغرب الإسلامي وإفريقيا ما وراء الصحراء، فهي بذلك صلة وصل أكثر من كونها صلة فصل، فقد شق أديمها آباؤنا وأجدادنا بإمكانياتهم البسيطة وعلى رواحيلهم، في حركة دؤوبة شمال جنوب وجنوب شمال نتج عنها تأثير وتأثر وان كانت هاته العلاقات في الماضي تقوم على التجارة فقط، فقد أصبحت بالتدرج تشمل جميع جوانب الحياة، واتسمت بالثبات والتطور عبر الأجيال خاصة بعد انتشار الاسلام في افريقيا ما وراء الصحراء، لذلك حدث تلاحق بين الحضارتين العربية و الإفريقية في جميع الميادين في ظل الحضارة الإسلامية.

### أولاً: الحركة التجارية في السودان الغربي:

لقد اعتمدت كل الممالك التي حكمت السودان الغربي، على التجارة وما تجنيه من أرباح لدعم حكمها ولذلك اهتمت بتنظيمها وتخصيص مراكز لها، وكانت بلاد السودان الغربي الموضع الأمثل لهذه التجارة بين البلاد الواقعة جنوبها والبلاد الواقعة شمالها فيما وراء الصحراء، واعتبرت كذلك منطقة عبور للسلع بين المنطقتين التي لا غنى لإحدهما عن الأخرى فيما يخص عصبي هذه التجارة وهما الذهب والملح من جهة، والعبيد وريش النعام والعنبر وبعض التوابل، والثياب والأواني النحاسية والزجاجية والتمور من جهة أخرى، وهناك نوعين من التجارة، التجارة المحلية والتجارة البعيدة الأولى يقصد بها المعاملات التي تجري

داخل دائرة يبلغ نصف قطرها حوالي عشرة أميال من منطقة الإنتاج، وذلك هو المدى الذي كان يمكن تغطيته في يوم واحد سيرا على القدمين، أو على ظهر الحمار<sup>(1)</sup>، في أسواق محلية يوجد فيها بعض الدكاكين البسيطة كان يتبادل فيها السلع الرخيصة وتوضع في العراء، أما التجارة البعيدة كانت تتم في أسواق جهوية وأسواق كبرى، يأتيها التجار من كل مكان، وتوجد فيها بضائع أكثر كمية، ويتم فيها التبادل بين السلع المحلية والصادرة إليها، وتعقد فيها صفقات كبيرة<sup>(2)</sup>.

### 1. الطرق التجارية:

لقد لعبت الطرق التجارية العابرة للصحراء، دورا هاما في العلاقات الاقتصادية بين الشمال والجنوب، وكذا التفاعل الحضاري بينهما، وقد عبرت القوافل الصحراء في وقت مبكر من العصر الإسلامي، وكانت تخرج من المنطقة الواقعة بين وادي درعة، وساحل المحيط الأطلسي<sup>(3)</sup>، وكانت تخترق الصحراء من كل جوانبها، ومن الشمال إلى الجنوب ومن الجنوب إلى الشمال، وهذه المسالك الصحراوية عديدة، غير أن المشهور منها في الفترة المراد دراستها هي:

- من سجلماسة، ينطلق الطريق إلى ولاته ومنها إلى تمبكتو، وجنى وجاو<sup>(4)</sup>.

1 هوبكتز: التاريخ الاقتصادي لإفريقيا الغربية، تر أحمد فؤاد بليغ، تق محمد عبد الغني سعودي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 1998، ص 104.

2 عبد القادر زبادية: مملكة سنغاي في عهد الأسقيين، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، دت، ص ص 195-196.

3 الدالي الهادي المبروك: التاريخ السياسي والاقتصادي لإفريقيا فيما وراء الصحراء، الدار المصرية اللبنانية القاهرة، ط 1، 1999، ص 313.

4 عوض الله الأمين (ضمن كتاب أحمد إبراهيم دياب): تجارة القوافل بين المغرب والسودان الغربي وأثارها الحضارية حتى القرن السادس عشر، تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر، معهد البحوث والدراسات الغربية، بغداد، 1984، ص 73.

- من تلمسان ونواحيها، تأتي وتجتمع في غرداية، ومنه تنطلق القوافل إلى توات، ومن توات إلى تمبكتو مروراً بأرض الطوارق، وتستمر في سيرها الطويل قرابة شهر ونصف (1).

- من تكرت وورقلة، ينطلق طريق آخر إلى جاو مباشرة، وهذا المسلك يتصل شمالاً ببضائع الموانئ الجزائرية الهامة في الشمال، مثل جزائر بني مزغنة، وبجاية وسكيكدة وغيرها (2).

- من واحة الجريير في جنوب تونس، تتجه إلى ورقلة، ومنها إلى سوف أو غدامس.

- من طرابلس الغرب على الساحل الليبي، إلى غدامس، ويمر فرع منه بفزان، وينتهي ببورنو وجاو.

- من مصر إلى واحة سيوة، وبزويلة وتادمكة، وينتهي إلى جاو وتمبكتو (3).

وكانت هاته القوافل التي تبدأ رحلاتها في فصل الشتاء، تتعرض إلى العديد من المشاكل والصعوبات كهجمات اللصوص، وقطاع الطرق من البدو الرحل، والطوارق المثلثين، ودفع الضرائب (4)، وكانت ندرة الماء من أخطر

---

1 عبد الحميد جنيدي، مدينة تنبكت ودورها الحضاري خلال القرن 10هـ/16م، مذكرة ماجستير، إشراف خالد صابر الشريف، قسم التاريخ، كلية العلوم إنسانية، جامعة الجزائر، 2008، 2009، 59.

2 عبد القادر زبادية: الحضارة العربية والتأثير الأوروبي في إفريقيا الغربية جنوب الصحراء، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1989، ص 29.

3 زبادية، مملكة سنغاي، ص 214.

4 يحي بوعزيز: تاريخ افريقية الغربية الإسلامية، دار البصائر، الجزائر، ط خ، 2009، جزءان، ص 45.

المشاكل، التي تتحكم في مدى استمرارية القافلة ونجاحها وكما ذكر الوزان، أن الماء في صحراء صنهاجة لا يوجد إلا على مسافة سفر ستة أيام أو سبعة<sup>(1)</sup>.

## 2. المراكز التجارية على جانبي الصحراء:

### أ- المراكز الواقعة في الشمال:

سجلماسة: يصفها الحميري بأنها، من أعظم مدن المغرب الأقصى، بينها وبين غانة في الصحراء مسيرة شهرين، وبينهم وبين سجلماسة مسيرة خمس أيام، وهي قليلة الماء، يسكنها قوم من مسوفة<sup>(2)</sup>، وقال عنها ابن حوقل بأنها مركز تجاري هام، يتوافد إليه التجار، وبها أرياح متوافرة<sup>(3)</sup> ووصفها كذلك ابن بطوطة وابن خلدون وغيرهم من الرحالة المسلمين، والبكري الذي قال بأنها مدينة سهلية بها أراضي خصبة وبساتين كثيرة ومركز تجاري هام لعب دورا كبيرا في العلاقات التجارية في الصحراء<sup>(4)</sup>، وموقعها الممتاز هو الذي جعلها تتحمل الحركة التجارية، وتوفير متطلبات القوافل، وجعلتها هاته الامتيازات أم البلدان المجاورة لحدود السودان الغربي، فكانت القوافل تنقل البضائع المغربية إلى السودان، وتأتي

1 الحسين عماري: العلاقات التجارية بين المغرب والسودان الغربي في بداية العصر الحديث من خلال كتاب وصف إفريقيا مقال بمجلة الكان التاريخية، دورية إلكترونية، ع 09، 2010، ص 35.

2 محمد بن عبد المنعم الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، تح إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، ط 1، 1975، ص 305.

3 ابن حوقل أبو القاسم النصيبي: صورة الأرض، منشورات دار الحياة، بيروت، لبنان، 1996، ص 99.

4 البكري أبو عبد الله بن عبد العزيز ابن عبيد: المغرب في ذكر إفريقيا والمغرب، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة دت، ص 148.

ببضائعهم بما فيها الذهب والتوابل وغيرها، فكانوا حلقة وصل بين هذه المناطق، وازداد ثراء تجارهم بسبب تجارتهم مع السودان الغربي<sup>(1)</sup>.

**تغازة:** تقع تغازة في جنوب المغرب الأقصى، بقرب البحر المحيط<sup>(2)</sup>، والطريق الرئيسي للقوافل بين المغرب وتمبكتو، وأغلب سكانها من مسوفة، وتعتبر المصدر الرئيسي للملح، وكانت مركزا تجاريا لأهم معدن في السودان الغربي، حيث قال الحسن الوزان: "...فكان مأهولا فيه عدد من مناجم الملح تشبه مقالع الرخام، يستخرج الملح من حفر، تحيط بها أكواخ عديدة، يسكنها المستخدمون لاستخراج هذا الملح وليسوا من سكان البلدة..."<sup>(3)</sup>.

ويقول ابن بطوطة، أن تجار السودان كانوا يصلون إليها ليحملوا منها الملح، كما كان التجار المغاربة يأخذون الملح إلى السودان، وكانت الرحلة مكلفة ومتعبة<sup>(4)</sup>.

**تكدا:** تقع تكدا إلى الجنوب الغربي، من مدينة تمبكتو، بحوالي أربع مائة وخمسين كيلومترا، وقد

ازدادت أهميتها بعد اكتشاف النحاس بها، حيث تحولت قوافل التجارة إليها<sup>(5)</sup>، وأول من ذكرها العمري (ت: 749هـ/1348م) ونقل عنه القلقشندي في ق: 9/15م، وذكر أن بها مناجم كثيرة تنتج النحاس وكذلك ذكر وجود الملح أيضا، وأورد إن بطوطة الذي دخلها سنة 754هـ/1253م أن هذا المعدن يستخرج من

1 الدالي، المرجع السابق، ص ص302-303.

2 القزويني زكرياء بن محمد: آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، دت، ص 25.

3 الوزان: وصف إفريقيا، تعريب محمد حجي ومحمد الأخضر، ط 2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، دت ج 2، ص ص108-109.

4 الأمين عوض الله، المقال السابق، ص 79.

5 الدالي، المرجع السابق، ص 310.

الأرض، ويأتون به إلى البلد، ثم يوزع في بلاد السودان<sup>(1)</sup>، ومن تكدا تسير القوافل إلى بورنو حيث تجلب الجواري والعبيد، وتصدر منها السلع إلى المغرب الأقصى<sup>(2)</sup>.

**توات:** تعتبر توات مركزا من المراكز التجارية الهامة، فهي واحة في وسط الصحراء، وتعتبر همزة وصل بين الشمال الإفريقي وبين السودان الغربي<sup>(3)</sup>، ويقع إقليم توات في جنوب غرب الصحراء الجزائرية التي هي جزء من الصحراء الكبرى الإفريقية، وتبعد عن العاصمة الجزائرية بحوالي 1500 كلم<sup>(4)</sup>، وكانت تتميز بتنوع الإنتاج الزراعي والحيواني والصناعي، وكانت مرتبطة بإقليم الأزواد، وشكلوا شبكة منظمة من المواصلات، ذهابا وإيابا، مع ضمان استمرارية التجارة، وتزويد التجار ما يلزمهم من غداء وماء، بخلق مناطق للاستراحة يوجد فيها الآبار<sup>(5)</sup>.

وقد كان اليهود المحرك الأساسي للتجارة في توات، حيث كانت جاليتهم في المنطقة كبيرة وتتميز بالغنى، الشيء الذي در على توات أموالا وفيرة في تجارتها مع السودان الغربي، وكذلك في الوساطة التجارية، حيث كانوا على اتصال بأرباب

1 القلقشندي: **صبح الأعشى في صناعة الإنشاء**، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1983، ج5 ص291. أنظر أيضا: الدالي، المرجع السابق، ص 310.

2 الأمين عوض الله، المرجع السابق، ص79.

3 جميلة إحمد التكتيك: **مملكة صنغاي الإسلامية في عهد الأسكيا محمد الكبير**، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ليبيا، 1998، ص 128.

4 عبد الله كروم: **الرحلات بإقليم توات**، دار النشر دحلب، الجزائر، 2007، ص 23.

5 محمد الصالح حوته: **توات والأزواد**، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2007، ج1، ص 133.

التجارة، والشركات الأوروبية، التي كانت تتعامل مع المغرب آنذاك، وامتهنوا إلى جانب التجارة، صياغة الحلبي وسك النقود<sup>(1)</sup>.

**غدامس:** تقع مدينة غدامس إلى الجنوب الغربي من مدينة طرابلس، وتبعد عنها بحوالي 300 كلم، لها تاريخ قديم حيث كانت حصنا تجاريا في عهد الفينيقيين والرومان<sup>(2)</sup>، وقال عنها الوزان إنها منطقة كبيرة مسكونة، بها قصور وقرى مأهولة بالسكان، أهلها أغنياء، لهم بساتين نخل وأموال لأنهم يتاجرون مع بلاد السودان<sup>(3)</sup>.

وتصل إليها القوافل القادمة من طرابلس وجنوب تونس وشرق الجزائر، وتتجمع فيها، لنتجه بعض منها إلى توات فتمبكو، والبعض يتجه مباشرة نحو غات وكانو، والفرع الأخير يتجه إلى مرزق ثم إلى بورنو<sup>(4)</sup>، فصارت محطة مهمة في بداية الطريق، عبر المنطقة الوسطى من الصحراء الكبرى إلى السودان وكان حي الغدامسية في تمبكتو من أرقى الأحياء، واشتهرت بصناعة الجلود<sup>(5)</sup>.

**مرزوق:** اشتهرت كمركز تجاري لبلاد البورنو، غير أن هنري بارت ذكر بأن لها صلة ببلاد توات وغدامس، وأن صلتها مع السودان غ.، أكثر من صلتها بإقليم بورنو، وظلت كما كانت منذ القدم وحتى ق: 13هـ/ 18م المركز الرئيسي لإنعاش

- 
- 1 عبد القادر زبادية: محمد بن عبد الكريم المغيلي، مقال في مجلة الأصاله، منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية الجزائر، ع 26، 1975، ص 268.
  - 2 الدالي، المرجع السابق، ص 296.
  - 3 الوزان، المصدر السابق، ج 2، ص 146.
  - 4 جميلة إحمد التكتيك، المرجع السابق، ص 130.
  - 5 الدالي، المرجع السابق، ص 297.

قوافل التجارة القادمة من غدامس، وطرابلس إلى بلاد الهوسا وبورنو، والمركز الرئيسي لتجارة الرقيق في الصحراء<sup>(1)</sup>.

### ب- المراكز الواقعة في الجنوب:

يني أو نياني: كانت عاصمة لمملكة مالي، تستمد أهميتها من موقعها بالقرب من مناجم الذهب وبزوال مملكة مالي، انتهت أهميتها، ووصفها الوزان بأنها كانت قرية كبيرة، تحتوي على 6 آلاف عائلة وتسمى مالي، تنتج الكثير من القمح واللحم والقطن، ويكثر فيها الصناعات والتجارة<sup>(2)</sup>.

تنبكت (تمبكتو): تقع في شمال مالي، على الحافة الجنوبية للصحراء الكبرى، وحدد الوزان موقعها بقوله: "...على بعد نحو اثني عشر ميلا من أحد فروع النيجر..."<sup>(3)</sup>، بما يعرف بمنحنى نهر النيجر<sup>(4)</sup>، ومكانها موقعها المتميز من أن تلعب دورا مهما في اقتصاد شمال وجنوب الصحراء<sup>(5)</sup> وأضحت القوافل التجارية تأتي إليها مباشرة، وأصبحت سوقا للتجار وذوي الأموال<sup>(6)</sup>، وتوافد إليها التجار من داخل السودان وخارجه، خاصة من الشمال الإفريقي، في مقدمتهم المغرب الأقصى وليبيا فكان تجار سجلماسة، وفاس والسوس وغماس، وفزان

1 الأمين عوض الله، المقال السابق، ص 81.

2 نفسه، ص 82.

3 الوزان، المصدر السابق، ص 165.

4 على باري محمد فاضل، كريدية إسماعيل إبراهيم: المسلمون في غرب إفريقيا تاريخ وحضارة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 2007، ص 95.

5 الدالي، المرجع السابق، ص 307.

6 عبد الحميد جنيدي، المرجع السابق، ص 53.

وطرابلس، يعودون محملين بالذهب والرقيق، وناب الفيل وريش النعام وغيره<sup>(1)</sup>.

وكانت الكتب والمخطوطات حسب الوزن، ترد إليها من المغرب. أ.، وتباع بأثمان عالية تفوق أثمان السلع الأخرى، بالإضافة إلى الأقمشة التي تجلب من أوروبا<sup>(2)</sup>، وأعجب بخيراتها وبكثرة الحوانيت التي تتبع المنتوجات القطنية والألبسة<sup>(3)</sup>.

وقد بلغت تمبكتو ذروة الازدهار الاقتصادي في ق:10هـ/16م الذي عرف بالعصر الذهبي لتلك المدينة، حيث بلغت القوافل القادمة إليها من الشمال الإفريقي اثني عشر ألف جمل<sup>(4)</sup>.

**جاو:** كانت جاو عاصمة مند أيام ديا (ضياء) وسني علي، واستمرت عاصمة للبلاد في

عهد الأسكيين بداية من عهد الأسكيا محمد الكبير، الذي بلغت فيه أقصى اتساعها وازدهارها<sup>(5)</sup> وتقع المدينة اليوم في الشمال الشرقي من العاصمة باماكو، بجمهورية مالي، وكانت مركزا تجاريا هاما في السودان. غ. ونمت سريعا لوقوعها على نهاية الطريق الصحراوي، عبر المنطقة الشرقية والوسطى من الصحراء الكبرى المتجه نحو حوض النيل وأشرفت على حركة الملاحة والتجارة، على

1 الدالي، المرجع السابق، ص ص307,304.

2 الأمين عوض الله، المقال السابق، ص ص82-83.

3 نفسه، ص 83.

4 الدالي، المرجع السابق، ص 304.

5 جميلة إمحمد التكتيك، المرجع السابق، ص 122.

امتداد نهر النيجر وارتادتها القوافل التجارية، وأصبحت المدينة التجارية الأولى في وسط نهر النيجر<sup>(1)</sup>.

وأهم السلع التجارية التي كانت تأتيها فهي الملح من تغازه، والودع الذي يجلب من الهند بواسطة التجار المغاربة، والنحاس المسبوك من تكدا، وكانت القوافل تصل إلى تمبكتو، ومنها تتجه إلى جاو وذلك في عصر ازدهار الطرق الصحراوية بين المغرب الأقصى والسودان الغربي، في بداية ق: 10هـ / 16م<sup>(2)</sup>.

**جنى:** لها عدة تسميات، فقد سماها التجار المغاربة "جنى" و "جان"، أما الأوروبيون فسموها "غينيا" لأن ليون الإفريقي وضعها ضمن مملكة غانا<sup>(3)</sup>، وهي تقع في الجنوب الغربي، من مدينة تمبكتو على مسيرة مائتي ميل (ستمائة كيلومتر تقريبا)، وهي على خط عرض 36-31 شمالا وخط طول 9 شرقي خط غرينيتش<sup>(4)</sup>، وورد اختلاف في تاريخ تأسيسها إلا أن السعدي يورد أنها تأسست في ق: 2هـ / 623م<sup>(5)</sup>، وقال عنها أيضا "...وهي سوق عظيم من أسواق المسلمين وفيها يلتقي أرباب الملح من معدن تغازة وأرباب الذهب من أرباب ييط[...]. ووجد الناس بركتها في التجارة..."<sup>(6)</sup>، وقد حظيت بأهمية اقتصادية كبيرة، نظرا لموقعها المتميز، بعد أن دخلها سني علي عمل على تطويرها وازدادت

1 الدالي، المرجع السابق، ص ص 309-310.

2 الأمين عوض الله، المرجع السابق، ص 83.

3 Delafosse, (m), haute Sénégal Niger, libraire-éditeur Emile Larousse, Paris tome 2, 1912. T2, p181.

4 توماس أنولد: موجز دائرة المعارف الإسلامية، تح، إبراهيم زكي خوشيد وآخرون، مركز الشارقة للإبداع والفكر، ط 1، 1992 ج 11، ص 145.

5 عبد الرحمن السعدي: تاريخ السودان، تح هوداس، المطبعة الأمريكية الشرقية باريس، 1981، ص 12.

6 نفسه، ص ص 11-12.

ازدهارا في عهد الأسكيا محمد الكبير وأصبحت ملتقى للتجار داخل السودان وخارجه واستفادت من النقل النهري في نقل الملح والذهب<sup>(1)</sup>، واستطاع سكانها أن يبلغوا بتجارهم حتى تمبكتو وجاو، وإلى البلاد التي تقع عند منعطف النيجر، حتى غدت ثالث مدينة من حيث الأهمية التجارية في السودان الغربي بعد تمبكتو و جاو<sup>(2)</sup>.

### 3. السلع الواردة إلى السودان الغربي ونظم التعامل:

لقد كانت أغلب البضائع التي ترد على أسواق إفريقيا الغربية على أيام الأسكيين تأتي من بلدان المغرب العربي وهناك قسم يرد عن طريق مصر وأتى جزء آخر من داخل الصحراء.

#### أ- السلع الواردة:

**الملح:** الذي كان يمثل سلعة مهمة في تجارة الصحراء، مند القدم، أي قبل الفتح الإسلامي لشمال إفريقيا، وذلك لعدم توفره بكميات كبيرة تكفي لسد متطلبات السكان داخل أرض السودان وكانت مدينة جاو أهم المراكز للإتجار بالملح<sup>(3)</sup>، ولا تقل أهميته عن الذهب بالنسبة للمغاربة، لذلك لم يبالوا بمبادلتهم بالذهب وزنا بوزن، واستعمل كعملة للمختلف المبادلات التجارية<sup>(4)</sup>.

1 الدالي، المرجع السابق، ص 307.

2 جميلة إحمد التكتيك، المرجع السابق، ص 125.

3 الدالي، المرجع السابق، ص 324,328.

4 الأمين عوض الله، المرجع السابق، ص 84.

**النحاس:** كان يستعمل كعملة، وكأداة للزينة، كالأساور والأقراط، وجزء منه يستعمل كأوان منزلية والجزء الآخر كان في شكل لواجم للخيل، وقسم منه كان في شكل أقفال وحلق للأبواب<sup>(1)</sup>.

**الودع:** وهو نوع من الصدف، كان يجلب إلى صنغاي من قبل التجار المغاربة وجلبه الأوروبيون من الهند<sup>(2)</sup>، وقد استخدم في الأسواق كعملة بيع وشراء<sup>(3)</sup>، كما أنها تتخذ كحلي شائعة الاستعمال بين جميع طبقات المجتمع<sup>(4)</sup>.

### المصنوعات الجلدية والحديدية:

كانت القوافل التجارية تنقل بعض الأدوات الحديدية وأغلبها يستعمل لتجهيز الخيل، كالأزمة والحذب، وقسم منها كان يستعمل للحصاد والحرب، كالمناجل والسكك وقسم آخر منها يستعمل كحلق الأبواب، والسيوف، وقليلاً ما كانت تستعمل منها أدوات للزينة<sup>(5)</sup>، أما الجلدية منها، فتمثل في الدروق التي تنسب إلى لمطة، وكانت ذوا جودة عالية، تصنع من جلد حيوان اللمط<sup>(6)</sup>، وكانوا يستبدلون بالذهب السيوف والبضائع الأخرى ومنها المصنوعات الحديدية والجلدية<sup>(7)</sup>.

### المصنوعات الزجاجية:

- 1 زبادية، مملكة سنغاي، المرجع السابق، ص 219.
- 2 الدالي، المرجع السابق، ص 332.
- 3 محمود كعت التمبكتي: تاريخ الفتناس في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس، تح وتر، هوداس ودولافوس، مطبعة هوداس، باريس، 1964، ص 122. أنظر أيضاً: السعدي، المصدر السابق، ص 312.
- 4 زبادية، المرجع السابق، ص 220.
- 5 نفسه، ص 219.
- 6 الدالي، المرجع السابق، ص 331-332.
- 7 جميلة إمحمد التكتيك، المرجع السابق، ص 143.

بعضها كان في شكل طنائيس وكؤوس، والبعض الآخر في شكل حبات للأسباح، أو كرات صغيرة تدرج عقود للأعناق أو الأيدي للزينة<sup>(1)</sup>، ويقوم التجار بشراء المواد الغذائية من نساء القرى مقابل هاته الأشياء<sup>(2)</sup>، كذلك المرايا والأمشاط، ومعظمها بضائع مدن البندقية وميلان وبرشلونة<sup>(3)</sup>، بالإضافة إلى الأحجار الكريمة، التي كان مصدرها في الصحراء الفاصلة بين غدامس وتادمكة، بمختلف الأحجام والألوان، وكانت غالية الأثمان موجهة لطبقة الأثرياء<sup>(4)</sup>.

**العطور:** كانت بعض موادها الأولية مثل المسك والعنبر، تجلب من السودان، أما بقية النباتات التي تصنع منها مثل الخزامى، تجلب من المغرب الأقصى، وهي في مجملها تأتي إلى السودان من إيطاليا ويجني التجار من ورائها، أرباحا طائلة، لأنها كانت شائعة في المنطقة، خاصة في مملكة سنغاي. بين الملوك والرؤساء والقضاة والوجهاء<sup>(5)</sup>.

**التمر:** من السلع التي كانت ترد على السودان الغربي، -وخاصة إلى مدينة جنى- من الشمال الإفريقي، فقد كانت تصدر من ورجلان وسجلهاسة وغدامس وأيولاتن<sup>(6)</sup>.

1 زبادية، المرجع السابق، ص 219.

2 الأمين عوض الله، المرجع السابق، ص 87.

3 يحيى بوعزيز (ضمن كتاب أحمد إبراهيم دياب): طرق القوافل والأسواق التجارية بالصحراء الكبرى كما وجدها الأوروبيون خلال القرن التاسع عشر، تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر، معهد البحوث والدراسات الغربية، بغداد 1984 ص 134.

4 الدالي، المرجع السابق، ص 331.

5 زبادية، المرجع السابق، ص 220.

6 الدالي، المرجع السابق، ص 331.

### المنسوجات:

كان معظم لباس سكان السودان الغربي، من الصوف والقطن والحريز، خاصة ما يعرف "بالسوسية"، نسبة إلى سوس بجنوب المغرب الأقصى، وهي من الحريز الطبيعي، وسداها من القطن<sup>(1)</sup>، وكان ملوك سنغاي يفضلونه عن غيره من الأقمشة، حيث كان لباس الأسكيا داود، وهو أخضر اللون ويسمونه أيضا "بيضات"<sup>(2)</sup>، كذلك الأوروبية الصنع، وهي متقنة وخيطةا من واردات الشام إلى إيطاليا وكانت أعلى أصناف المنسوجات الحريرية في الأسواق السودانية، أما القطنية فتأتي في الأغلب من مصر والمغرب، بالإضافة إلى الصناعة المحلية<sup>(3)</sup>.

### الكتب:

كانت تمثل نوعا من أنواع التجارة، ومنها المخطوطة والمنسوخة من الورق، وذلك بسبب ازدهار الثقافة العربية، وانتشارها بشكل واسع، واهتمام العلماء بالتدريس<sup>(4)</sup>، وكانت أثمانها مرتفعة خاصة في عهد مملكة سنغاي، وكانت مدينة تمبكتو سوقا رائجة لها، فقد طلب كعت من السلطان أسكيا داود، أن يشتري له نسخة القاموس بثمانين مثقال، الشيء الذي يدل على قيمة الكتب والرفعة العلمية التي كان عليها ملوك السودان الغربي<sup>(5)</sup>، ومناطق استردادها هي المغرب الاقصى ومصر والحجاز، وقد نشأة في السودان الغربي حرفة الوراقين كتقليد لما كان في المغرب ومصر، وألفوا عدة مؤلفات، لكن الاستيراد ظل موجود<sup>(6)</sup>.

1 زبادية، المرجع السابق، ص 221.

2 الدالي، المرجع السابق، ص 334.

3 زبادية، المرجع السابق، ص 223.

4 يحي بوعزيز، تاريخ إفريقية الغربية، المرجع السابق، ج 1، ص 47.

5 الدالي، المرجع السابق، ص 330.

6 زبادية، المرجع السابق، ص 222.

## الخيول والبغال:

كانت من بين السلع التي وصلت إلى السودان من بلاد المغرب الإسلامي خاصة الأصيلة منها، إذ كان يوجد في بلاد السودان خيول صغيرة وقصيرة، يستخدمها أفراد حاشية الملك في تجوالهم بالمدينة<sup>(1)</sup>، وكان إقتناء الخيول من جهة لدعم القوة العسكرية، فقد كانت قوة الفرسان، أهم فرق الجيش خاصة في عهد الأسكيا محمد الكبير، الذي كان يطلب أحسن أنواع الجياد ويدفع مقابلها أثمنا كبيرة وسبب غلائها أن معظمها يموت مع الطري، نتيجة الحر والعطش<sup>(2)</sup>.

ومن جهة أخرى فإن امتلاك الخيل ينم عن مظهر من مظاهر الثراء، ويقول إن بطوطة أنه لم يستطع شراء حصان لترحاله من مالي، حيث كان ثمنه مائة مثقال من الذهب، بينما اشترى جملين بثلاثين مثقال من تكدا<sup>(3)</sup>، وكانت جاو سوقا رائجة لتجارة الخيول الأصيلة وسروجها<sup>(4)</sup>، وثمانها من أربعين إلى خمسين مثقالا<sup>(5)</sup>.

أما بغال المغرب العربي، فهي مرغوبة في الصحراء، وذلك لضخامتها وقوتها، وقدرتها على الكر والفر في الحروب، وكان البغل الواحد منها يقايض بـ 15 إلى 20 عبدا في بورنو<sup>(6)</sup>.

- 
- 1 الوزن، المصدر السابق، ج2، ص 166. أنظر أيضا: السعدي، المصدر السابق، ص 197.
  - 2 جميلة إ محمد التكتيك، المرجع السابق، ص 140.
  - 3 إن بطوطة محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، المكتبة التجارية مصر، 1958، ج2، ص ص 191، 199.
  - 4 مارمول كربخال: إفريقيا، تر محمد حجي وآخرون، دار المعارف الجديدة، الرباط 1989، ج3 ص ص 204-205.
  - 5 الوزن، المصدر السابق، ج2، ص 170.
  - 6 يحي بوعزيز، طرق القوافل، المقال السابق، ص 135.

ريش النعام، والأدوية العشبية، والبهارات ومواد الصباغة، والشاي، والسكر، وصمغ الصنوبر والخضر الجافة، والزيوت، والشحوم، والأغنام، بالإضافة إلى الكبريت، وكحول النساء التي تأتي من البندقية الإيطالية عن طريق التجار المغاربة<sup>(1)</sup>.

ومنه فهذه هي أهم السلع والبضائع، التي حملها التجار إلى مختلف أسواق السودان الغربي، وهي تمثل سلع مغربية، وأوروبية، وآسيوية، تفاوتت في الأسعار من منطقة لأخرى ومن سوق لآخر، أما السلع التي تصدرها مدن السودان الغربي، فهي تضم مختلف المتوجات والمصنوعات التي تطرقنا إليها في العناصر السابقة التي يكون فيها اكتفاء، وتستعمل للمبادلة مع السلع الواردة، وعلى رأسها الذهب والعاج والرقيق والقطن والبقول السوداني.

### ب- أساليب التعامل:

المقايضة: أو كما سماها "هيرودوت"، والكثير من والجغرافيون والمؤرخون العرب من بعده بـ: "التجارة الصامتة"<sup>(2)</sup>، وهي إحدى وسائل التعامل بين التجار، وهي معروفة منذ أقدم العصور، اشتهر بها الفينيقيين، وقد اعتمدت في تجارة الصحراء، وهي تعتمد على الاتفاق بين الطرفين، فيما يعرضونه من سلع وبعد العرض يختفي عنها إلى أن يتفقوا<sup>(3)</sup>، وهاته الطريقة كانت شائعة في السودان الغربي، ولكنها لم تكن الوسيلة الغالبة لممارسة التبادل لكنها كانت المرحلة الأولى في نشوء اقتصاد سوقي<sup>(4)</sup>، فكمية من الملح مثلا يتم تبادلها بعشرين وزنه من

1 يحي بوعزيز، تاريخ إفريقيا الغربية، المرجع السابق، ج1، ص47.

2 الأمين عوض الله، المرجع السابق، ص90.

3 الدالي، المرجع السابق، ص339.

4 هوبكنز، المرجع السابق، ص133.

البشنة، أو اللوبية الأهلية، وحمار واحد يباع بألفي وزنه من البشنة وهو ما يعادل عشرة حمولات بعير، أو قطعتين من القماش الأسود المخيط<sup>(1)</sup>.

**العملة:** إلى جانب التبادل العيني للسلع، كانت هناك عدة عملات في بلاد السودان الغربي حيث يذكر الوزان أن في مملكة سنغاي كانوا يتعاملون بالنقود والسبائك الذهبية<sup>(2)</sup>.

كما ذكر البكري أنه في أسواق تادمكة يتعامل الناس بالدرهم الصلح، أي غير المكتوبة<sup>(3)</sup>، غير أن الحفريات في جاو وجدت الكثير من الدراهم والدنانير الفاطمية، والمغربية والملوكية<sup>(4)</sup>، أما في فترة سنغاي فكانت عبارة عن دنانير من الذهب الخالص والمطبوع، كما كان النحاس من بين العملات المتعامل بها فقد كان يصنع على هيئة قضبان، 400 منها يساوي مثقال من الذهب وكان استعمالها قليل<sup>(5)</sup>.

كذلك عملة حديدية، منتشرة في مناطق غينيا، وعملة الملح المعدني الذي يقطع إلى قطع صغيرة مختلفة الأحجام، تستعمل للبيع والشراء، ففي ولاته هناك قطع تساوي 20 دوخة، أو 160 فرنك كذلك عملة ذهبية على شكل قطع، والمثقال الذهبي الذي يساوي 19 فرنكا في تمبكتو، والدوخة الذهبية والفضية والدراخمة، والمجدي، والمحجوب الذهبي، والموزة الفضية، كذلك الدورو الفضي وهي في مجملها شائعة في بلدان المغرب العربي، بالإضافة لعملة الكوري

- 
- 1 يحي بوعزيز، المرجع السابق، ج1، ص48.
  - 2 الوزان، المرجع السابق، ج2، ص165.
  - 3 البكري، المصدر السابق، ص181.
  - 4 زبادية، المرجع السابق، ص208.
  - 5 الدالي، المرجع السابق، ص342-343.

(couris)، وهي عملة فارسية وهندية مستوردة، قيمتها منخفضة جدا، كذلك عملة البينتو (Pinto)، المستوردة من إيطاليا<sup>(1)</sup>.

**الودع:** استخدم كوسيلة شرائية معترف بها، استمرت حتى ق:13هـ/19م، وكان يجلب من المحيط الهندي، عن طريق التجار المغاربة والمصريين، وحسب الوزن فإن أربعمئة ودعة تعادل أوقية من الذهب<sup>(2)</sup>، وقد أكد كعت تعامل أهل صنغاي به، حيث أن المثلقال من الذهب في تمبكتو، كان يصرف بثلاثة آلاف ودعة<sup>(3)</sup>، كذلك السعدي أكد التعامل بالودع، فقال أخذ القائد مامي من أهل الزغرانيين من مائتين إلى أربعمئة ودعة<sup>(4)</sup>.

**المنسوجات القطنية:** من السلع التي أصبحت لها قوة النقد، ويطلق عليها أهل التكرور الشيكات

وكانت تدخل في معاملات عديدة، بالإضافة إلى نسيج دندي، الذي يتعامل به في الكانم، ينسج محليا وطول كل ثوب عشر أدرع، يشترون الربع منه لأنه غالي الثمن<sup>(5)</sup>.

ومنه فإن تجارة القوافل الصحراوية كانت مربحة، إلى حد بعيد رغم الأتعاب والمشاق التي يتكبدتها التجار وذلك من ضمن الحوافز التي دفعت بالأوروبيين إلى السعي للسيطرة عليها واستعمارها في القرنين 12-13هـ/18-19م، وقد كان للبلاد مقاييس ومكايل وموازين ثابتة ومتعارف عليها، بالإضافة إلى توفر وسائل النقل المختلفة، وهذا ما يفسر وصول البضائع لمختلف جهات السودان الغربي.

1 يحي بوعزيز، المرجع السابق، ج 1، ص 49.

2 الأمين عوض الله، المرجع السابق، ص 90.

3 كعت، المصدر السابق، 180,100.

4 السعدي، المصدر السابق، ص 157-158.

5 الدالي، المرجع السابق، ص 340.

## ثانيا: الواقع الثقافي لبلاد السودان الغربي:

يعد دخول الدين الإسلامي إلى إفريقيا من الأحداث المهمة في تاريخها، وما ميز المسلمين عن غيرهم من الوافدين في نظر الأفارقة، كون المسلمين كأصحاب رسالة يحترمون جميع الأجناس<sup>(1)</sup> فكان خلو الإسلام من أي نزعة عنصرية أو تمييز طبقي كان سببا في تغلغله في غرب إفريقيا<sup>(2)</sup>، فأقبل الأفارقة على الثقافة الإسلامية لما وجدوا فيها من ملائمة لحياتهم ولحاجاتهم، ولما فيها من حماس متزايد للعلم والثقافة<sup>(3)</sup>.

فازدهرت بذلك الحياة الثقافية في السودان الغربي، ويمكننا أن نلخص الواقع الثقافي للمنطقة في:

### 1. التعليم:

قام سلاطين سنغاي(الأساكي)، بدور بارز في تشجيع العلماء، وبتأسيس المساجد والمدارس ومساكن الطلاب، والنهوض بأعبائها ماديا ومعنويا، حيث أغدقوا على العلماء وطلبة العلم وأنفقوا عليهم بسخاء وأعفوهم من كل وظائف السلطنة، فنصبوا أنفسهم لنشر العلم في المساجد والمدارس وفي بيوتهم، وتفرغوا لتدريس العلوم بشتى فنونها، وخاصة الدينية منها واللغوية، حيث ظلت العلوم الشرعية واللغوية تحتل مركز الصدارة في السودان الغربي، فظهرت مؤلفات

1 الهادي المبروك الدالي: التاريخ الحضاري لإفريقيا فيما وراء الصحراء من نهاية القرن الخامس عشر إلى بداية القرن الثامن عشر، دار الكتب الوطنية، بنغازي ليبيا، 2008، ص 67.

2 صباح السيخلي: ملاحظات حول انتشار الثقافة العربية الإسلامية في إفريقية جنوب الصحراء، مقال بمجلة آفاق الثقافة والتراث، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، الإمارات العربية المتحدة، ع 38، 2002، ص 20.

3 نعيم قداح: حضارة الإسلام وحضارة أوروبا في إفريقيا الغربية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط2، الجزائر دت، ص 155.

وحواش وشروح في مختلف المجالات وخاصة في الجانب الفقهي فقد اعتنوا اعتناءً كبيراً بأمّهات كتب المذهب المالكي فأجادوا وأفادوا، وقد استطاع العلماء في عهد سنغاي أن يضعوا للحكام قواعد يسيرون على وفقها شؤون البلاد<sup>(1)</sup>، وبفضل صبر العلماء ومثابرتهم على التدريس ليل نهار؛ استطاعوا أن ينهضوا بمستوى الوعي الديني في أوساط شعب سنغاي إلى أعلى مستواه، مما جعلهم يحظون - وبخاصة علماء الشريعة - باحترام منقطع النظير<sup>(2)</sup>.

وقد أكد ذلك قول حسن الوزان: "...ولهم مساجد كثيرة وأئمة، وأساتذة يدرسون في المساجد لعدم وجود المدارس، وهم أكثر تحضراً وذكاء واعتباراً من بين جميع السود، لأنهم كانوا من السابقين إلى اعتناق الإسلام..."<sup>(3)</sup>، كذلك قوله: "...وفي تمبكتو عدد كثير من القضاة والفقهاء والأئمة، يدفع الملك إليهم جميعاً مرتباً حسناً، ويعظم الأدياء كثيراً..."<sup>(4)</sup>.

وكان المعلمون في جميع جهات السودان الغربي يتفرعون إلى قسمين: طائفة المعلمين، وطائفة المؤدبين (الأساتذة)، هاته الأخيرة تتقاضى الأجور من سلاطين الأسكيين، وغالبا ما تصلهم الأجور من طرف القضاة الذين يتولون الإشراف على الحركة التعليمية في المنطقة، وبالتالي توكل إليهم مسألة العناية بإيواء الطلاب وتوزيع الهدايا عليهم وعلى معلمهم، وكانت مراحل التعليم تقسم إلى مرحلتين أساسيتين: مرحلة التعليم الابتدائي ومرحلة التعليم الثانوي والعالي<sup>(5)</sup>.

1 محمد ألفا جالو: الحياة العلميّة في دولة سنغاي خلال الفترة 842 - 1000 هـ، مذكرة ماجستير، جامعة أم القرى 1993، ص 49.

2 نفسه، ص 50.

3 الوزان، المصدر السابق، ج 2، ص 164.

4 نفسه، ص 167.

5 زبادية المرجع السابق، ص 142.

ويتولى التدريس في المرحلة الابتدائية معلمو الكتاتيب، حيث كانت المدارس في أول الأمر ملحقة بالمساجد، وهناك أمكنة أخرى لنوم الطلاب القادمين من بلاد بعيدة، أما القرى الصغيرة التي تخلو من المساجد، كان الأطفال يتلقون تعليمهم بواسطة أحد الدعاة في ساحة صغيرة في الحي، أو في أحد الحوانيت كما في غينيا والسنغال<sup>(1)</sup>، وكان دخول الأطفال للكتاب في سن الخامسة غالبا ويستلزم في المعلم أن يكون ذو كفاءة لازمة لمهنته، كحفظ القرآن والإمام بمبادئ اللغة، والفرائض وإتقان الخط ومن هنا كان عمل الكتاب هو تهيئة الطالب للدخول في المرحلة الثانية، وكان عدد الكتاتيب في سنغاي مرتفعا، تضم عدد كبير من التلاميذ<sup>(2)</sup>، وهذا ما يفسره قول كعت لما حظر مكتب المعلم علي في تمبكتو فوجد ألواح الصبية<sup>(3)</sup>، فعد منها مائة وثلاثة وعشرون لوحا<sup>(4)</sup>.

أما التعليم الثانوي والعالي، يأتي بعد التعليم الابتدائي، ولم يكن في هاتين المرحلتين السن معروف ولم تكن الفوارق بينهما واضحة، حيث تكمن في حجم المسجد، وفي المواد المدرسة فكانت المساجد الصغيرة تدرس المواد الأكثر وضوحا وبساطة، وكتب غير معقدة، وكان في تمبكتو التعليم العالي في جامع "الونكريين" أو "السنكري"<sup>(5)</sup>، حيث تدرس المواد في شكل اختصاص وتتناول بتفصيلات واسعة وتناقش المسائل فيها على مستوى أمهات المؤلفات الكبيرة

1 نعيم قداح، المرجع السابق، ص ص158-159.

2 زبادية، المرجع السابق، ص ص142-143.

3 هي ألواح خشبية كانت تستعمل قديما لكتابة القرآن وحفظه.

4 كعت، المصدر السابق، ص 181.

5 يقع مسجد سنكري في الشمال الشرقي لمدينة تمبكتو، بنته امرأة واحدة أغلالية ذات مال كثير في فعل البر، ولا يعرف تاريخ بنائه. أنظر: جاك وودس: جذور الثورة الإفريقية، ترويح، أحمد فؤاد بلبع وآخرون، الهيئة المصرية العامة للتأليف للنشر، 1971، ص 563، ينظر أيضا: السعدي المصدر السابق، ص 62.

التي عرفها المسلمون حتى ذلك العهد وكان لا يجلس للتعليم من هذا النوع إلا أساتذة متضلعين قد أحاطوا بكل جزئيات المواضيع التي يدرسونها<sup>(1)</sup>.

## 2. العلماء:

يعتبر العلماء المتضلعين في مختلف الفروع العلمية المعروفة حتى ذلك الحين كانوا كثيرين في مملكة الأساكي، ولهم نشاط كبير في التدريس، وإقبال على التأليف واقتناء الكتب بأثمان عالية حيث يجمعونها في مكباتهم، التي كانت تشبه في ضخامتها حوانيت التجار الكبار<sup>(2)</sup>، ويمكننا أن نأخذ فكرة عن سعة إطلاع هؤلاء العلماء السودانيين في هاته الفترة، من كثرة الكتب التي كانوا يتداولونها في مختلف الفروع وفي هذا الصدد يحدثنا الناصري عن أبا العباس أحمد بابا فيما يخص عدد الكتب التي ضاعت منه حين نفي إلى مراکش، قال أحمد بابا: "أنا أقل عشيرتي كتباً وقد نهب لي ست عشر مائة مجلد"<sup>(3)</sup>، وهكذا كان تضلع علماء السودان، وهكذا كانت سعة اطلاعهم وكانوا يباشرون مهنة التعليم طول النهار، وسط عدد ضخم من طلاب العلم<sup>(4)</sup>.

## أ- مراتب العلماء:

لقد كان لعلماء السودان الغربي عدة مراتب منهم، الأشراف، الذين ينتسبون إلى أهل بيت النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وهؤلاء أغلبهم، إن لم يكن كلهم، كانوا من الوافدين على البلاد وخاصة تمبكتو وأهل بيوت العلم من سكان البلاد، الذين ويأتون بعد الأشراف، وقد توارثوا العلم ومن هؤلاء أسرة "آقيت" فقد

1 زبادية، المرجع السابق، ص 144.

2 زبادية، المرجع السابق، ص 155.

3 أبو العباس أحمد بن خالد الناصري: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تح، جعفر الناصري، ومحمد الناصري، دار الكتب، الدار البيضاء، 1955، ج5، ص 130.

4 زبادية، المرجع السابق، ص 145.

تعدد فيهم العلماء والقضاة، وتوارثوا رئاسة العلماء مدة طويلة تقرب من مائتي سنة ومنهم كان الأساكي يختارون القضاة في تمبكتو وجني وجاو، كذلك أسرة أحمد بابا التمبكتي، وإلى جانب تلك الأسر، أسرة اندغ محمد، وهي أيضاً أسرة علم وصلاح، توارثوا مراكز مهمة في البلاد كالقضاء والإمامة والتدريس<sup>(1)</sup>، وسوف أقوم بتلخيص أهم علماء السودان الغربي سواء الوافدين أو المحليين، انطلاقاً من أشهر المراكز الثقافية: تمبكتو، وجني، وجاو.

### ب- العلماء الوافدون:

الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني: ينتسب إلى قبيلة مغيلة بنواحي تلمسان، ولا يعلم تاريخ ولادته، غير أن وفاته كانت سنة 909هـ/1504م، وقد كان من المثقفين وأولي الفكر في عصره<sup>(2)</sup>، وأحد الأذكياء ممن له بسط الفهم والتقدم، متمكن المحبة في السنة وبعض أعداء الدين<sup>(3)</sup> حفظ القرآن الكريم ثم درس العلوم العربية الإسلامية، اشتغل بالتدريس في تلمسان، ثم هاجر إلى توات سنة 883هـ/1479م<sup>(4)</sup>، حيث قاتل فيها اليهود، وهدم كنائسهم، وقد روى أحمد بابا عنه أنه قال: "...من قتل يهوديا فله سبع مثاقيل..."، ثم هاجر إلى بلاد التكرور، والتقى بالسلطان الأسكيا محمد الكبير، الذي كتب له تأليفاً أجابه فيه عن مسائل، توفي في توات خلف عدة تأليف منها "البدر المنير في علوم التفسير"

1 محمد ألفا، المرجع السابق، ص 151، 153.

2 محمد بن عبد الكريم المغيلي: أسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي، تقد وتح، عبد القادر زبادية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974، ص 8.

3 أحمد بابا التمبكتي: نيل الابتهاج بتطريز الديباج، تقد، عبد الحميد عبد الله الهرامة، كلية الدعوة الإسلامية طرابلس، ليبيا، ط1، 1989، ص 576.

4 يحي بوعزيز، المرجع السابق، ج 1، ص 63-64.

و"مصباح الأرواح في أصول الفلاح"، كتاب عجيب في كراسين أرسله للسوسي، وكتاب "الفتح المبين" وعدة قصائد كالميمية على وزن بردة<sup>(1)</sup>.

صالح بن محمد أندى عمر المعروف بالشيخ العمري: كان من أهل العلم والفضل وكان كلامه مسموعا لدى السلاطين، له شرح على مختصر خليل<sup>(2)</sup>.

أبو القاسم التواتي: وصل إلى تمبكتو مع جماعة من علماء وشرفاء تافيلالت، سكن بالقرب من المسجد الأعظم، وكان يستقبل الطلبة في داره، وكان أسكيا محمد يصلي وراءه ويطلب دعاءه، وحينما توفي في تمبكتو عام 921هـ/1516م، كان يوجد في تمبكتو خمسون عالماً من توات<sup>(3)</sup>.

الإمام سيدي يحيى المغربي: إمام مسجد سيدي يحيى الذي كان في قلب مدينة تمبكتو، توفي في هذا العالم سنة 970هـ/1563م<sup>(4)</sup>.

### ج- العلماء المحليين:

محمود بن عمر بن محمد آقيت: من مواليد تمبكتو 868هـ/1464م، عين قاضيا وهو ابن 35 سنة وكان يدرس مدونة الإمام سحنون، ورسالة أبي زيد والفقيه ابن مالك، وهو أول من درس مختصر خليل وألف في ذلك كتابا من جزئين، وجادل علماء مصر مثل المقدسي والقلقشندي في رحلته للحج سنة 914هـ/1509م، ومحمود بن عمر كان أستاذا في ولاته وتمبكتو، متضلعا في العلوم الشرعية قوي الحافظة، وكان مهيب الجانب لورعه وزهده، وقوي الحافظة<sup>(5)</sup>.

1 أحمد بابا التمبكتي، المصدر السابق، ص ص 577-578.

2 محمد الغربي: بداية الحكم المغربي في السودان الغربي، إشراف نقولا زيادة، مؤسسة الخليج للطباعة والنشر الكويت، دت، ص 515.

3 نفسه، ص ص 515-516.

4 ألفاء، المرجع السابق، ص 154-153.

5 محمد الغربي، المرجع السابق، ص 516.

العاقب بن محمود بن عمر آقيت (قاضي تمبكتو): كان مسددا في أحكامه، صلبا في الحق ثبتا فيه، مقداما، جسورا على السلطان فمن دونه، أخذ عن أبيه وعمه، ذهب للحج وقابل البكري<sup>(1)</sup>.

محمد بن محمود بن أبي بكر الونكري التمبكتي: المعروف ببيغيع، ولد سنة 930هـ/1524م من عباد الله الصالحين، يحب عمل الخير وإصلاح ذات البين والنصح والإرشاد، كان محبوب لدى الجميع أخذ العربية والفقاه على يد أبيه الصالح محمود، وخاله الصالح، الذي ذهب معه هو وأخيه الفقيه الصالح أحمد بعد عودتهما استقرا في تمبكتو، وأخذ أيضا عن ابن السعيد الفقه والحديث، وقرأ عنه المدونة والموطأ وصار في آخر الحال شيخ وقته في الفنون، توفي سنة 1002هـ/1594م، وله فتاوى كثيرة<sup>(2)</sup>.

#### د- نظام الإجازات (الشهادات):

كان هذا النظام معروفا في السودان. غ. على عهد الأسكيين، إذ كان الأستاذ كلما أنس من أحد طلبته تمكنا كافيا، في مادة من المواد، التي يدرسها الطالب على يده، أعطاه إجازة بخط يده<sup>(3)</sup> حيث يذكر لنا السعدي في هذا الصدد، عن المواد التي درسها عن شيوخه والكيفية التي تعلم بها، والمدة التي استغرقها في الملازمة، ثم ينهي حديثه بقوله: "...إنه أجازني بخطه جميع ما يجوز له وعنه..."<sup>(4)</sup> وكانت تعطى الشهادة الدالة على نجاح الطالب الذي قام بإتمام المرحلة التعليمية<sup>(5)</sup> التي تؤهله ليصبح بعدها متمكنا في مادته وأسانيدها، وقد ناقشها معه معلمه أو

1 أحمد بابا التمبكتي، المصدر السابق، ص 353-354.

2 نفسه، ص 600-603.

3 زبادية، المرجع السابق، ص 147.

4 السعدي، المصدر السابق، ص 46.

5 عبد القادر زبادية: ملامح الحركة التعليمية في تمبكتو خلال القرن السادس عشر، مقال منشور بالمجلة التاريخية المغربية، مطبعة الاتحاد العام التونسي، تونس، عدد 7، 1977. ص 35.

أستاذه<sup>(1)</sup>، والشهادة تعطى مباشرة لصاحبها إلا في بعض الحالات الخاصة، يجوز إرسالها للطلاب التابع له، كما حدث عندما أرسل الفقيه أحمد بابا إجازة علمية عامة للعالم المغربي "عبد الرحمن التنارتي"، الذي سبق وأن تعرف عليه بمدينة مراكش<sup>(2)</sup>.

وكانت هناك شهادات خاصة تختص بحفظ القرآن الكريم والحديث، أي خاصة بالثقافة الإسلامية البحتة، لنشر كلمة الله تعالى، بالإضافة إلى شهادات عامة تشمل عدة مواد أو فنون، أو مهارات بجانب العلوم الدينية، وتعطى عادة في حفل كبير، وأحيانا يسلم لهم عمامة دليلا أنهم أصبحوا من العلماء وهاته الشهادة تؤهله لأن يعمل بإلقاء الخطب أو الإمامة، أو العمل كمساعد القاضي أو نائبا له أو في نسخ الكتب أو تعليم القراءة، أو تنتهي بالعمل بالقضاء وتولي مهامه<sup>(3)</sup>.

### 3. الحركة الفكرية:

لقد كانت الصبغة التي طغت على الإنتاج الفكري في مملكة سنغاي، هي الصبغة الإسلامية حيث أن الذين كانوا ينتجون في هذا الميدان إنما كانت تمثلهم النخبة التي تمكنت من الدين الإسلامي بواسطة اللغة العربية وقد ظهرت الحركة الفكرية وتطورت في ثلاث ميادين هي الآداب، والتاريخ والشرعيات وعلوم اللغة ويمكن لنا أن نتبع تطورها فيما يلي:

#### أ- الآداب وأسلوب الكتابة:

لم يكن للأفارقة في غرب إفريقيا قبل مجيء الإسلام من الآداب، سوى حكايات يتناقلونها بالمشافهة، أصغر عن أكابر، وهي تروي بطولات الأجداد

1 نفسه، ص 35.

2 عبد الحميد جنيدي، المرجع السابق، ص 88.

3 عبد الحميد جنيدي، المرجع السابق، ص 88.

وأصول القبائل وحروب الملوك والرؤساء فهي آداب غير مكتوبة ولكن كان لها أثر في حياة الناس، ولما جاء الإسلام اعتنقه الإفريقيون في غرب إفريقيا وتمكن العلماء والرؤساء والعائلات الكبيرة من استيعاب مفاهيم الإسلام، بفضل الاحتكاك بالعرب من التجار والفقهاء، وهذه الصورة هي عينها التي كان عليها الشعوب التي تكونت منها مملكة سنغاي<sup>(1)</sup>.

فكانت مدن السودان الغربي، التي تركز حولها ميادين النشاط الإنتاجي والتجاري مثل: تمبكتو وجاو وجنى، تعمر بالعلماء والقضاة والمفكرون، الذين تمبكتو من دراسة العربية والدين الإسلامي حتى أصبحوا ينتجون في ميادينهم، مختلف المؤلفات بالشروح والكتابات التاريخية والفقهية على النمط الذي كان عند العرب في المشرق والمغرب، لكن هذه النسبة كانت تمثل الأقلية بين سكان الإمبراطورية أما الفئة الباقية فقد بقت على الأسلوب الإفريقي الأول، لكن تلك الأقلية كانت تمثل النخبة الرائدة التي كانت تقود المجتمع وتمثل وسطه العنصر الذي يسعى للدخول به إلى ميادين التقدم<sup>(2)</sup>.

لم يعثر لكتاب السودان في عصر السنغاي على أشعار ولكنهم كانوا كثيرا ما يستشهدون بأشعار وكتابات لشعراء العرب وكتابهم، فيقول عبد الرحمن السعدي عن تمبكتو بأنها تشبه في روعتها وجمالها، ما كان قد شبه به الهمداني البصرة في مقاماته<sup>(3)</sup>، وكذلك أحمد بابا، فهو يستشهد على صواب نظريته في أن السواد في لون البشرة لدى الإنسان إنما مرده إلى العوامل المناخية والطبيعية، برأي ابن خلدون ويورد رجز ابن سينا الذي لخص فيه رأيه في نفس الموضوع بقوله:

حر غير الأجساد حتى كسا جلودها سواد

1 زيادة، مملكة سنغاي، المرجع السابق، ص 154.

2 نعيم قداح، المرجع السابق، ص 161.

3 السعدي، المصدر السابق، ص 18.

والصلغب اكتسبه بياضا حتى غدت جلودها فضاضا

وهذا يدل على إطلاع السودانيين الكافي على الأشعار العربية والكتابات المنمقة لدى الهمداني والحريري وغيرهما<sup>(1)</sup>.

أما الأسلوب الذي كانوا يكتبون به، فإننا إذا أخذنا "أحمد بابا"<sup>(2)</sup>، كمثال على ذلك لأنه عاش في نفس الفترة وكتب خلالها فإن أسلوبه شيق وجزل ومتين، فقد ألف تراجم المالكية وكتب رسالة حول حكم الإسلام في امتلاك المسلم للمسلم كعبد، الذي عاجله بأسلوب علمي موضوعي، وجزالة أسلوبه تكمن في تمكنه من الألفاظ التي يستعملها ومفردات الجمل، كلها متناسقة<sup>(3)</sup> وأسلوبه جاء متين على عكس أسلوب السعدي ومحمود كعت اللذان يعتبر أسلوبهما بعيد عن المتانة والجزالة، كثير ما يتخللها الحشو وأحيانا تعابير غامضة استعملت فيها مفردات أخذها من الدارجة<sup>(4)</sup>.

ونجد أيضا كتابة في عهد سنغاي باللغة العربية المتمثلة في الأسئلة السبعة التي كان قد بعث بها الحاج محمد الكبير إلى الإمام المغيلي حوالي سنة 1502م<sup>(5)</sup>،

1 زبادية، المرجع السابق، ص 156.

2 كان مطبوعا عن التأليف، حيث كتب نيف وستين مؤلفا، وكانت الفترة المغربية هي أغزر فترة، وأزكاها في هذا المجال، هاته الفترة تقدر بثلاثي إنتاجه، اشتهر بكتابات في الفقه والحديث وعلم الرجال. أنظر: أحمد بابا، المصدر السابق، ص ص 16-17. أنظر أيضا:

John Hunwick: *The middle niger 1400-1750 in Arabic Literature in Africa*, Northwestern University, Evanston, n°03, p p 6-16.

وينظر أيضا: أحمد بابا التمكني: *معراج الصعود*، تح وتر، فاطمة الحراق وجون هانويك، منشورات معهد الدراسات الإفريقية الرباط، 2000 ص 16.

3 زبادية، المرجع السابق، 156.

4 نفسه، ص ص 156-157.

5 زبادية، أسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي، المرجع السابق، ص 6.

وقد كتبها بعبارات شديدة القوة والتماسك، ولكننا لا نستطيع الجزم بأن كاتبها سوداني، لأن الأخبار تواترت إلينا عن وجود كتاب مغاربة في بلاط الأسكيا في ذلك الوقت، ولدى فغير مؤكد صياغة تلك الأسئلة لكاتب سوداني<sup>(1)</sup>.

والنتيجة في موضوع الكتابة الأدبية في سنغاي، أنها كلها باللغة العربية، ووصلت إلينا من ذلك الوقت كمية قليلة، ومن الاطلاع عليها يستطيع الدارس أن ينتهي إلى القول بأن الكتابة باللغة العربية بلغت مستوى متوسطا لدى كتاب ذلك الوقت من السودانين، فقد كتبوا في مواضيع اجتماعية عديدة أثناء تصديهم للكتابة في التاريخ والفقهاء، ولكن لم تؤثر لنا عنهم أشعار تستحق الذكر سوى ضروب من الرجز الذي كانوا يستعملونه أحيانا لضبط معلوماتهم في الفقه والفرائض والمنطق<sup>(2)</sup>.

### ب- الشرعيات وعلوم اللغة:

لقد تحدث السعدي طويلا عن العلماء والفقهاء الذين تولوا منصب قضائي في سنغاي، وأتى بقوائم طويلة للأئمة والمدرسين زاد عددهم عن المائتين، وقام بالثناء على كل واحد منهم لتمكنهم من العلوم وبدلهم الجهود العظيمة في تحصيلها وإشاعتها<sup>(3)</sup>.

وفي جميع القوائم التي ذكرها لم يعثر إلا على رجلين فقط قال عنهما إنهما كانا بالإضافة إلى تمكّنها من الفقه والتفسير، لهما إطلاع على الأدب العربي، أما الذين أتقنوا النحو و الصرف بالإضافة إلى الفرائض والتفسير فهم ثلاثة، وهناك واحد فيهم قال عنه أنه يحسن المنطق، وبهذا يتضح أن مادة الفكر الأساسية كانت الشرعيات وعلوم اللغة، وأن جميع أولئك العلماء كانوا أولياء الله، وكانت

1 زيادة، مملكة سنغاي، المرجع السابق، 157.

2 زيادة، المرجع السابق، ص 158.

3 السعدي، المصدر السابق، ص 63.

الشعوذة تختلط بأفكار الناس ولم يكن أولئك الفقهاء والمفسرون يختلفون في ذلك عن غيرهم ويفسر هذا بأن الكثيرين من أولئك العلماء لم تمكنهم ثقافتهم من فهم أغراض الشريعة الفهم اللائق فهم وإن أتقنوا الكثير من أحكام الفرائض وحفظوا الأحاديث، إلا أن فهمهم لعميق أغراض الشريعة ظل سطحياً<sup>(1)</sup>.

ومما يؤكد هذه الحقيقة، أن الأسكيا محمد الكبير قد أظهر في أسئلته التي استفتى فيها المغيلي تألمه الشديد من كون علماء بلاده لا يفقهون من الذين الإسلامي إلا بعض الأحكام البسيطة وفهمهم في الغالب لها سقيم ومع ذلك فهم يتباهون على الناس بغزير علمهم ويجدون من بين العامة من يتبعهم ويصدق كل ما يقولون<sup>(2)</sup>، ولهذا لم نعثر في جميع المصادر على أي مؤلف قائم بذاته لعلماء صنغاي في مجالات الفقه واللغة والتفسير، وكل ما كتبه في ذلك على كثرته لا يعدو أن يكون حاشية لشرح، أو شرح لتصنيف، أو نظماً في قالب رجز لمصنف من المصنفات التي كتبها المشاركة والمغاربة، أو تفسيراً لجزء من القرآن يعتمد فيه صاحبه على شرح لعالم آخر من خارج السودان<sup>(3)</sup>.

ومنه يمكن القول، أن أغلب المواضيع التي برز فيها السودانيون، التي تعتبر إنتاجاً مستقلاً، كان في ميدان التاريخ.

## التاريخ:

إذا قمنا بتجاوز ما كتبه أحمد بابا في تراجم الفقهاء والمفسرين، الذي كان موضوعه أميل إلى الفقه فإن هناك رجلين بارزين قد أنتجا في ميدان التاريخ إنتاجاً سودانيا قائماً بذاته في نهاية ق:10/هـ/16م وهما عبد الرحمن السعدي، والقاضي محمود كعت، هذا الأخير عاش في أيام الأسكيا الحاج محمد الكبير وألف كتابه

1 زبادية، المرجع السابق، ص 159.

2 زبادية، أسئلة الأسكيا، المرجع السابق، ص ص 62-63.

3 زبادية، مملكة سنغاي، المرجع السابق، ص ص 169-160.

"تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس"<sup>(1)</sup>، وذكر وقائع التكرور وعظائم الأمور وتفريق أنساب العبيد من الأحرار<sup>(2)</sup>، وقد قال في هذا الصدد: "...وليعلم كل من وقف على هذه القصص أنا لم نقصد بذكرها مباحة ولا افتخار بل لما رأينا وشاهدناه..."<sup>(3)</sup>.

ويلاحظ على كتاب كعت أنه تضمن بعض الحوادث التي احتواها تفوق عمره بست سنوات لأن أحداث الكتاب انتهت في 1008هـ/1599م، مما يبعث على الظن بأن الكتاب قد أتمه بعض أحفاده بعد وفاته 1002هـ/1593م<sup>(4)</sup>، وكانت لغته أسلم من لغة تاريخ السودان للسعدي، كما أنه أكثر منه اشتمالاً على مظاهر الحياة الاجتماعية، بدأه بالحديث عن الأسكيا محمد والثناء عليه كثيراً ووصفه بالعدل والصالح وختمه بالحديث عن تمبكتو حين غزاها المغاربة، والنكبات التي حلت بسنغاي<sup>(5)</sup>، حيث قال "...صارت تنبكت جسماً بلا روح وانعكس أمورها وتغير حالها وتبدل عوائدها ورجع أسفلها أعلاها وأعلاها أسفلها وساد أزدالها على عظائنها..."<sup>(6)</sup>، بعد أن غزاها المغاربة وأمر المنصور بإجلائها من العلماء والمثقفين وحملهم إلى مراکش<sup>(7)</sup>، رغم أن كتابه لم يعرف إلا بعد الحملة إلا أنه كان يشتغل عليه في الفترة التي نحن بصدد دراستها.

1 زبادية، المرجع السابق، ص 159.

2 نفسه، ص 160.

3 كعت، المصدر السابق، ص ص 15-16.

4 جمال زكريا قاسم: الأصول التاريخية للعلاقات العربية الإفريقية، دار الفكر العربي، القاهرة، 1999، ص 157.

5 زبادية، المرجع السابق، ص 161.

6 كعت، المصدر السابق، ص 175.

7 زبادية المرجع السابق، ص 161.

أما عبد الرحمن السعدي فقد ألف هو الآخر كتابا في تاريخ عهد الأسكيين بصنغاي والفترة المغربية بالسودان الغربي وسماه "تاريخ السودان"، وقد ولد ليلة الأربعاء ليلة الفطر، سنة 1004هـ / 1595م، بعد وفاة محمود كعت بثلاث سنوات، تولى إمامة مسجد سنكري في السادسة والثلاثين<sup>(1)</sup>.

ولذا فقد كتب السعدي في العهد المغربي، وجاءت حوادث ذلك العهد مفصلة في كتابه في حين جاءت حوادث الفترة السابقة مختصرة، وقد تحدث فيه عن أسباب تأليفه في هذا الموضوع، ذكر ملوك السودان، أهل سنغاي وقصصهم وأخبارهم وسيرهم وغزواتهم وذكر تمبكتو وملوكها، وتحدث عن العلماء والمصلحين، وأسلوبه فهو مفكك وعباراته غير مستقيمة غالبا، مما يدل على أن حركة الفكر في بلاد سنغاي قد آلت هي الأخرى إلى ضعف في آخر أيام الأساكي والقسم الأكبر خصصه للحديث عن باشوات المغاربة في سنغاي ولدى يعتبر مؤلفه من أوفر المصادر عن بلاد السودان في تلك الفترة<sup>(2)</sup>.

ولهذا نقول عن اقتناع أن جل المواضيع التي أنتج فيها السودانيون بالخصوص في مملكة سنغاي إنتاجا مستقلا في تلك الأثناء، لم يكن في الأدب ولا في الشريعة واللغة، وإنما كان في ميدان التاريخ والنتيجة التي يمكن أن ينتهي إليها الباحث حول تطور الحركة الفكرية في سنغاي، هي أن الأبحاث كانت نشيطة في علوم الشرع واللغة ولكنها ظلت تتصف بالاستيعاب دون أن تتجاوزها إلى مرحلة الإنتاج المستقل، أما في الأدب فلم يكن لها وجود إلا وجود ضعيف جدا<sup>(3)</sup>، ولكن الحركة الفكرية رأت نشاطا ملحوظا في ميدان التاريخ وقد كان ولا يزال مؤلف كل من عبد الرحمن السعدي و محمود كعت أبرز الأمثلة على استقلالها

1 البرتلي الولاتي: فتح الشكور في معرفة أعيان التكرور، تح، محمد إبراهيم الكتاني ومحمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت ط1، 1981، ص 176.

2 زبادية، المرجع السابق، ص ص 161-162.

3 نفسه، ص ص 162-163.

وأصالتها في هذا المجال ولا يبدووا كل من الرجلين أكثر علما من أحمد بابا ولا أكثر إنتاجا منه، ولكنها ألفا في موضوعات مستقلة مما جعل عملها بمثابة عنوان على الإنتاج السوداني الصرف في تلك الفترة<sup>(1)</sup>.

### ثالثا: الدور المغربي في السودان الغربي تجاريا وثقافيا:

لقد استطاع الإسلام كحضارة راقية أن يثبت وجود المدنية الإسلامية، وأن يطورها، وكان أحد العوامل الرئيسية التي أدت إلى ازدهار الحياة الاقتصادية في غرب إفريقيا عامة، والسودان الغربي خاصة إبان العصور الوسطى والحديثة، من الطبيعي أن يكون التواجد المغربي ببلاد السودان الغربي، كثيفا نظرا للعلاقات التجارية التي ربطت المنطقة منذ فترة طويلة<sup>(2)</sup>.

وقد امتازت جسور التواصل بين بلدان المغرب والسودان الغربي بالفاعلية والديناميكية، فقد أضحى التفاعل شاملا، وعمّ جميع القطاعات، الاجتماعية، والاقتصادية والسياسية والثقافية، ويظهر أن الحضارة المغربية ذات الطابع الإسلامي، كان لها الأثر الكبير في نشر تعاليم الإسلام الحنيف، وبث لغة الضاد والتفاعل الشامل مع مقومات الحضارة الزنجية، من خلال عملية التأثير والتأثر<sup>(3)</sup>.

- 
- 1 زيادة، الحضارة العربية والتأثير الأوروبي، المرجع السابق، ص 85.
  - 2 محمد الشريف: الجالية المغربية ببلاد السودان الغربي ق 8هـ/14م، مقال ضمن أعمال ندوة التواصل الثقافي والاجتماعي بين الأقطار الإفريقية على جانبي الصحراء، تقد، عبد الحميد الهرامة، كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس ط1، 1999، ص443.
  - 3 الطيب الوزاني: مقومات التفاعل الثقافي والحضاري بين دول غرب إفريقيا والمغرب الأقصى، مقال ضمن أعمال ندوة التواصل الثقافي والاجتماعي بين الأقطار الإفريقية على جانبي الصحراء، تقديم عبد الحميد الهرامة، كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس ط1 1999، ص480.

وسوف أقوم بعرض الدور الذي لعبه المغاربة في السودان الغربي في المجالين التجاري والثقافي:

## 1. في التجارة:

مما لا شك فيه أن الوضع الجغرافي للصحراء الكبرى، وامتدادها الطبيعي للشمال الإفريقي وحرص القوافل التجارية المغربية، على اتباع الخطوط الصحراوية التي ذكرناها سابقا، قد ساعد على تطعيم وتغذية الجو التعليمي بما يحمله هؤلاء، من أنباء وأفكار جديدة على منطقة السودان الغربي<sup>(1)</sup> وكان التجار المغاربة المسلمين يلفتون الأنظار أينما ذهبوا، من نظافة، وتعلم، وتواضع<sup>(2)</sup>، ولم يستعبدوا تلك الشعوب ولم يقطوا على نظمهم المحلية، وإنما انسجموا معهم، وخلقوا في كل المراكز التجارية، طابعا محلي يتلاءم مع الدين الإسلامي<sup>(3)</sup>.

وكانت المدن التجارية، التي ظهرت على امتداد الطرق التجارية، ذات طابع إسلامي، وادخل إليها المغاربة نظام الصكوك والمعاهدات، والمكاتبات التجارية<sup>(4)</sup>، وأقيمت في المدن الإفريقية الأسواق في أيام معلومة، تقليدا لأسواق المغرب العربي<sup>(5)</sup>، وكانت عدة طرق مشهورة تنطلق من المغرب الأقصى إلى

1 عبد الجليل التميمي: الروابط الثقافية المتبادلة بين تونس وليبيا ووسط وغرب إفريقيا خلال العصر الحديث منشورات المجلة التاريخية المغربية، تونس، 1981، ص 19.

2 نعيم قدام، المرجع السابق، ص 139.

3 حسن أحمد محمود: الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا، دار الفكر العربي للطباعة والنشر، القاهرة، 1998 ص 43.

4 نعيم قدام، المرجع السابق، ص 139.

5 نعيم قدام، المرجع السابق، ص 140.

السودان الغربي، جالبة معها الآلاف من السكان سنويا، مما جعل أثر تجارة القوافل في السودان الغربي ملموسا<sup>(1)</sup>.

كذلك الدور الهام الذي قام به التجار المغاربة في المنطقة، هو ادخال المقاييس، والمكاييل والموازين الثابتة، في مختلف المبادلات والتعاملات التجارية، ففي الوزن مثلا يستعمل المئقال لوزن المعادن ويساوي وزن اثنين وسبعين حبة من حبات القمح المتوسط، ويقدر وزن المئقال بحوالي أربعة جرامات من الذهب<sup>(2)</sup>، وبلغ صرف المئقال الواحد ثلاثة آلاف ودعة<sup>(3)</sup>، والدرهم عندهم يساوي سبعة أعشار المئقال أما الدينار فكان يساوي أربعين درهما<sup>(4)</sup>، ويعادل سعر الدينار ستة أوقيات من الذهب، وتزن الأوقية الواحدة حوالي سبعة وعشرين ونصف قرام<sup>(5)</sup>.

أما لوحدة الكيل فقد كانوا يستعملون المد، الذي يساوي أربعة أمداد بجمع اليدين، والصاع يساوي أربعة أضعاف المد، أي ما يعادل ثلاثة كيلو غرامات<sup>(6)</sup>، أما المودي فهو يساوي ما يحمله العبد أو الرجل من حبوب أو غيرها في كيس كان يتخذ من الجلد<sup>(7)</sup>.

بالإضافة الى معيار القياس الذي استعمل في عدة أغراض مثل: طول الأرض والأقمشة كالدراع والشبر، بالإضافة إلى القدم والخطوة والقامة والحبل لقياس المساحة، أما لقياس المسافات استعمل الميل الذي قدر بحوالي 1920مترا،

1 الأمين عوض الله، المقال السابق، ص 95.

2 الدالي، المرجع السابق، ص ص 336-337.

3 كعت، المصدر السابق، ص 183.

4 زبادية، مملكة سنغاي، المرجع السابق، ص 200.

5 الدالي، المرجع السابق، ص 337.

6 نفسه، ص 337.

7 زبادية، المرجع السابق، ص 199.

والفرسخ تقاس به المسافات الطويلة ويساوي ثلاث أميال كذلك استعمل اليريد الذي يعادل سرعة حصان، كما استعمل الرمح لقياس طول ماء النهر<sup>(1)</sup>.

كما عرفت منطقة السودان الغربي بعض العملات المستوردة من المغرب الأقصى، تستعمل في البيع والشراء مثل الدينار، والمحبوب الذهبي، والموزونة الفضية والصائمة النحاسية، كذلك الدورو الفضي<sup>(2)</sup>.

ومنه فإن التجار المغاربة والجالية التي سكنت في السودان الغربي، كان لهم أثر كبير في التجارة الصحراوية وتنظيمها، وادخال عليها طرق تعامل جديدة، ومعايير احتفظت بأسمائها واستعملت في جميع أنحاء السودان الغربي وقاموا بتنشيطها خاصة في عهد الأسكيين.

كل هذا التنوع التجاري التي عرفته بلدان السودان الغربي، والازدهار الذي تزامن مع مملكة سنغاي في ق:10ه/16م، ما كان له أن يحدث لولا العلاقات التجارية بين الشمال والجنوب والدور الفعال الذي لعبه المغاربة المسلمون في المنطقة، منطلقين من شعار "اعمل واكسب بالوسيلة النزيهة" وما نتج عنها من ازدهار حضاري في المنطقة، لم يسبق لها مثيل في تاريخ المنطقة.

## 2. في المجال الثقافي والحضاري:

هناك جملة من العوامل دفعت بلدان المغرب لاحتلال دور الريادة في السودان الغربي، إما على المستوى الديني أو الثقافي أو الاقتصادي، حيث كان يضم أشكال حضارية متباينة من مقومات حضارية شرقية اسلامية، الى مؤثرات حضارية متوسطة فضلا عن تيارات الحضارة الزنجية، وبعد أن أصبحت مراكش عاصمة

1 كعت، المصدر السابق، ص ص 35,38,56. أنظر أيضا: السعدي، المصدر السابق، ص

138. زبادة، المرجع السابق، ص 198.

2 يحي بوعزيز، المرجع السابق، ج 1، ص 49.

لإمبراطورية شاسعة تضم الأندلس والمغرب الأقصى، وجزئ من المغرب الأوسط، فقد أصبح المغرب الأقصى في تلك الفترة الأمين على التراث العربي الإسلامي بعد سقوط غرناطة<sup>(1)</sup>.

وهكذا لعب المغرب العربي، دورا هاما في الازدهار الثقافي الذي مس منطقة السودان الغربي والجدير بالذكر أن التبادل الثقافي عبر الصحراء، لم يتأثر بما كان يجري من تحولات سياسية في السودان الغربي وبلدان المغرب، وأخذت العلاقات بين الطرفين أشكالا إيجابية تمخضت عن ارتباط عضوي سياسي، اقتصادي، وثقافي<sup>(2)</sup>، ويتمثل الدور المغربي في المجال الثقافي والحضاري في النقاط التالية:

#### أ- التعليم والحركة العلمية:

لقد كان التعليم في السودان الغربي محصورا بالأساتذة المغاربة، وبعد مضي مدة تكونت طبقة مثقفة من الإفريقيين تولت مهمة التعليم، بعد أن تخرجت من المدارس المغربية والمصرية<sup>(3)</sup>، حيث كادت مدارس الثقافة الإسلامية في المنطقة أن تكون مدارس مغربية بحتة<sup>(4)</sup>.

وتميز التعليم أيضا بنفس الأسلوب ونفس الحياة، ونفس المثل ونفس الوسائل المتبعة في المغرب الأقصى وحتى طريقة الكتاب نفسها تأثرت أيضا بالطابع المغربي، فالقلم العربي المستخدم هو القلم المغربي كذلك نفس المناهج والكتب المالكية المغربية منها: كتب عياض، وكتب سحنون، وشروح ابن القاسم

1 شوقي عطا الله الجمل: الحضارة الإسلامية العربية في غرب افريقية سماتها ودور المغرب فيها، مقال بمجلة المناهل المغربية تصدر عن وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية، مطبعة فضالة، المغرب، عدد 7 1976، ص 134.

2 محمد الغربي، المرجع السابق، ص 513.

3 نعيم قداح، المرجع السابق، ص 160.

4 حسن أحمد محمود، المرجع السابق، ص 244.

وخليل، وتحفة الحكام والعباد<sup>(1)</sup>، وكتب الونشريسي وموطأ الإمام مالك، والمدونة الخزرجية<sup>(2)</sup>.

وانتقل حب المغاربة للنحو والصرف إلى الإفريقيين، لأن كثيرا من كتب النحو حملها الكثير من الأساتذة المغاربة إلى منطقة السودان الغربي<sup>(3)</sup>، واقبال طلاب المنطقة على العلم دفعهم في كثير من الأحيان إلى عدم الاكتفاء بالدراسة في السودان، بل قام الكثير منهم برحلات واسعة إلى بلدان المغرب ومصر<sup>(4)</sup>، فقد شهدت حواضر المغرب حضور متميز للعناصر السودانية، تنهل من حياض المعرفة إما في رحاب جامعة القرويين بفاس، أو في جامعة ابن يوسف بمراكش، أو في غيرها من منارات العلم، كما أن علماءها لم يتوانوا عن الدفع بعجلة النشاط الثقافي ببلاد السودان الغربي<sup>(5)</sup>.

فقد كان من الطبيعي أن تكون الرحلة قائمة بين الجانبين، وأن ينشأ عنها جالية مغربية في السودان الغربي، وجالية سودانية في بلاد المغرب الأقصى وضمن هذه وتلك برز عنصر العلماء الذين أسهموا في نشاط الحركة الفكرية والثقافية هنا وهناك كما ذكرناهم سابقا<sup>(6)</sup>، وارتبطوا ارتباطا وثيقا بمؤلفات المغاربة التي اعتمدها في حلقات الدروس، ومجالس العلم، وكان للعلماء السودانيين عليها شروح وتعليقات تمثلها تلك المخطوطات السودانية الكثيرة في مكتبات السودان والعالم<sup>(7)</sup>.

1 حسن أحمد محمود، المرجع السابق، ص 244.

2 السعدي، المصدر السابق، ص 43,46.

3 نعيم قдах، المرجع السابق، ص 161.

4 زبادية، الحضارة العربية، المرجع السابق، ص 57.

5 الطيب الوزاني، المقال السابق، ص 485.

6 محمد أمين المؤدب، المقال السابق، ص 592.

7 زبادية، المرجع السابق، ص 54.

وهذه الشروح كثيرة، نذكر منها شرح المقدمة الأجرومية لأحمد بن أندغم محمد التمبكتي الفقيه المتوفي في سنة 1045هـ/1635م<sup>(1)</sup>، وشرح آخر للشريف محمد بن الإمام أحمد الإدريسي لكتاب البسط والتعريف للمكودي<sup>(2)</sup>، كذلك شرح منظومة المغيلي في المنطق لوالد أحمد بابا التمبكتي<sup>(3)</sup>.

هذا وقد أسهم علماء السودان بنوع آخر من التأليف، يمكن أن ندرجه تحت اسم "الردود" وقد تجلّى أكثر ما تجلّى في الجانب العقدي والتشريعي<sup>(4)</sup>.

### ب- الجانب العقدي:

إن تدفق الإسلام من بلاد المغرب إلى افريقية مند ق:5/9م، حمل معه إلى غرب افريقية تقاليد بلدان المغرب وثقافته، هاته الثقافة قد غلبت عليها التقاليد المالكية الدينية، وكانت كلها تدور حول فقه الإمام مالك، والعلوم المساعدة الأخرى التي تخدم هذا الفقه<sup>(5)</sup>، ويعد ترحيب السودانين بهذا المذهب مظهر من مظاهر الائتلاف بين الجانبين، حتى أصبح المغرب.أ. الوطن الأب في نفوسهم ومشاعرهم<sup>(6)</sup>.

وكان الفقهاء مالكيين في حياتهم وتقاليدهم وانتاجهم وتأليفهم وتدريسهم، فتأثر بهم سكان المنطقة وتراجم العلماء والفقهاء التي وردت في كتاب نبل الابتهاج، أو في تاريخ السعدي، أو الفتاش تعطينا هذه الصورة المالكية

1 البرتلي، المصدر السابق، ص ص39,26.

2 نفسه، ص 139.

3 نفسه، ص 30.

4 محمد أمين المؤدب، المقال السابق، ص 596.

5 حسن أحمد محمود، المرجع السابق، ص 244.

6 الطيب الوزاني، المقال السابق، ص 484.

الصرفة<sup>(1)</sup>، وقام الكثير من فقهاء المالكية المغاربة، بالشرح والتعليق على أمهات الكتب وتأليف المختصرات والشروح والحواشي، وقاموا أيضا بالقضاء والفتيا في المنطقة<sup>(2)</sup> وقد تردد كتاب الموطأ في فتح الشكور 14 مرة، ومختصر خليل 54 مرة، وفي المدونة 10 مرات، مما يؤكد انتشار هذا المذهب في السودان الغربي<sup>(3)</sup>.

وقد انتشرت في المنطقة عدة طرق صوفية، كالقادرية، والتجانية، والسنوسية، وتعد الطريقة القادرية التي تأسست في ق: 6/هـ/10م، أوسع الفرق الدينية انتشارا في منطقة السودان الغربي<sup>(4)</sup>.

### 3. الحياة الاجتماعية:

كانت حياة البلاط الملكي في السودان الغربي صورة لما كان سائدا في بلاط مراكش والقاهرة وكان السلطان يحظر صلاة الجمعة، وينظر في الشكاوي المقدمة له في المسجد<sup>(5)</sup>، ويستمع الى الخطبة التي يلقيها الإمام بالعربية<sup>(6)</sup>، وفرضت الثقافة الإسلامية على الحاكم، أن يتجول في شوارع عاصمة ملكه متفقدا بذلك

1 حسن أحمد محمود، المرجع السابق، ص 244.

2 أحمد مرجان محمد: فقهاء المالكية وآثارهم في مجتمع السودان الغربي في عهد مالي وصنغي، مكتبة الثقافة الدينية القاهرة، ط1، 2010، ص 98.

3 محمد أمين المؤدب، المقال السابق، ص 591.

4 حسن ابراهيم حسن: انتشار الإسلام في القارة الإفريقية، مكتبة النهضة الإسلامية، القاهرة، 2000، ص 43.

5 نعيم قدام، المرجع السابق، ص 175.

6 اتخذت اللغة العربية لغة السياسة والإدارة، ولغة العقيدة والشريعة، إضافة إلى كونها لغة التعامل التجاري، وقد اهتمت الطبقة المثقفة في بلاد السودان الغربي باللغة العربية وكذلك حكام البلاد، الذين أتقنوها قراءة وكتابة، حيث كانت مراسلاتهم مع الفقهاء والعلماء باللغة العربية. أنظر صباح الشخلي، المقال السابق، ص 25.

شؤون الرعية<sup>(1)</sup>، وقد اصطنع سلاطين سنغاي لنفسهم أنسابا عربية مثل انتسابهم الى عبد الله بن صالح بن الحسن بن علي رضي الله عنهم، هذا كله ليكتسبوا صبغة اسلامية كاملة ويفوزوا برضا الرعية والعلماء<sup>(2)</sup> وكانت تقاليد الحج مشابهة للتقاليد المغربية المعروفة آنذاك، فقد حرص الأسكيا محمد الكبير كما ذكرنا سابقا، على أن يأخذ معه الى الحج جمعا كبيرا من العلماء والأعيان، مثل مواكب الحج التي تخرج من المغرب الأقصى<sup>(3)</sup>.

وقد تشبه أهل السودان الغربي في لباسهم، بنمط المغرب الأقصى وتأثروا به، فكانوا يرتدون عمامة بحنك وجباب ودراربع بلا تفريج<sup>(4)</sup>، واتخاذهم البرانس، والقمصان للرجال<sup>(5)</sup>، وكان اللون الأبيض مع عمامة زرقاء اللباس التقليدي للعلماء<sup>(6)</sup>.

### أ- الفنون:

لم يكن الإبداع الفني غائبا على منطقة السودان الغربي فقد قال الوزان في هذا الصدد أن سكان سنغاي يبيتون في غناء ورقص حتى مطلع الفجر، وتزداد تلك الظاهرة انتشارا وقوة في الأعياد والمناسبات<sup>(7)</sup>، وقد تأثر أهل المنطقة بالمديح النبوي، الذي عني به المغاربة مند عصر الموحدين عناية شديدة، وازدادت تلك

1 نعيم قدام، المرجع السابق، ص 176.

2 حسن أحمد محمود، المرجع السابق، ص 243.

3 زيادية، المرجع السابق، ص 57.

4 القلقشندي، المصدر السابق، ج 5، ص 298.

5 زيادية، مملكة سنغاي، المرجع السابق، ص 132.

6 محمد الغربي، المرجع السابق، ص 609.

7 الوزان، المصدر السابق، 101.

العناية في العصر السعودي<sup>(1)</sup>، وقد كان الشاعر يشارك في مواكبة الصلات الثقافية بين الجانبين، على جانب الشاعر المغربي، الذي كلما دعا داع إلى ذلك<sup>(2)</sup>.

وقد شاعت بعض الأشكال الموسيقية ذات الجذور الإفريقية في المجتمع المغربي، الذين أضفوا عليها مقومات فنية نابعة من الحضارة المغربية، ونعني بذلك الفن "الكنناوي"، الذي أصبح لا يخلو من نفحات صوفية<sup>(3)</sup>، وقد اتسع نطاق التأثير الثقافي المغربي على السودان الغربي، ليشمل جانب فني جمالي آخر، فقد حاكى سلاطين السودان وأمراؤه وأعيانه، المغاربة في اصفاء الرونق والجمال على قصورهم ومساجدهم وهكذا كان المبدعين المغاربة من مهرة الصناعات الفاسيين والمراكشيين يشيعون الفن المغربي الأندلسي في حواضر إفريقيا الإسلامية ومازالت النقوش الفاسية، والشمسيات الزجاجية تشهد على عبقرية الإبداع المغربي<sup>(4)</sup>.

### ب- العمارة:

إن دراسة الآثار العمرانية في جنى، وتمبكتو في ق10هـ/16م، تكشف لنا عن أسلوب البناء الذي ساد في هذه البلاد والذي يعود في أصله إلى الهندسة المعمارية في المغرب، التي حملها المهندسون المغاربة أو من سكان المنطقة الذين درسوا فن العمارة في فاس ومراكش<sup>(5)</sup>، فقد كان الفن المعماري الأصيل في إفريقيا قبل دخول الإسلام هو البناء المستدير، المغطاة سطوحه دائما بالأخصاص والقش في شكل هرمي، تبنى حيطانه بالطوب والآجر ونادرا ما تتخللها الحجارة، وفي الأغلب

1 محمد أمين المؤدب، المقال السابق، ص 602.

2 محمد أمين المؤدب، المقال السابق، ص 598.

3 الطيب الوزاني، المقال السابق، ص 492.

4 شوقي عطا الله الجمل، المقال السابق، ص 158.

5 شوقي عطا الله الجمل، المقال السابق، ص 159.

يتميز بناء الأغنياء من بناء العامة<sup>(1)</sup>، ووجدت لدى سكان السودان.غ. عادة بناء حوش أو زربية امام المنزل لإيواء الحيوانات، خاصة لدى قبائل الفلان<sup>(2)</sup>.

ولعل من أبرز المهندسين المغاربة الذين دخلوا منطقة السودان.غ.، مبكرا بإيعاز من ملوكها للإشراف على بناء القصور والمساجد، المهندس إبراهيم الساحلي<sup>(3)</sup>، هذا الأخير شيد الكثير من المباني ومسجد في تمبكتو، وقصرا في نيامي، وقد أعجب ابن بطوطة بالقاعة التي كانت مجلسا للسلطان وأقام التجار في المنطقة حوانيت على الطريقة المغربية، في بناء مخازن البضاعة وقد لعب المعماريون المغاربة أيضا دورا في تخطيط مدينتي جنى وجاو، التي تمتازان بالشوارع الضيقة والسطوح العالية، والأبواب الضخمة<sup>(4)</sup>.

وكان هناك نوع من البناء الشائع الاستعمال في المغرب الأقصى والأندلس، المتمثل في الشكل المربع المسقوف بالتراب، والمحاطة جوانبه من أعلى بإطار قليل الارتفاع يتخلله ثقب صغير، لكي لا تستقر المياه في السطح وكان خاصاً بدور السادة، ثم عمّ استعماله لدى الجميع<sup>(5)</sup>، وفيه أيضا بركة اصطناعية يكبر حجمها ويصغر حسب درجات الناس وامكانياتهم<sup>(6)</sup>، وقد شاع في السودان بناء الأسوار حول المدن تشبها بما شاع في المغرب، وعرف في مدينة كومبي الحي المغربي بمنازله

1 زبادية، المرجع السابق، ص 165.

2 نفسه، ص 166.

3 عندما زار وفد مالي للمغرب عام 741هـ/1341م، في عهد السلطان أبي الحسن المريني لتقوية العلاقات بين البلدين، وعند انتهاء الزيارة جمع السلطان عدد من الصناع للذهاب معه، وكان على رأس تلك البعثة أبو اسحاق ابراهيم الساحلي، الذي ساهم في الحركة المعمارية بالمنطقة آنذاك أنظر: شوقي عطا الله الجمل وآخرون، المرجع السابق، ص 118.

4 نعيم قدام، المرجع السابق، ص 146.

5 زبادية، المرجع السابق، ص 166.

6 نفسه، ص 166.

المغربية ونوافذه الزجاجية، وقد كان حكام هذه البلاد وشعوبها ينظرون لما يشيع في بلاد المغرب العربي والبلاد العربية الأخرى من حضارة على أنها مثل عليا تحتذى بها<sup>(1)</sup>.

### - الخاتمة:

وفي الختام ، يمكن القول أنه على الرغم من أن بلاد السودان الغربي قد اشتهرت بتجارة الملح والذهب وبمساهمته الفعالة في تجارة القوافل عبر الصحراء الكبرى، بينه وبين الشمال الإفريقي، فإن خصوصيات أرض السودان الغربي وبيئتها ومناخها، أغدقت على البلاد خيرات زراعية وحيوانية وسمكية ومعدينية وفيرة، وقد لعبت التجارة الصحراوية دورا هاما في تقوية العلاقات شمال جنوب، التي تعود إلى فترة مبكرة من التاريخ، وربما نستطيع القول بدون أي تحفظ أن الإسلام كان أكبر عامل في هذه العلاقات المتنوعة بين شعوب المنطقتين والذي كان له الدور الرئيسي في ازدهار الحياة الثقافية والحضارية في منطقة السودان الغربي خاصة خلال القرن 10هـ/16م، وهذا التفاعل بين الإقليمين كان من القوة بحيث أفضى على تسرب مقومات تنتهي من الإبداع المغربي على بنية الحضارة الإفريقية في ظل الإسلام، فإن المغاربة قد أسعفتهم جملة من العوامل والمؤهلات، لقيادة الفعل التجاري والثقافي في السودان الغربي واذكاء جذور الحضارة الإسلامية في غرب افريقية لدرجة يذهب معها بعض الباحثين إلى أن تاريخ الإسلام في هذه الربوع لا يمكن فهمه الا في ضوء تاريخ المغرب العربي وأحداثه، رغم أنها لم تكن السباقة إليها في نشر الإسلام ، إلا أنه يرجع كل الدور إلى تلك الدول وإلى حركة التجارة التي ازدهرت في المنطقة.

ولم تكن الثقافة في غرب أفريقيا أقل غزارة وعمقا من الثقافة في بلاد البلدان المغاربية، ولم يكن العلماء والفقهاء الذين تعرضت لهم كتب التراجم أقل في

1 شوقي عطا الله الجمل، المقال السابق، ص ص158-159.

مستواهم العلمي من إخوانهم المغاربة فالتفاعل والتواصل والتلاحم بين الأقطار الإفريقية الواقعة جنوب الصحراء الكبرى كان عميقا وقويا ظهرت فيه عناصر التأثير والتأثر من الجانبين في جميع ميادين الحياة، ولهذا فإن الحركة الثقافية والحضارية في بلاد السودان الغربي خلال القرن 10هـ/16م، لم تكن في الواقع مجرد تجديد لتراث ثقافي وحضاري بائد، وإنما كانت انفراجا لثقافة إسلامية راسخة في هذه البلاد، منذ قرون خلت، وأدى المغاربة دورا كبيرا فيها.

## الحركة التجارية بين إقليم توات والسودان الغربي خلال القرنين 18-19م

الطالب الباحث: حامد لمين ابراهيم

طالب دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر جامعة غرداية

شكّلت قوافل التجارة العابرة للصحراء شريان الحياة من الناحية الاقتصادية والاجتماعية بين إقليمي توات والسودان الغربي. لأن الحركة التجارية هي التي عكست مدى عمق النشاط الاقتصادي بين مجالي الدراسة، كما كان لموقع توات الاستراتيجي مكانة هامة ساعدت في ربط مسالك التجارة الصحراوية، حيث أصبح حلقة وصل بين ضفتي الصحراء الكبرى<sup>(1)</sup>. ولهذا كانت التجارة إحدى الأسباب الرئيسية في الصراعات السياسية والحروب والهجرات. كما كان تنظيم القوافل والتحكم في الطرق التجارية واستقطابها غنيمة تتنازع عليها جماعات البدو، لما تدرّه من أرباح ورسوم ووفرة للسلع والغذاء.

### 1- الموقع الجغرافي لإقليمي توات والسودان الغربي:

#### أ- إقليم توات:

يقع إقليم توات في الجنوب الغربي من الجزائر، وهو جزء من الصحراء الكبرى الممتدة على عرض إفريقيا الشمالية، يضم ثلاث مناطق كبرى وهي: تيجورارين (قورارة)، توات، تيديكلت، ويحد الإقليم من الشمال الغربي العرق الغربي الكبير و واد الساورة، و من الغرب عرق شاش و واد مسعود، و من الجنوب صحراء تنزروفت وهضبة مويدر، ومن الشرق والشمال العرق الشرقي

1- محمد الصالح حوتية : آل كنته دراسة تاريخية من خلال الوثائق المحلية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر للهجرة ق18-19م، دار الكتاب العربي، الجزائر، ط1، 2008 م، ص ص

وهضبة تادمايت. أما فلكنيا فيقع الإقليم بين خطي طول 01 شرقا و 03 غربا، وبين دائرتي عرض 20<sup>0</sup> إلى 30<sup>0</sup> شمالا، وبالتالي فإن خط غرينتش و دائرة مدار السرطان يتقاطعان بإقليم توات<sup>(1)</sup>.

وقد حدد المؤرخ المحلي محمد بن عبد الكريم<sup>(2)</sup> أبعاد الإقليم بالنسبة للأقاليم المحاذية له... "بينها وبين سجلماسة ثلاثة عشر يوما، وغربا عشرون يوما لأول السودان، ومن غدامس عشرون يوما، ومن بلاد الزاب عشرة أيام شرقا و من ناحية أولاد عيسى مقدار أسبوع إسرعا لبلد الأبيض سيد الشيخ... " ويتوزع الإقليم على ثلاثة مناطق من الشمال إلى الجنوب و هي: تيجورارين ، وتوات، وتديكلت.

**ب- السودان الغربي:** تقع أراضي بلاد السودان ما بين دائرتي عرض: 04<sup>0</sup> و 16<sup>0</sup> درجة شمال خط الاستواء في الجنوب وخطي طول: 13<sup>0</sup> و 17<sup>0</sup> درجة غرب خطي غرينتش، و يحدها من الشمال الصحراء الكبرى، و من الشرق الكامرون و بحيرة تشاد، و من الجنوب خليج غينيا بالمحيط الأطلسي، و من الغرب المحيط الأطلسي<sup>(3)</sup>. وينقسم بلاد السودان إلى ثلاثة أقسام وهي:

- **السودان الشرقي:** و هو يشمل مناطق النيل و روافده جنوب بلاد النوبة.

- **السودان الأوسط:** و يشمل المناطق المحيطة ببحيرة تشاد.

- الهوامش:

- 1 - مبارك جعفري: العلاقات الثقافية بين توات و السودان الغربي خلال ق 12هـ ، دار السبيل ، الجزائر، ط1، 2009م، ص 32.
- 2 - محمد بن عبد الكريم بن عبد الحق البكري: درة الأفلام في أخبار المغرب بعد الإسلام، مخطوط بخزانة أولاد القاضي البكرية، تمنطيط، أدرار، الجزائر، الورقة 101 و.
- 3 - محمد فاضل علي باري و سعيد إبراهيم: المسلمون في غرب إفريقيا تاريخ و حضارة، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 2007م، ص ص 19-20.

- السودان الغربي: و هو يشمل حوض السنغال و غامبيا و بوركنافاسو (فلتا العليا) و النيجر الأوسط<sup>(1)</sup>.

وموضع الدراسة هو القسم الأخير من بلاد السودان، ويسمى أيضا إفريقيا الغربية و بلاد التكرور.

## 2- المسالك التي تربط توات بالسودان الغربي والأسواق المتمركزة بها.

ترتبط توات بالأسواق الشمالية للجزائر، والمغرب الأقصى، وجنوب تونس، و طرابلس، ثم غدامس وغات، وكل هذه الأسواق ترتبط مع أسواق توات عبر مسالك و طرق من ناحية تيجورارين (قورارة) أو ناحية تديكلت بعين صالح<sup>(2)</sup>، وبعد اجتماع القوافل بإقليم توات تتفرع هذه القوافل في مسالك و طرق متعددة، تربط توات بأسواق و حواضر السودان الغربي.

### أ- مسالك القوافل التجارية بين توات والسودان الغربي:

أبرز هذه الطرق التجارية التي تربط إقليم توات مع أسواق السودان الغربي هي:

- طريق توات تنبكتو عبر رقان: و ينطلق من رقان نحو حاسي حسدة ثم حاسي البوز ثم حاسي الملح، ثم رقلة، ثم تنصر، ثم صبطي، ثم طرفية، ثم تدقوير، ثم تليق، ثم تاودسي، ثم تمبكتو.

- طريق توات قاو: و ينطلق من أقبلي جنوب توات ثم مراقن، ثم والن، ثم صحراء تانزروفت، ثم البرج، ثم حاسي باكتليس، ثم تساليت، ثم اقلهوك، ثم

1 - عبد القادر زبادية: الحضارة العربية و التأثير الأوروبي في إفريقيا الغربية جنوب الصحراء دراسات نصوص، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1989م، ص 11.

2 - المرجع نفسه، ص 111.

أنافيق، ثم تبرشات، ثم تبنكورت، ثم تنقارا، ثم قاو، و في والن يخرج منه طريق فرعي آخر نحو الأربعمئة، ثم تجنون، ثم أشواردشبي، ثم أنافيس، ثم أماهور.

- طريق توات عبر أقبلي: ازدهر هذا الطريق خلال القرن التاسع عشر، حيث ينطلق من أقبلي ثم تين تني، ثم والن وبعد أيام تدخل القافلة صحراء تنزروفت؛ وهي صحراء قاحلة منبسطة ثم تصل إلى انغان ثم المبروك، ثم المامون، ثم بوجبيهة، ثم أروان، وهي محطة رئيسية للقوافل، ثم وأعوازن، ثم تصل القافلة بعدها إلى تبنكتو.

- طريق عين صالح تبنكتو: وينطلق هذا الطريق من تديكلت بعين صالح، ثم إينغر، تيط، أقبلي، زاوية حينون بأولف، المالح، ثم عين الشبي، تمادنانين، و هذه آخر نقطة في توات ثم بعدها يأتي حاسي تباين، ثم والن، صحراء تنزروفت، عين زنان، لمبروك، المامون، بوجبيهة، تبنكتو، و من المامون تذهب بعض القوافل إلى أروان ثم إلى تبنكتو.<sup>(1)</sup>

- طريق توات قاو عن طريق الهقار: وينطلق ها الطريق من عين صالح بتوات ثم الهقار، ثم غات، كاهر، قاو، و قد ورد هذا الطريق في رحلة ابن بطوطة حيث أخذ هذا الطريق راجعا من قاو إلى توات<sup>(2)</sup>.

1 - مبارك جعفري: الحياة الاجتماعية والاقتصادية في منطقة الأزواد خلال القرن 13هـ / 19م، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث، كلية العلوم الإنسانية، قسم التاريخ، جامعة الجزائر2، 2013-2014م، ص 333.

2 - ابن بطوطة محمد بن عبد الله: رحلة ابن بطوطة: تحفة النظار في غريب الأمصار و عجائب الأسفار، تح. محمد عبد المنعم العريان، راجعه مصطفى القصاص، دار إحياء العلوم، بيروت، لبنان، ج2، ط1، 1987 م، ص ص 406، 407.

- طريق غدامس تنبكتو عبر توات: تنطلق من غدامس، تنغين، ثم البيده، لمسقم، زرابية، أرسالن، عين صالح بتوات، و من هنا يتصل بطريق توات تنبكتو.  
(1).

عرف طريق غدامس تنبكتو حركية كبيرة، بعد احتلال الفرنسيين للشمال الجزائري؛ لأن القوافل دائما كانت تبعد عن الفرنسيين و لهذا عرف الطريق الرابط بين توات و تنبكتو المتجه نحو الجزائر تراجعا كبيرا لصالح الطريق الشرقي المتجه من تنبكتو إلى غدامس عبر توات<sup>(2)</sup>.

### ب- أهم الأسواق و مراكز التبادل التجاري في بلاد السودان الغربي:

- **تنبكتو:** كانت مدينة تنبكتو من تأسيسها سوقا تجاريا يلتقي فيها تجار الشمال مع الجنوب، كما شكلت مستودعا للبضائع الرئيسية في غرب إفريقيا و ساهم في ذلك موقعها الاستراتيجي وسط الصحراء، كونها يلتقي بها تجار الشمال مع الجنوب، و الشرق مع الغرب<sup>(3)</sup>. تحظى مدينة تنبكتو بموقعها النهري على نهر النيجر المطل على المحيط الأطلسي، و بذلك تكون البلدة الوحيدة التي تتحكم في الطرق البرية النهرية التي تفد إليها من مصر، و المغرب و طرابلس عن طريق الصحراء، و من أوروبا عن طريق المحيط ثم النهر، وقد أطلق عليها الأوروبيون المدينة عزيزة المنال غامضة الأسرار لا تتجاوزها في تراثها و جمالها أي بلد إفريقي

1 - مبارك جعفري: الحياة الاجتماعية و الاقتصادية في منطقة الأزواد خلال القرن 13هـ / 19م، المرجع السابق، ص 333.

2 - س. باير: الصحراء الكبرى في القرن التاسع عشر، تاريخ إفريقيا العام، ج 6، إصدار منظمة الأمم المتحدة للتربية و العلوم، باريس، طباعة حسيب درغام و أولاده، لبنان، ط 1، 1996م، ص 597.

3 - جعفري مبارك: الحياة الاجتماعية و الثقافية في منطقة الأزواد خلال القرن 13هـ / 19م، ص 335.

آخر في ذهبها أو ملحها، و قد وصفها أبناءها أيضا بأنها خير البلاد و لا نظير لها تعيش في حرية وأمن ورفاهية<sup>(1)</sup>.

يقوم سكان تنبكتو بتدبير الإقامة المجانية للضيوف، و لأي تاجر غريب مدة ثلاثة أيام و يعامل معاملة حسنة و راقية، و في اليوم الرابع يدلّه المضيف ليستأجر احد مساكنه و يخبره أيضا بالأسعار السائدة ومدى وفرتها أو ندرتها، و يساعده في الحصول على مشترياته و سكانها لا يقومون باي عمل، فهم ليسوا مصدرين و لا مستوردين، بل هم الوسطاء، و أصحاب الأرض<sup>(2)</sup>. و أشار فليكس ديوا (Dubois Flelix) أنه رأى منازل مدمرة تحتوي بداخلها مخازن و سلع و هي بغرض التمويه عن اللصوص و قطاع الطرق، و في إحداها ما قيمته 50 ألف فرنك من السلع<sup>(3)</sup>. و قدر حجم الأموال المتداولة في تنبكتو سنة 1313هـ/1895م 460 ألف فرنك، و قال أنها لا تمثل إلا ثلث المبلغ الحقيقي، و قد تصل إلى 20 مليون فرنك فرنسي، و تم تقييم حجم التجارة سنة 1316هـ/1898م في تنبكتو بحوالي مليونين و سبعمائة و ستين ألف 2760000 فرنك دون احتساب تجارة الأرز الذي تعرض للفيضانات.

زار الحسن الوزان مدينة تنبكتو في أوائل القرن 16م، و ذكر أن بها دكاكين كثيرة لصناعة و تجارة الأقمشة النيلية، و القطنية و يجلب إليها التجار المغاربة

1 - محمد الصالح حوتية: توات و الأزواد، : توات و الأزواد خلال القرنين 12 و 13 هـ دراسة تاريخية من خلال الوثائق المحلية، دار الكتاب العربي، الجزائر، ج 1 ، 2007م، ص ص 169-170.

2 - مبارك جعفري: الحياة الاجتماعية و الاقتصادية في منطقة الأزواد خلال القرن 13هـ/19م، المرجع السابق، ص 335.

3 - المرجع نفسه، ص 335.

الأقمشة من أوروبا<sup>(1)</sup>. كما أورد الرحالة ابن بطوطة "تنبكتو في رحلته مينا الأهمية الاقتصادية لهذا المركز الذي يربط شمال الصحراء"<sup>(2)</sup>.

- مركز جاو (GAO): هي عاصمة مملكة السنغاي، تقع حاليا إلى الشمال الشرقي من العاصمة باماكو بجمهورية مالي، ورد ذكرها على لسان البكري الجغرافي حوالي 1067م، مكّن الموقع الجغرافي الاستراتيجي لجاو على منحى نهر النيجر نحو الجنوب أشرفها على حركة الملاحة، وصفها الحسن الوزان بالمدينة العظيمة ، و أضاف بأن بها قصور الملك و رؤساء دولته، و تحدث الحسن الوزان أيضا عن نشاط المدينة الاقتصادي المتمثل في كثرة الأسواق و تنوع السلع التي ترد إليها من أوروبا و بلاد البربر<sup>(3)</sup>. كانت جاو تعج بالعديد من المتاجر التي يشرف عليها تجار من جميع الأجناس و لها تجار أثرياء، و ترد إليها الأقمشة من المغرب و أوروبا. كما يوجد بها سوق للرفيق يتعش عند قدوم التجار، و سكانها تجار متجولون في المنطقة مع بضائعهم، و يقصدها عدد لا يحصى من السود الذين يجلبون كميات كبيرة من الذهب ليشتروا بها البضائع التي يجلبها تجار الشمال<sup>(4)</sup>.

- جني: تقع مدينة جني إلى الجنوب الغربي من مدينة تنبكتو، و تبعد عنها بحوالي ستمائة كيلومتر تقريبا، تأسست في القرن الثاني الهجري 2هـ/ 623م، كانت مركزا تجاريا هاما واشتهرت بتجارتي الملح والذهب، وملتقى القوافل التجارية

1 - ابن بطوطة: المصدر السابق، ص 25.

2 - الحسن الوزان: وصف إفريقيا، تر. محمد حجي، محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ج2، ط2، 1983م، ص ص 165-166.

3 - المصدر نفسه، ص 169.

4 - محمد الصالح حوتية: توات والأزواد، المرجع السابق، ص 170.

التي تسير بين الشمال و الجنوب، وقد وصفها عبد الرحمان السعدي قائلاً: "...هي سوق عظيم من أسواق المسلمين وفيها يلتقي أرباب الملح"<sup>(1)</sup>.

ويشير الحسن الوزان إلى ثرواتها الحيوانية، والسمكية والزراعية، ولاسيما القطن الذي يشتريه التجار المغاربة لتصديره إلى أوروبا مقابل أواني نحاسية وأسلحة وغيرها من سلع، كانت تنبكتو تأتيها السلع من جني، ويعلل السعدي ذلك بكون التجار لا يستطيعون البقاء فيها كثيراً، وهم يبيعون بسرعة و بثمان بخس ليرجعوا إلى بلدانهم<sup>(2)</sup>. ويقول لانز (lenz): أن الذهب المتداول في أروان مصدره جني، و هو على شكل حلقات رقيقة و خشنة وعلى شكل حبيبات صغيرة<sup>(3)</sup>.

يذكر دييوا (Debois) أن جني قدمت تجارة حقيقية بدلا من نظام المقايضة البدائي بين قرية وأخرى، و في سوق جني الكثير من السلع الأوروبية مثل الخرز، العنبر، المرجان، الكبريت، البنادق<sup>(4)</sup>. يمتلك تجار جني قوارب هي أشبه بالمخازن، وهي واسعة يصل طولها ما بين ثمانية عشر وعشرين متر، وعرضها حوالي ثلاثة أمتار، يستطيع أن يحمل حمولة ما بين عشرين و ثلاثين طن، ينقل بها التجار سلعهم لتنبكتو، وباقى المدن على ضفاف النهر، وفي السوق تجد الباعة من النساء والرجال والبضائع منتشرة هنا و هناك، وتُنسَّقها ممرات بين الباعة و جانب من السوق يفتح على المسجد، و هناك رجال الصرافة و معهم تلال من الأصداف،

1 - عبد الرحمن السعدي: تاريخ السودان، مطبعة هوداس، باريس، 1981م، ص ص 12، 14.

2 - المصدر نفسه، ص ص 11، 14.

3- Oskar: Tombouctou voyage au Maroc au Sahara et soudan, librairie Hachette, Paris, 1987, P 104.

4 - فيليكس دييوا: تمبكتو العجيبة، تر. عبد الله عبد الرزاق إبراهيم، مراجعة شوقي عطالله الجمل، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط 1، 2003م، ص ص 144 - 145.

و هناك محلات الجزارين، و بائعي الأسماك. و التجارة الرئيسية في جنبي بيد العرب، و هناك ما بين ثلاثين أو أربعين تاجرا عربي يعيشون في أفضل المنازل في المدينة<sup>(1)</sup>. و يذكر أهل السودان مقولة مفادها أن جنبي أكبر لأنها تمثل دور المنتج، أما تنبكتو فهي مستودع، و سكانها وسطاء و هم أقل ثروة من سكان جنبي<sup>(2)</sup>. و مع الشهرة التي وصلت إليها جنبي؛ لكنها لم تصل لمكانة تنبكتو من حيث الشهرة لأن القوافل القادمة من الشمال كانت تجد في تنبكتو كل ما جاءت تبحث عنه في السودان الغربي، لذلك القليل منهم من يكمل الرحلة إلى جنبي، لو كان ذلك من أجل سلع أرخص و هذا نتيجة التعب و مزيد المشقة على القوافل التي قطعت الصحراء من الشمال إلى تنبكتو<sup>(3)</sup>.

- مركز أروان: محطة تجارية رئيسية، كونها تقع مفترق الطرق للقوافل القادمة من الشمال و الذهابة لتنبكتو و جنبي، فيها مختلف السلع خاصة الملح القادم من تاودني، و الذهب الذي تصدره جنبي<sup>(4)</sup>. تسيطر قبائل البرابيش على الطريق الرابط بينها و بين تنبكتو<sup>(5)</sup>. منطقة أروان تقوم بنفس الدور الذي تقوم به توات في الشمال، فمنها يتمكن التجار من التزوّد بالمواد التجارية و الماء العذب و الكلاً لحيواناتهم، كما يأخذون قسطهم من الراحة، و يتم تبادل منتجات السودان و

1- René (Caillié): voyage رَحَلَهَا اللهُ un faux musulman a travers l'Afrique, Tombouctou, le Niger, jenné et le désert , a travers le continent noir, imprimerie, Eugene Ardant, Limoges, 1882, P 97.

2 - فليكس دييوا: المصدر السابق، ص 148.

3 - المصدر نفسه، ص 149.

4- Oskar (lenz): Op.cit, P 104.

5- Ibid: p 135.

بضائع المغرب في سوق أروان بين القوافل التي تأتي من الجنوب و القوافل التي تأتي من غدامس و توات<sup>(1)</sup>.

- **تاودني:** أرضها عبارة عن منجم كبير، وتعتبر أحد المراكز الأساسية لتصدير الملح في السودان الغربي خاصة لمنطقة جنوب نهر النيجر، أغلب سكانها من عمال المناجم، و يذكر بول مارتي (Paul marty) أن القوافل كانت تسير بانتظام نحو تاودني في فصل الأمطار - شهر نوفمبر- و في فصل الربيع - شهر أبريل -<sup>(2)</sup>. وأسعار السلع هناك مرتفعة مقارنة بالملح الذي تتم مقايضته بالأرز والنيلة والسمن، والسكر، و الشاي، و التمر، والغنم، ولحوم الثيران المجففة<sup>(3)</sup>.

- **المبروك:** هو أول محطة تجارية و سوق تجاري كبير للقوافل القادمة من توات، ينشط بها تجار من قبيلة كتته<sup>(4)</sup>.

- **بوجييهة:** هي مركز تجاري تمر عبره القوافل القادمة من وإلى تنبكتو، ويتم فيه تبادل الملح، والحبوب والأقمشة<sup>(5)</sup>.

## 2- أهم المبادلات التجارية بين إقليم توات والسودان الغربي.

### أ- واردات إقليم توات من السودان الغربي:

- العبيد و الإماء: تقع معظم مناطق العبيد جنوب نهر النيجر، حيث يتم أسر العبيد في الحروب، أو بواسطة الشراء، أو الغارات على القبائل، و أهم المناطق

1 - محمد الصالح حوتية: توات و الأزواد، المرجع السابق، ص 168.

2 - بول مارتي: كتته الشريون: تع. محمد محمود و دادي، مطبعة زيد بن ثابت، دمشق، سوريا، 1985 م، ص 167.

3 - المصدر نفسه، ص 168.

4 - مبارك جعفري: الحياة الاجتماعية والاقتصادية في منطقة الأزواد خلال القرن 13هـ/19م، ص 339.

5 - بول مارتي: من عرب مالي البرابيش بنو حسان، تع. محمد محمود و دادي، مطبعة زيد بن ثابت، دمشق، سوريا، د.ت، ص 94.

هي الاستانتي، و كانو، وسيغو، و سوكتو، و فاراكو، و واغادوغو، أما أثنائها فتختلف حسب السن و البنية الجسدية و الجمال<sup>(1)</sup>. و بعد جلبهم يباعون في أسواق جنبي، و تنبكتو، و قاو؛ كونها أهم أسواق السودان الغربي.

تراجعت تجارة العبيد عبر السواحل خلال القرن 19م، خاصة بعدما ألغت بريطانيا تجارة الرق في إمبراطوريتها سنة 1246هـ / 1830م، و فرضت حصارا بحريا على إفريقيا ضد هذه التجارة فتبعته اسبانيا 1261هـ / 1835م، و البرتغال سنة 1255هـ / 1860م<sup>(2)</sup>. لكن رغم ذلك استمرت القوافل في نقل العبيد عبر الصحراء من أسواق السودان الغربي، حيث بلغت أسعار العبيد في تنبكتو سنة 1311هـ / 1894م بين 60 و 150 فرنك للكبار و من 30 إلى 50 فرنك للأطفال، و في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي كانت أثنائها 60 فرنك للفتيات من 08 إلى 10 سنوات، و بين 300 فرنك للرجال، و 100 فرنك للفتيات بين 8 إلى 10 سنوات، و بين 350 فرنك و 400 فرنك للشابات، و يتضاعف هذا السعر كلما اقتربنا من أسواق الشمال، و في الجنوب الجزائري ذكر بول سوليه (Paul solliet) في تقريره سنة 1297هـ / 1880م أن حجم تجارة الرقيق في الجنوب الجزائري بلغت 1200 عبد زنجي<sup>(3)</sup>. و ذكر ديپورتر (Déporter) نقلا عن رولف (Rohlf) فيقول " أن القوافل التواتية عادة ما تعود في كل مرة و معها من 600 ألف إلى ألف و سبعمائة عبد"<sup>(4)</sup>، تعتبر

1 - Bissuel (H) : Le Sahara Français, conférence sur la question Sahariennes, Ed Adolphe Jourdan Librairie, Alger, 1891, p 22.

2 - مبارك جعفري: الحياة الاجتماعية و الاقتصادية في منطقة الأزواد، 3هـ / 19م، المرجع السابق، ص 352.

3 - غيرهارد رولفس: رحلة إلى الكفرة تقارير الرحالة الألماني غيرهارد رولفس، تر. عماد الدين غانم، منشورات مركز جهاد الليبين للدراسات التاريخية. ليبيا، د.ت، ص 259.

4 - Déporter (Victor): la question du Touat au Sahara Algérien, Gourara, Touat, Tidikelt, fontana, Alger 1891, p 42.

تجارة العبيد من التجارة المتعبّة، كَوْن العبيد أثناء نقلهم بحاجة إلى غذاء و حراسة، فيموت منهم حوالي 20٪ في الطريق نظرا لصعوبة و مشقة الطريق في الصحراء. و لكن مع ذلك كانت أرباحها خيالية و هي تفوق أرباح الذهب<sup>(1)</sup>.

- الذهب: هو معدن طبيعي لونه أصفر برّاق و هو ألين معدن موجود في الطبيعة لأنه يمكن طرقه و هو بارد، مع أنه أنقى فلا يفسد بالنار أو تحت الأرض. كان مصدر الذهب في السودان الغربي سرا مكتوما من طرف أهله المنتجين، وأهم مصادر الذهب هي:

- منطقة البامبوك تقع بين نهر السنغال الأعلى و فرعه فاليمي.

- منطقة بوري عند ملتقى نهر النيجر الأعلى بفرعه تنكيسو.

- منطقة لوبي على الفولتا العليا

- منطقة ساحل الذهب (غانا حاليا)

يذكر الإدريسي أن بلاد وبقارة هي بلاد النبر المشهور بالطيب، والكثرة وهي جزيرة طولها 300 ميل و عرضها 150 ميل، و النيل يحيط بها من كل جهة في سائر السنة، فإذا أخذ النيل في الرجوع و الجزر، أخذ كل من بلاد السودان يرحلون طول أيام رجوع النيل - نهر النيجر - إلى النهر، فيأخذ كل واحد منهم في بحثه هناك ما أعطاه الله سبحانه و كثيرا أو قليلا من التبر<sup>(2)</sup>. وفضل استيراد الذهب من السودان الغربي، انتشر منه الكثير في إقليم توات، وكان عملة مستعملة في التجارة الداخلية و الخارجية كما كان يصنع به الحلي و يذكر رولف (Rohlf) في

1 - مبارك جعفري: الحياة الاجتماعية و الاقتصادية في منطقة الأزواد، 13هـ/19م، المرجع

السابق، ص 354.

2 - الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، المصدر السابق، ج4، ص 24.

أن القوافل التواتية نهاية القرن 19م كانت تعود و معها حوالي 50 رطلا من التبر أو الذهب<sup>(1)</sup>.

- العاج: يؤتى به من المناطق الاستوائية قرب الأنهار، أين تكثر الفيلة و فرس النهر ووحيد القرن، و من أجود أنواع العاج عاج بورنو، وذلك لبياضه الشديد وبعده عاج الهوسا الشديد الصلابة، الذي يقدر ثمنه بحوالي نصف فرنك للكيلوغرام<sup>(2)</sup>. و يذكر رولف (Rohlf): أنه رأى قافلة تواتية قادمة من تنبكتوها كميات من العاج<sup>(3)</sup>.

ويستعمل العاج في أدوات الزينة ومقابض السيوف، والسكاكين وبعض التحف الثمينة. تمتد تجارة العاج من أسواق توات إلى أسواق ورجلان ثم إلى أسواق الشمال في الشرق الجزائري، وهم بدورهم يصدرونه إلى الأفطار الأوروبية<sup>(4)</sup>.

- الأغنام: تعرف في الأسواق المحيطة بالسودان الغربي مثل توات و غدامس و ورجلان ب(سيداون) نسبة إلى المنطقة التي أتت منها، كان الإقبال عليها كبير من طرف التجار التواتيين و يخضع سعرها و وفرتها تبعا للظروف الطبيعية، فيرتفع ثمنها عند نزول المطر، و توفر الكلا و يرخص ثمنها في موسم الجفاف،

1 - Deporter, Op.cit. p 42.

2 - حسين حاجوا: المرجع السابق، ص 98. ينظر: محمد العربي الزيري: التجارة الخارجية للشرق الجزائري في الفترة ما بين 1792-1830م، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م، ص 168.

3 - Deporter: Op.cit. p 42.

4 - أحمد ذكار: حاضرة ورجلان وعلاقتها التجارية بالسودان الغربي من 1000-1301هـ/1833-1591م، أطروحة ماجستير، كلية العلوم الإجتماعية والعلوم الإسلامية، قسم التاريخ، جامعة أدرار، 2009-2010م، ص 37. ينظر: مختار حساني: موسوعة تاريخ وثقافة المدن الجزائرية، دار الحكمة، الجزائر، ج2، 2007م، ص 200-201.

تجمع الغنم كبيرها وصغيرها وتباع لتجار توات جملة واحدة، ولا يقع التفريق بين ثمن الصغير والكبير، كما يشترك عدة موالين و يجمعون ماشيتهم و يبيعونها<sup>(1)</sup>. إلى جانب الماشية يستورد تجار توات الجمال، لاستخدامها أثناء العودة لحمل البضائع و يبيع تلك التي أنهكها التعب في الصحراء، وأسعار الجمال مرتفعة جدا نظرا لأهميتها الاقتصادية وقدر ثمن الجمل الجيد بحوالي 200 مائتي فرنك<sup>(2)</sup>.

- القديد: يأتي القديد من الأسواق السودانية إلى سوق توات، وهو عبارة عن لحم المواشي و الجمال وبعض الحيوانات البرية وحتى لحم النعام؛ حيث يجفف بطريقة تقليدية، ويستعمل في هذه العملية الملح والتوابل ويعرض لأشعة الشمس حتى يفقد جميع السوائل، ويصبح قابلا للحفظ و التخزين<sup>(3)</sup>.

- الجبن المجفف: تجلب إلى سوق توات من السودان الغربي مادة الجبن المجفف أو ما يعرف (الكليّة) وهو عبارة عن حليب للمواشي و الجمال والأبقار تمّ تجفيفه و تحفيفه بطريقة تقليدية، فيمكن الاحتفاظ به لمدة طويلة و يستعمل في تحضير بعض الأطباق في منطقة توات مثل الحساء<sup>(4)</sup>.

- الجلود و المصنوعات الجلدية: تُصدّر منطقة السودان الغربي الجلود و المصنوعات الجلدية بكميات كبيرة إلى منطقة توات، و منها إلى أسواق الشمال لأن المنطقة رعوية، ويتم بيع الجلود بعد دَبغها لتصبح خفيفة الوزن، كما تصدر على شكل مواد مصنعة مثل صناعة الحقائب والأحذية، و محافظ النقود، وأدوات تجميل المرأة، و السروج، و يغلف بها أغماد السيوف و السكاكين، و يصنع منها

1 - باي بن عمر: نوازل الشيخ باي بن عمر الكنتي، مخطوط بمكتبة الشيخ محمد باي بلعالم، أولف، أدرار، الجزائر، الورقة 491 و.

2 - Oskar (lenz): Op. cit, p 103.

3 - بول مارتى: كتته الشريون، تع. محمد محمود و دادي، مطبعة زيد بن ثابت، دمشق، سوريا، 1985م، ص 168.

4 - بوعزيز يحيى: تاريخ إفريقيا الغربية الإسلامية من مطلع القرن السادس عشر إلى مطلع القرن العشرين، دار البصائر للنشر و التوزيع، الجزائر، 2009م، ص 46-47.

المزود<sup>(1)</sup>. إلى جانب جلود الماشية والبقر والإبل هناك جلود الحيوانات المفترسة، وبعض الزواحف مثل النمرور والأسود والأفاعي والعظايا وغيرها<sup>(2)</sup>.

- التوابل و الأعشاب الطبيعية: تنمو في السودان الغربي أصناف عديدة من التوابل والنباتات الطبية، التي يكثر عليها الطلب من طرف تجار توات لأهميتها الطبية والغذائية، وهي مواد تستخدم كمواد للجميل مثل الزنجبيل (العود لبيض)، و الفلفل الأسود، و القرفة<sup>(3)</sup>. و هي غالية الثمن يقبل عليها تجار توات لكونها مطلوبة جدا و مفضلة في الأسواق المحلية و تصدر إلى أوروبا عن طريق موانئ الشرق الجزائري بعد مرورها على سوق ورجلان.

- ريش النعام وبيض النعام: يجلب من الأسواق السودانية بيض النعام على شكل صورتين، إما فارغا من الملح و مغلف في بعض أجزاءه بالجد و ريش النعام، و يستعمل في تزيين المنازل، أو بيضة في شكلها الطبيعي تستعمل في تحضير العقاقير لمعالجة بعض الأمراض مثل البرد و الروماتيزم، و يمكن توقع ربحا صافيا مائتي فرنك عن كل نعامة سنويا<sup>(4)</sup>. وبلغ حجم تجارة ريش النعام في منتصف القرن 13هـ / 19م حوالي 25 مليون فرنك سنويا<sup>(5)</sup>.

1 - عبد القادر زبادية: مملكة سنغاي في عهد الأسيكين، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1971م، ص 223.

2 - المختار ولد حامد: التاريخ السياسي (موسوعة حياة موريتانيا)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 2000م، ص 85.

3- مختار حساني، المرجع السابق، ص 200.

4 - رولفس غيرهارد: رحلة إلى الكفرة تقارير الرحالة الألماني رولفس، تر. عماد الدين غانم، منشورات مركز جاهد الليبيين للدراسات التاريخية، ليبيا، 2000م، ص 266.

5- المرجع نفسه، ص 266.

- الفول السوداني: يعرف محليا (بالكاكاو) ينتج بكميات كبيرة بسبب ملائمة الظروف المناخية لزراعته، يقبل على شرائه التجار من شمال إفريقيا بما فيهم تجار توات<sup>(1)</sup>.

- الصمغ: هو مادة نباتية تستخرج من أشجار الصمغ و يستعمل في عدة مجالات مثل صناعة الحبر والدواء، و يستعمل في العقاقير الطبية. و ينقسم إلى قسمين الصمغ الأشقر، والصمغ البني. يتم جنيه بين شهري نوفمبر وماي<sup>(2)</sup>.

### ب- صادرات إقليم توات إلى السودان الغربي:

- التمر: يعتبر من السلع التي يكثر عليها الطلب في منطقة السودان الغربي لافتقار المنطقة من أشجار النخيل، ولأهمية التمر عند سكان السودان الغربي لكونه غذاء كامل مع الحليب يصلح حفظه ويستعملونه كمادة أساسية في غذائهم اليومي، فتجتمع القوافل التي تأتي بتمر وادي ريغ و ورجلان، و وادي سوف ثم تصدره إلى السودان الغربي، وأكثر الأنواع طلبا هي الأنواع التي لها القدرة على البقاء أطول مدة مثل (تمر تقازة) و (تمر تناصر) من توات<sup>(3)</sup>. والدقلة من ورجلان و وادي ريغ، و قد كانت قوافل الجمال تقوم بتكسير التمر ونزع منه النوى و يوضع

1 - مبارك جعفري: الحياة الاجتماعية الاقتصادية في منطقة الأزواد خلال القرن 13هـ/19م، المرجع السابق، ص362.

2 - Augustin (Hacquard): Monographie de Tombouctou accompagnée de nombreuses illustrations et d'une carte de la région de Tombouctou, société des études coloniales et maritimes, paris, 1900, p 23.

3 - مبارك جعفري: الحياة الاجتماعية و الاقتصادية في منطقة الأزواد خلال القرن 13هـ/19م، المرجع السابق، ص366.

في أكياس من الجلد تسمى (الغراير) لكي يكون خفيف الحمل و يمكن أن يحمل منه اكبر كمية ممكنة على ظهر الجمال<sup>(1)</sup>.

**-الملح:** اعتبرت من السلع الرئيسية التي احتلت مكانة هامة في تنشيط عملية التجارة بين توات والسودان الغربي، بحيث يستخرج الملح من السّباح المنتشرة بالإقليم التواتي، فيجدونه مختلطا بالتراب فيعزلونه منه وأشهر الملاحات بتوات ملاحه (فرسيق) التي تقع شرق اقسطن بمنطقة تديكلت، أما المصدر الأساسي فهي منطقة تاودني بمنطقة الأزواد، فيها تتوجه القوافل الكنتية مرتين في السنة، و كانت القوافل عندما تصل إلى تاودني من الشمال يقايضون ما قَدِموا به من السلع والمواد الغذائية خاصة التمر مقابل ألواح الملح التي يصل طولها إلى متر و ثلاثين سنتيم ، وعرضها ما بين أربعين إلى خمسين سنتيم وتزن في المتوسط العام 30 كيلوغرام وعادة ما تحمل الجمال أربعة ألواح فإذا كانت مكتراة فاللوحه الرابعة تعطى للمكثري<sup>(2)</sup>.

كان الملح معدوما في داخل السودان الغربي لذلك كانت القوافل القادمة من الشمال خاصة التي تمر من توات يجلبونه، لأن تناوله بانتظام من ضروريات البقاء، والحрман منه مشكلة خاصة في المناطق الحارة<sup>(3)</sup>. وارتبط الملح بالذهب ارتباطا وثيقا، لكن هذا الارتباط لا يعني وجودهما في مكان واحد أو قريهما، بل راجع إلى أن الملح كان السلعة التي يتلفه ويقبل عليها السودانيون المنتجون

1 - أحمد ذكار: المرجع السابق، ص 110.

2 - محمد الصالح حوتية: توات و الأزواد خلال القرنين 12 و 13 هـ دراسة تاريخية من خلال الوثائق المحلية، دار الكتاب العربي، الجزائر، ج 1 ، 2007م. ، ص ص 97، 98.

3 - أ.ج. هوبكنز: التاريخ الاقتصادي لإفريقيا الغربية. تق، محمد عبد الغني سعودي، تر. أحمد فؤاد بليغ، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، 1998م، ص 323.

للذهب، والذي يدفعونه للحصول على الملح<sup>(1)</sup>. حيث ذكر ابن بطوطة: أن أهل بلاد السودان الغربي يتصارفون بالذهب والفضة<sup>(2)</sup>. وذلك لأن الملح يستخدم في تخفيف الطعام والمحافظة عليه، فضلا عن إعطائه مذاق خاصا، ولم يكن في الإمكان الحصول على الملح جنوب الصحراء إلا بعملية شاقة أي تقطير الحشائش، ومن ثمّ ظهرت أهمية الملح في الصحراء، وبلغت لدى السودانين درجة كبيرة تقدر فيها قيمة الذهب بقوته الشرائية للملح ولم تكن رواسب الملح الطبيعية في السودان الغربي فحسب، بل كانت مركزة في مساحات صغيرة فكان لابد من الحصول عليه خارج الإقليم<sup>(3)</sup>.

**- الشاي والسكر:** زاد الإقبال على شراء الشاي و السكر نتيجة انتشار تناوله في المدن و البوادي، و كان يباع السكر مع الشاي مجتمعان، إضافة إلى الفوائد الكبيرة للشاي خاصة في المناطق الحارة. فكانت مادة الشاي والسكر تأتي لأسواق توات من عدة مناطق سواء من أسواق المغرب الأقصى أو أسواق الشمال الجزائري أو من غدامس، و حتى القهوة كانت تصل إلى توات من هذه المناطق، و هذا ما أثار دهشة المستكشف رولف عندما رأى القهوة في تديكلت بعين صالح و ذكر أنها ترد إلى عين صالح من غدامس و من أسواق توات تصدر الشاي و السكر إلى السودان الغربي و قد أفتى علماء الأزواد بجواز بيع السكر و الشاي مجتمعان<sup>(4)</sup>.

1 - حسن الصادقي: أضواء على ممالك غرب إفريقيا و علاقاتها ببلاد المغرب، معهد الدراسات الإفريقية، الرباط، ص 87.

2 - ابن بطوطة: المصدر السابق، ص 674.

3 - محمد عبد الغني سعودي: قضايا افريقية، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الأدب، الكويت، 1980م، ص 65.

4 - باي بن عمر: نوازل الشيخ باي بن عمر الكنتي، مخطوط بمكتبة الشيخ محمد باي بلعالم، أولف، أدرار، الجزائر، الورقة 472و.

- الأبسطة والأقمشة: اشتهرت منطقة توات بصناعة النسيج أو الأبسطة المعروفة بالدُّكالي<sup>(1)</sup>. فكانت أبسطة الدُّكالي ترى رواجاً كبيراً في أسواق السودان الغربي، بحيث يعتبر امتلاك الدُّكالي التواتي في تنبكتو مظهراً من مظاهر الترف و الثراء، و قد دلّت نوازل البلبالي على وصول أبسطة الدُّكالي إلى أسواق السودان الغربي فجاء في النازلة: " وسُئِلَ عن رجل له أكسية بعثها مع آخر لبييعها له في بلد لمبروك ثم أن المرسل إليه باعها لأجل و توفي المشتري... " <sup>(2)</sup>.

إضافة إلى الأبسطة والأقمشة الصوفية المحلية التواتية كانت القوافل تحمل معها بعض الأقمشة المستوردة من أوروبا وخاصة قماش النيلة و هو قماش أسود يصبغ جلد لايسه بلونه، وتلبسه النساء كلحاف و يستعمله الرجال كعمائم، و اسمه مشتق من الشجر يصبغ من ورقه اسمه النيل. و اعتبرت النيلة حسب الأوروبيين أوراق الصحراء النقدية نظراً لكثرة الإقبال عليها، وكانت وحدة القياس هي "البَيْصَة" من أصل فرنسي و هو (Pièce) حيث بلغ سعر البيصة خلال القرن التاسع عشر 19م عدائل من الملح في المعجل، و ثلاثة عشر إلى أربعة عشر في المؤجل<sup>(3)</sup>.

- التبغ: بالرغم أن التبغ أو (الشمة) كان يزرع في السودان الغربي، إلا أنه كان الإقبال كثيراً على التبغ القادم من توات لأنه يختلف عن تبغ السودان الغربي، ويعتبرونها أجود من التبغ الذي يزرع في أرض السودان الغربي لذلك كانت

1 - Martin (A.G.P) : Les Oasis Sahariennes, Gourara-Touat-Tidikelt, Edition de l'imprimerie algérienne, Alger , 1908, p 322.

2 - عبد العزيز بن محمد البلبالي: غنية المقتصد السائل فيما وقع بتوات من القضايا والمسائل ، مخطوط بخزانة الشيخ محمد باي بلعالم بأولف، أدرار ، الجزائر، المصدر السابق، الورقة 338و.

3 - مبارك جعفري: الحياة الاجتماعية والاقتصادية في منطقة الأزواد خلال القرن 13هـ/19م، المرجع السابق، ص365.

القوافل التجارية تحمله على ظهر الجمال في الشباك الذي يصنع من ليف النخيل كمحافظ خاصة لحملة التبغ<sup>(1)</sup>.

- **الأدوات الحديدية:** كانت تصدر من توات إلى السودان الغربي مجموعة من الأدوات الحديدية ذات الاستعمال الواسع، حيث يصنع معظمها محليا من قبل الحدادين و منها: السكاكين، والسيوف، وأقفال المنازل، و الأجمة الخاصة بالأحصنة و الدواب<sup>(2)</sup>، وكذلك الفؤوس و المعاول و المناجل، و السروج والبنادق، و الدروع، و الخوذات، و السهام، الأقواس، والنشاب<sup>(3)</sup>.

- **بضائع الزينة و الرفاهية:** أغلبها كان يأتي من أوروبا إلى شمال إفريقيا ومنها إلى السودان الغربي مرورا بأسواق الصحراء مثل توات و ورجلان وأهمها: العطور، الإبر، الحلي، المرايا، الأواني الزجاجية، المرجان الأحمر، العقيق، الحرير، اللؤلؤ<sup>(4)</sup>.

- **الكتب والمخطوطات:** كانت الكتب من الواردات الهامة إلى بلاد السودان حيث كان يوجد في تنبكتو سوق رائجة للمخطوطات العربية التي تأتي من بلاد المغرب<sup>(5)</sup> ومصر، وكانت أثمانها مرتفعة خاصة في عهد مملكة السنغاي (1493-1591م) نتيجة ازدهار العلوم التي تدرس في مدارسها، فأثانها في تنبكتو تزيد عن

1 - Devors (P): le Touat étude géographique et médical, archives du institut pasteur, TXXV N0 3,4 , Alger, 1947, p 233.

2 - أحمد ذكار: المرجع السابق، ص 120.

3 - المرجع نفسه، ص 121.

4 - جعفري مبارك: الحياة الاجتماعية و الاقتصادية في منطقة الأزواد خلال القرن 13هـ/19م، المرجع السابق، ص 367.

5 - الهادي مبروك الدالي، التاريخ الحضاري لإفريقيا فيما وراء الصحراء، دار الكتب الوطنية، بنغازي، ليبيا، ط، 1، 2002م، ص 330.

أثمانها في المغرب بالضعف و نصف الضعف تقريبا<sup>(1)</sup>، فقد كانت الكتب تحمل إلى تبكتو ثم تنسخ وتباع في أسواق المدينة، و كانت تلقى إقبالا كبيرا من الطلبة المنشغلين بالعلم والسلاطين و الأمراء. فقد كان العلماء من المغرب العربي سواء من طرابلس أو الجزائر و توات وتلمسان و فاس و مكناس و مراكش يرحلون إلى المدن السودانية للتدريس، و نشر الثقافة الإسلامية حاملين معهم الكتب المخطوطة، و من أشهر العلماء التواتيين الوافدين إلى السودان محمد بن عبد الكريم المغيلي<sup>(2)</sup>.

### 3- العملة و أدوات القياس و المكايل و الموازين.

#### أ- العملة:

لم يكن التعامل بالعملة أمرا شائعا في التجارة بين توات و السودان الغربي، حتى بداية القرن العشرين 20م، و معظم التعامل كان يتم بالمقايضة بالملح، و الذهب، و التمر، و الودع، و قماش النيلة المعروف بالبيصة، و الأنعام. و لكون منطقة توات و السودان الغربي منطقة تجارية مفتوحة مع عدم وجود سلطة مركزية تسعى إلى صك العملة و تحديد قيمتها، نجد في التبادل التجاري بين توات و السودان الغربي مجموعة من العملات تأتي من المناطق المجاورة، أو حتى من مناطق بعيدة، و هو ما شجع على المقايضة و استعمال مواد محددة كعملة للتبادل، و ظهور تجار العملة الذين يستبدلون العملات، و من أهم العملات نجد:

- المثقال من الذهب: كان المثقال الذهبي عملة رائجة في الأسواق التجارية؛ حيث ذكر مارتان (Martin) أن المثقال المستعمل في توات مقداره

1 - زبادة عبد القادر: الحضارة العربية و التأثير الأوروبي في إفريقيا الغربية جنوب الصحراء دراسات نصوص، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1989م، ص 36.

2 - يحيى بو عزيز: تاريخ إفريقيا الغربية الإسلامية من مطلع القرن السادس عشر إلى مطلع القرن العشرين، دار البصائر للنشر و التوزيع، الجزائر، 2009م، ص 47.

4,50 غ<sup>(1)</sup>، حيث يساوي 24 قيراط و كل قيراط يساوي حبة من الخروب أو أربع حبات من القمح، و البعض يرى أن المثلقال يعادل الدينار الذهبي الذي مقداره 4,25 غراما و قدّر بارث (Barth) قيمة المثلقال في تنبكتو منتصف القرن 19 بين ثلاثة آلاف و أربعة آلاف كوري<sup>(2)</sup>. أما لانز (Lenz) فقال أن المثلقال في تنبكتو يعادل ثلاثة آلاف و أربعة آلاف ودعة، أما سعره في المثلقال أروان يساوي 8 إلى 10 فرنكات و في تنبكتو يساوي ما بين 10 إلى 12 فرنك<sup>(3)</sup>. ويتعامل بالمثلقال أيضا في المغرب الأقصى حيث أن الرحالة العياشي تعامل بالمثلقال الأربعيني الشريف المصروب في سجلهاسة عند زيارته إلى منطقة توات 1074هـ/1663م<sup>(4)</sup>. وما يدل على استعمال المثلقال الذهبي في التجارة بين توات والسودان نازلة شراء سلعة بكذا ذهباً استرضى صاحبها أن يقبض ثمنها في منطقة التكرور في أجل معين، فقبضها فيه بعد حلول الأجل فأفتى بجواز ذلك مستدلا في أجابته بمدونة سحنون<sup>(5)</sup>. كما ذكر ديپورتر (Deporter) أن القافلة التي كانت تتجه من عين صالح إلى تنبكتو، كان أصحابها يقومون بكراء حوانيت بالمثلقال الذهبي<sup>(6)</sup>.

1 – Martin: Les Oasis Sahariennes, Op.cit, p 19.

2 – عبد العزيز بن عبد الله: الموسوعة المغربية للإعلام البشرية والحضارية (معلمة الصحراء)، مطبعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، 1976م، ص 177.

3 – Oskar (lenz): Tombouctou voyage au Maroc au Sahara et soudan, librairie Hachette, Paris, 1987, pp 103, 156.

4 – أبو سالم العياشي: الرحلة العياشية ماء الموائد، تح. سعيد الفاضلي و سليمان القرشي، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبوظبي، ج 1، 2006م، ص 465.

5 – هرياش زاجية: الوضع الاقتصادي في توات من خلال مخطوط الغنية في القرنين 12 و13 الهجريين 18 و19 الميلاديين، أطروحة دكتوراه في التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، قسم التاريخ، جامعة وهران، 1432-1433هـ/2011-2012م، ص 297.

6 – Deporter: Op.cit, p 175.

- الريال: هو قطعة اسبانية تزن 25 غرام، ويوجد الريال الفرنسي و هو يزن نفس الوزن و هو قطعة من 5 فرنكات، وتوجد أيضا عملة عثمانية منها الريال بوجو و المسمى بريال صغير يتراوح وزنها ما بين 8,5غ إلى 20,2غ و تقسم إلى 8 موزونات، يذكر كولونيو (Colonieu) أن الريال في منطقة تديكلت قيمته 6 أوقيات أو 24 موزونة وأقسامه هي الربع أو (الرُبَيْع) الذي يساوي 6 موزونات وهذا يدل على حيوية السوق بتواتر لصرف العملة<sup>(1)</sup>.

وُجد الريال أيضا في أسواق السودان الغربي، خاصة الريال العثماني، الذي كان يصنع من الفضة ويضرب دار السكة في كل من تونس وليبيا والجزائر وانتقلت هذه العملة من الشمال إلى أسواق السودان الغربي عن طريق القوافل التجارية العابرة للصحراء<sup>(2)</sup>.

- المحبوب (الدينار السلطاني): كان من العملات المتداولة كما جاء في الرسائل للشيخ المختار الكنتي<sup>(3)</sup>، وكان يعرف أيضا بالدينار الذهبي، ويعد السلطان العثماني سليم الأول هو الذي صك هذه العملة الذهبية سنة 923هـ/ 1517م و كتب عليها كلمة (السلطان) لهذا عرف بالدينار السلطاني وأطلق عليه أيضا اسم المحبوب ، وكانت له أجزاء مقدرة بالنصف والربع و يزن المحبوب

---

1 - Colonieu (Commandant): voyage au Gourara et l'Aougrout 1860, Bulletin de la société de géographie d'Oran, TIIIX, 1903, p 62.

2 - عثمان حساني: البيئة الاجتماعية والاقتصادية للصحراء الجزائرية من خلال تقارير الأجانب في القرنين 18 و 19م، مذكرة ماجستير، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 2006-2007، ص 107م.

3 - محمد بن المختار الكنتي: الطرائف و التلائد، مخطوط بمكتبة الشيخ محمد باي بلعالم، أولف، أدرار، الجزائر، الورقة: 422 و.

2,31 جرام من الذهب و كان يساوي خمس 5 فرنكات فرنسية و يساوي في الجزائر 11 فرنك<sup>(1)</sup>.

- الودع أو الصدف: هي عبارة عن قواقع أو ودعات تعرف بالكوري (Cauris)<sup>(2)</sup>. تنمو في البحار الحارة جلبها العرب من المحيط الهندي عن طريق البرتغاليين، صرفها في تنبكتو يساوي الآلاف فكل 4000 آلاف كوري يقابلها واحد من الذهب أو الفضة أو من قطعة من 5 فرنكات أو من الضّبّون أو من 5 قطع فضية.

كانت تستعمل في المعاملات التجارية بالنسبة للسودان الغربي، كعملة و لقد فقدت مكانتها في منطقة توات، فالسودانيون كانوا يستخدمونها مع التواتيين كوسيلة نقد يتقبلونها منهم في معاملاتهم، حتى وإن لم تكن جارية في بلادهم كعملة إلا أنهم كانوا يلجؤون إليها مع التجار السودانيين عند انتقال قوافلهم إلى السودان الغربي، مما يسهل عليهم عملية التبادل التجاري<sup>(3)</sup>. و لقد ورد ذكرها في نازلة سُئل فيها الحاج محمد بن أب الذي كانت لديه بضائع أوكلها إلى شريكه محمد بن بكار ليبيعهما في السودان الغربي و يرسل إليه أثمانها التي كانت من الذهب والودع والملح<sup>(4)</sup>.

1 - عثمان حساني: المرجع السابق، ص 107.

2 - الكوري: عملة فارسية وهندية، قيمتها منخفضة جدا، بحيث أن 1000 كوري يساوي 0,75 فرنك، ينظر: يحي بوعزيز: تاريخ إفريقيا الغربية الإسلامية، المرجع السابق، ص 219.

3 - Lo (capitaine): Les Foggaras du Tidikelt, travaux de institue de recherche saharienne, T.X 1953, et TXI 1954, université d'Alger, p 150.

4 - البلبالي: المصدر السابق، الورقة 318 و.

- الملح: عملة الملح المغربي الذي يقطع إلى قطع صغيرة مختلفة الأحجام و الأشكال تستغل في البيع والشراء، فهناك قطع تساوي 20 دوخة أو 160 فرنك، و قطع تساوي 30 دوخة أو أربعين فرنك، و قطع تساوي 40 دوخة أو 320 فرنك و تساوي حمولة الملح في تنبكتو 80 دوخة على عهد الحسن الوزان<sup>(1)</sup>. وكانت الملح تستعمل في شراء العبيد أيضا حيث كان يباع بقطعة ملح بقدر رجليه، ثم ارتفع سعره ليصل إلى حمل بغير من الملح<sup>(2)</sup>.

وتحسب الملح بالعديلة، ولم تستعمل هذه الكلمة عند الجغرافيين كالبكري وابن بطوطة، بل استعملت كلمة الأحجار أو الألواح و ورد ذكرها في نوازل الغنية للبلبالي في منطقة توات<sup>(3)</sup>، وفي قرية المبروك في السودان الغربي جرت العادة باستعمال الملح كعملة حيث تشتري السلع بعدد أحجار الملح لكل مثقال حجر<sup>(4)</sup>. وأوردت نوازل البلبالي فتوى للتجار التواتيين الذين يتعاملون بالملح، فسأل أحدهم على أنه اشترى سلعة بعدد من أحجار الملح وما تبقى له حسب النازلة، تم دفعه بالذهب في قرية المبروك فأجابه البلبالي بأنه لا يجوز<sup>(5)</sup>. وفي نازلة أخرى تمنع رد دين بغيره إلا إذا عزّ وجوده، وهو ما يدفع المدين إلى تعويض قيمته بالذهب<sup>(6)</sup>.

1 - يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص ص 48-49.

2 - أحمد ذكار: المرجع السابق، ص 107.

3 - زاجية هرياش: المرجع السابق، ص 317.

4 - المرجع نفسه، ص 317.

5 - البلبالي: المصدر السابق، الورقة 154 و، 156 و.

6 - المصدر نفسه، الورقة 206 و.

- العملة النحاسية السلطانية: وهي ذات قيمة منخفضة جدا بحيث أن 400 قطعة رقيقة منها لا تساوي سوى دوخة واحدة<sup>(1)</sup>. وهي أيضا عملة عثمانية كانت مصنوعة من النحاس و بها ختم السلطان<sup>(2)</sup>.
- العملة الورقية الفرنسية: ورد ذكرها في المصادر بعدة تسميات ذكر الشيخ باي الكنتي بأنها قراطيس يكتب فيها جعلتها فرنسا و سميت (بالكارطة) أيضا، فوقع خلاف بين العلماء هل يجوز بها سائر المعاملات الدنية أم لا كالاقتراض، و الزكاة<sup>(3)</sup>.

كما توجد عملات أخرى متداولة بين توات والسودان الغربي مثل:

- الدوخة بنوعها الذهبية و الفضية.
  - الدراخمة: وهي عملة مستوردة من الخارج من طرف التجار.
  - المجيدي: و يساوي 4,5 فرنك.
  - المحبوب الذهبي: الشائع الاستعمال في بلدان المغرب العربي.
  - الموزونة الفضية: الشائعة الاستعمال في بلدان المغرب العربي.
  - الصائمة النحاسية: الشائعة الاستعمال في بلدان المغرب العربي.
  - الدورو الفضي: الشائع الاستعمال في بلدان المغرب العربي.
  - البنتو وهي عملة أجنبية مستوردة من الخارج<sup>(4)</sup>.
- أورد كوداري (Coudray) عن أسعار السلع و البضائع أن الحصان الجيد الذي يساوي 30 دوخة في الشمال (240 فرنك) ، يباع في السودان بعدد 17

1 - يحي بو عزيز: المرجع السابق، ص 48.

2 - مبارك جعفري: الحياة الاجتماعية والاقتصادية في منطقة الأزواد خلال القرن 13هـ/19م ، المرجع السابق، ص 377.

3 - مبارك جعفري: الحياة الاجتماعية والاقتصادية في منطقة الأزواد خلال القرن 13هـ/19م، المرجع السابق، ص 377. ينظر: باي بن عمر: المصدر السابق، الورقة، 284 و/ظ.

4 - يحي بو عزيز: المرجع السابق، ص 49.

عبدا أسودا، كما ذكر أن سعر العبد الذكر 20 دوخة و سعر الأنثى 18 دوخة و سعر الخصي 40 دوخة<sup>(1)</sup>.

وأورد المؤرخ يحيى بوعزيز نقلا عن الرحالة بوزو (Bozzo) أن البضائع تشتري في السودان الغربي بالأسعار التالية:

- العاج: من 200 إلى 220 ألف كوري للقنطار الطرابلسي (50 كلغ) و هو ما يعادل 200 إلى 220 فرنك.

- ريش النعام: من 50 إلى 60 ألف كوري للكيلو غرام، أو 560 إلى 60 فرنك.

- تبر الذهب: من 07 إلى 08 آلاف كوري للمثقال.

- العبد الذكر من 120 إلى 130 الف كوري أي 130 فرنك.

- الأمانة: من 150 إلى 200 الف كوري أي 150 إلى 200 فرنك<sup>(2)</sup>.

تدفع القوافل القادمة من توات إلى تنبكتو ما بين 12 و 24 مثقال ذهب لحمولة 3 قناطر، أو 45 محبوب لحمولة 70 قطعة قماش تزن ثلاثة قناطر، وهو ما يعادل 1900 فرنك ويتم الدفع على الشكل التالي:

من توات إلى تنبكتو يدفع التجار 5 محبوبات لتوارق الهقار و 10 محبوبات أو نصف مثقال لعرب البرابيش و بذلك فان حمولة 150 كلغ من توات إلى تنبكتو تكلف 380 فرنك. أي 250 فرنك لمائة كلغ.

و يدفع التجار الضرائب في الذهب والإياب على الشكل التالي:

- في غات خلال الذهب 1 مجيدي للحمولة (4,5 فرنك)، و خلال العودة 2 مجيدي (9 فرنك).

---

1 - Henri (stuchli), Le commerce de la France avec le soudan, calomel, paris, 1864, pp 21- 28.

2 - يحيى بو عزيز: المرجع السابق، ص 51.

- في أقاديس 20 فرنك للحمولة. وفي كانو خلال الذهب 25 فرنك للحمولة، وخلال العودة 20 فرنك.
- في زندر خلال العودة: العاج و ريش النعام و 20 فرنك للحمولة، و خلال الذهب 10 فرنك<sup>(1)</sup>.

### ب-المكاييل والأوزان:

- المُد: المقدر بحفنة باليدين المتوسطتين يستعمله التجار و العامة عند كيل المواد الجافة، كالتمر والحبوب ويكثر استعماله عند إخراج الزكاة صبيحة عيد الفطر، ويختلف من منطقة إلى أخرى و هو عند الجمهور حوالي خمسمائة و عشر غرامات<sup>(2)</sup>.
- الصّاع: يساوي أربعة أمداد<sup>(3)</sup>.
- القَصعة: استعملت في إقليم توات والسودان الغربي وهي وحدة لكيل الحبوب والتمر وتعادل 2,5 كلغ<sup>(4)</sup>.
- المزود: جلد من الغنم أو البقر يعادل خمسين أو ثمانين كيلوغرام حسب المادة أي ما يستطيع أن يحمله الرجل أو العبد فوق ظهره<sup>(5)</sup>.
- الحِمل: يعادل ستون صاعا<sup>(6)</sup>

1 - المرجع نفسه، ص 53.

2 - علي جمعة محمد: المكاييل و الموازين الشرعية، مطبعة القدس، القاهرة، ط2، 2001 م، ص 36.

3 - Augustin (Hacquard): Op.cit, p 57.

4 - خير الدين شترة: العلاقات الاقتصادية بين توات والسودان الغربي، الملتقى الوطني الأول المشترك بين جامعتي أدرار و تيارت، العلاقات الحضارية بين إقليم توات وحواضر المغرب الإسلامي، ادرار، 14-15 أفريل 2009م، ص 314.

5 - محمد الصالح حوتية: آل كتته، المرجع السابق، ص 101.

6 - المرجع نفسه، ص 101.

- أزقن : وهو إناء صغير من الخشب أو الحديد يتم به الوزن و هي تعادل 205 لتر أي ما يعادل 2 كلغ، ويستعمل لوزن الحبوب<sup>(1)</sup> في السودان الغربي، و تتغير قيمته في منطقة توات حيث أشار فوانو (Voinot) أنه تحدد في منطقة أفيلي بـ: 0,360 كلغ و في أولف 0,175 كلغ و بعين صالح 0,250 كلغ<sup>(2)</sup>.

- العديلة: و هي قطعة من الملح اختلف في وزنها و حجمها، حيث يذكر بارث (Barth) أن وزنها بين خمسين و خمسة وستين كيلوغرام، و طولها خمسة أقدام و خمسة بوصات 1,5م، و عرضها 13 بوصة 33 سم، و سمكها بوصتين و نصف 6,35 سم، أما لانز (Lenz) فقال أن طولها متر و وزن المتوسط منها تقريبا سبعة و عشرين كلغ 27 كلغ، أما اوغستين (Augustin) فذكر أن طول عدائل الملح 1,3م و عرضها بين 54 سم و سمكها بين 4 و 5 سم، و وزنها حوالي 30 كلغ و ثمنها بين 15 و 35 فرنك حسب جودتها، و من هنا يمكننا القول أن العديلة ليس لها مقياس محدد و أنها تختلف حسب نوعية الملح، فهناك الكبيرة و المتوسطة و الصغيرة و لم تعد العديلة تستخدم للملح فقط ففي توات مثلا تستخدم كوحدة لقياس التبغ و متوسط وزنها بين 60 و 80 كلغ<sup>(3)</sup>.

- الغرارة: هي أكياس تصنع من الوبر و الصوف أو من ليف النخيل مختلفة الأحجام، الكبيرة و المتوسطة و الصغيرة، يحمل منه الجمل من اثنين إلى أربعة، تستخدم في نقل البضائع مثل الحبوب و التمر، و الفواكه المختلفة، و الغرارة المتوسطة تساوي 35 زقن أي 70 كلغ تقريبا، أما الكبيرة فتحمل 30 صاعا فتزن قنطار و 25 كيلو غرام، و غرارتين هي حمل جمل و يبلغ حوالي قنطار و نصف<sup>(4)</sup>.

1 - محمد أعفيف: المرجع السابق، ص 363.

2 - Voinot: Op.cit, p 144.

3 - مبارك جعفري: الحياة الاجتماعية والاقتصادية في منطقة الأزواد خلال القرن 13هـ/19م، المرجع السابق، ص 381-382. ينظر: الملحق رقم 03.

4 - أحمد ذكار: المرجع السابق، ص 109. محمد اعفيف: المرجع السابق، ص 138.

- المثقال: وحدة يقاس بها الذهب و الفضة يساوي 24 حبة من الخروب و كل حبة ترن 4 حبات من القمح، و يقدر وزنه تقريبا 4,5 غرام و هذه الوحدة لها نفس القيمة في توات و السودان الغربي حيث وجدت في قاو قطعة من الزجاج كانت هي وزن المثقال قدر وزنها بحوالي 4,5 غرام<sup>(1)</sup>. و عبر مارتان (Martin) على ميزان من نحاس يمتلكه نقيب أشرف تيمي تحدد به نسبة التبر المستعمل في توات و المقدر ب 4,50غ<sup>(2)</sup>.

- القيراط: يقاس به الذهب و الفضة حيث يساوي 3 حبات من القمح و هو 24/1 من المثقال و يستعمل أيضا لقياس المياه و خاصة في منطقة توات<sup>(3)</sup>.

### ج- أدوات القياس:

- الشَّبر: وهو المسافة بين الخنصر والإبهام عندما تكون اليد مفتوحة، وهو يعادل 21,5 سم

- القدم: لقياس الأرض و تحسب قدما بعد أخرى و تستخدم لمعرفة وقت الزوال.

- الذراع: وهو وحدة الطول و يحدد الذراع ما بين المرفق و نهاية الوسطى، و يساوي 50 سم في المتوسط، و يصل في السودان الغربي إلى 55 سم.

- القامة: فهي قامة الرَّجُل المتوسط و تساوي في 170 سم.

- الحبل: مسافة 1920 متر.

- الفرسخ: تعادل ثلاثة أميال، أي ستة كيلومترات<sup>(4)</sup>.

1 - عبد القادر زبادية: الحضارة العربية، المرجع السابق، ص 54.

2 - زاجية هرباش: المرجع السابق، ص 327.

3 - Martin: Les Oasis Sahariennes, Op.cit, p 19.

4 - الهادي المبروك الدالي: المرجع السابق، ص 338.

- البريد: وهي وحدة قياس طويلة، ويحدد طوله بسرعة حصان لمدة ساعة من الزمن دون انقطاع، و قدر بمسافة 12 ميل أو أربعة فراسخ أي 24 كيلومتر<sup>(1)</sup>.

- البيصة: وحدة لقياس القماش تساوي ثلاثين ذراعا من الكتان خمسة عشر متر<sup>(2)</sup>.

ومما تقدّم يمكن القول، بأن إقليم توات كان همزة وصل وملتقى طرق القوافل التجارية القادمة من بلاد المغرب والمتجهة إلى أسواق إفريقيا جنوب الصحراء عامة .

كما نلاحظ تعدد المسالك التي تربط توات بالسودان الغربي، وتُغيّر القوافل سيرها من طريق إلى آخر بسبب توفر الماء والكلأ، وبسبب الأمن من قطاع الطرق، ويمثل الملح والتمر والتبغ أعلى نسبة في الصادرات التواتية كما يمثل الذهب والعييد أعلى نسبة الواردات التواتية من السودان الغربي.

كما كان أسلوب المقايضة هو الغالب في التعامل التجاري، مع وجود عملات كثيرة محلية وأجنبية، معظمها مشتركة بين إقليمي توات والسودان الغربي إلا عملة الملح والودع، فلم نعثر على استعمالها كعملة في توات، مع استعمالها في أسواق السودان الغربي. ونتج عن هذا التواصل التجاري المزدهر بين إقليم توات والسودان الغربي آثار ونتائج اجتماعية، وثقافية واضحة زادت من قوة ودعم هذا التواصل بين الإقليمين.

1 - عبد القادر زبادية: الحضارة العربية، المرجع السابق، ص 199.

2 - مبارك جعفري: الحياة الاجتماعية والاقتصادية بمنطقة الأزواد خلال القرن 13هـ/19م، المرجع السابق، ص ص 383.



## الجدور المغاربية لحركة الشَّيخ عثمان بن فودي في بلاد الهوسا خلال القرن التاسع عشر الميلادي

الطالب الباحث: عطية عومار

جامعة غرداية

توطئة:

يعدّ الشَّيخ عثمان بن فودي من أبرز شخصيات السُّودان الغربي خلال القرن التاسع عشر وذلك بتأسيسه لخلافة سكوتو الإسلامية من خلال حركته الإصلاحية، وتعود جذور حركته إلى مؤثرات بلاد المغرب الإسلامي من حيث انتشار الإسلام في بلاد الهوسا، وما رافقه من حركة علمية دينية باللُّغة العربية، وعوامل التأثير والتأثر التي كانت سائدة في الحواضر الإفريقية بسبب حركة العلماء الإصلاحية البارزة كحركة الشَّيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي والشَّيخ المختار الكنتي، وما مدى تأثير الطَّريقة القادرية على الشَّيخ عثمان بن فودي في حركته الإصلاحية.

ترجمة الشَّيخ عثمان بن فودي:

هو الشَّيخ عثمان بن محمّد بن عثمان بن صالح بن هارون بن محمّد غورطو بن جبّ بن محمّد ثنب بن أيّوب بن ماسران بن بوب باب موسى الذي سمي بجكولو<sup>(1)</sup>، وموسى جكولو هذا هو الذي سار بقبيلة التّوردب إلى بلاد الهوسا<sup>(2)</sup>، حيث استقرّوا واستطاعوا التّأقلم مع القبائل الأخرى، بل كان لهم دور كبير في

Material Relating to the State of Learning among ,M. Hiskett (1)  
S. O. A. S, .the Fulani before Their Jihād, Vol. 19 No3, B  
,University of London ,1957, p. 552

(2) عبد الله بن فودي، كتاب النسب، المادة 1، المرجع 27 o/ar، ص 1.

هذه المنطقة. أما أمّه فهي حواء بنت محمد بن عثمان بن حم بن عال<sup>(1)</sup> وجدته لأبيه هي: مريم بنت جبريل بن حم بن عال<sup>(2)</sup>، ويتتهي نسب العائلة إلى أصل واحد وهو جدّهم موسى جو كولو.

أمّا عن مولده فلم يرد اختلاف كبير بين المؤرّخين في تاريخ ولادته، فمنهم من يقدّمه بسنة ومنهم من يؤخّره بسنة، لكن بالنسبة لمكان ولادته فأغلب الكتابات تتفق على مكان واحد تمثل في قرية مارتا

Maratta<sup>(3)</sup> بأرض مملكة غوبر Gobre من بلاد الهوسا، وبالنسبة لتاريخ مولده فأغلب الذين ترجحوا له يقولون بأن مولده يوم الأحد آخر تسع وعشرين 29 من شهر صفر 1168هـ<sup>(4)</sup>، الموافق ل: 15 لشهر ديسمبر عام 1754م<sup>(5)</sup>. ونشأ في كنف والدين صالحين كان لهما الأثر الكبير في تربيته تربية صالحة.

لم يكن يُعرف الكثير عن حياة عثمان في الطفولة باستثناء بعض الأساطير والكرامات الواردة في الأدب الفولاني<sup>(6)</sup>، ومما ذكره محمد بلو رواية المرأة الصالحة

(1) نفسه، ص2.

(2) Abdullah Ibn Muhammad Foduye, Tazyin Al-Waraqat, Edited With A Translation A Introductory Study Of The Author's Life And Times, Ibadan University Press, 1963, Pp 40-41.

(3) مارتا قرية تقع في الشمال الغربي لإمارة غوبر وهي تسمى باسم ملك غوبر الثاني والسبعين .

(4) التاريخ الميلادي مع التاريخ الهجري أنظر محمد مختار باشا، التوقيفات الإلهامية، ط1،

المطبعة الميرية، مصر، 1893، ص 584-585، وانظر أنطون بشارة قيقانو، جدول السنين

الهجرية وما يوافقها من السنين الميلادية، ط3، منشورات دار المشرق،

بيروت، 1997. وانظر إبراهيم جمعة، السنين الهجرية وما يقابلها من السنين الميلادية، الدارة،

س 2، ع 1، 1976، ص 243-1258

(5) هناك من يذكر أن مولده كان سنة 1169هـ. ولم يذكر شهر مولده كالأستاذ عبد الله

الألوري في كتابه الإسلام في نيجيريا. ص 94.

(6) H. El-Masri, The Life Of Shehu Usman Dan Fodio Before The Jihād, Vol. 2, No. 4, J.H.S.N, 1963, pp 435-448.

التي تدعى أم هانئ حيث قالت: " يظهر في هذا القطر السوداني ولي من أولياء الله، يجدد الدين، ويحيي السنّة، و يقيم الملّة، ويتبعه الموقّفون، ويشتهر في الآفاق ذكره، ويقتدي العام والخاصّ بأمره، ويشتهر المنتسبون إليه بالجماعة. ومن علامتهم أنّهم لا يعتنون برعي البقر كعادة الفلّاتيين، ومن أدرك ذلك الرّمان فليتبّعهُ" (1)، لكنّ المعروف أنّه شبّ في قرية تسمّى بديجل، وقرأ القرآن على والده الشّيخ محمّد فودي، وبعد أن أكمله وانتهى من حفظه، شرع يتنقل من عالم إلى عالم آخر يتعلّم الفقه، ودرس العربية والعلوم الإسلاميّة على يد الشّيخ عبد الرحمن بن حمدا، وارتحل من مكان إلى مكان طالبا للعلم كعادة الطلاب في ذلك الرّمان.

قال ابن خلدون في مقدّمته: " وهذا مذهب أهل الأمصار بالمغرب ومن تبعهم من قرى البربر، أمم المغرب في ولدانهم إلى أن يجاوزوا حد البلوغ إلى الشّبيبة. وكذا في الكبير إذا راجع مدارسة القرآن بعد طائفة من عمره، فهم لذلك أقوم على رسم القرآن وحفظه من سواهم" (2). وهذا النّص إن صدق على أهل المغرب وشمال إفريقيا، فإنّه يصدق على منهج تعليم أطفال المسلمين في بلاد غرب إفريقيا، والهوسا بوجه خاص لأنّ منهجهم نفس المنهج المغربي، وعلماؤهم الأوائل من المغرب والبربر، ومما يؤكّد ذلك ما قاله الشّيخ عبد الله بن فودي نفسه: "وقد تركني أبى في يده بعد قراءة القرآن وأنا ابن ثلاثة عشر سنة" (3).

نبت عثمان بن فودي وتربّى في بيئة دينية صالحة، أسهمت في تكوين شخصيته، الأمر الذي هيأ له ظروف العلم والعمل والإصلاح بصورة أكثر وأكبر، حيث كان أبوه عالما وعمه وجدّه كذلك، زد على ذلك رغبته الكبيرة في الاستفادة العلميّة، بفضل النّشأة الصّالحة التي نشأها ودرج عليها، والتّربية الإسلاميّة

(1) محمد بلو، انفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور، تح علي عبد العظيم و آخرون ، 1964، ص57.

(2) ابن خلدون عبد الرحمن: المقدمة، دار الفكر، بيروت، 2008، ص280.

(3) M. Hiskett, Op.cit, p553.

الصّحيحة التي ألفتها نفسه، وامتزجت بها روحه، فصارت جزءاً لا يتجزأ من حياته المليئة بالهدى والصّلاح منذ الصّغر فتطلّعت للعلم والثقافة.

وهكذا فإنّ الشّيخ عثمان بن فودي ينتمي إلى أسرة عُرفت بالعراقة، والمكانة العلمية المرموقة، فكان جدّه الحادي عشر موسى جوكلو زعيماً في قومه الذي انتقل بهم من فوتاتور إلى بلاد الهوسا، وجلّ أفراد أسرته أصحاب علم وثقافة بدءاً من الأبوين وجدّته وأعمامه وأخواله وأخوه الأصغر عبد الله الذي أشار إلى بعضهم في كتابه إيداع التّسوخ، كلّ هذا انعكس على شخصيته العلمية التي نقلها إلى أبنائه فيما بعد<sup>(1)</sup>.

وقد كانت عوامل كثيرة أثرت في شخصيته وساهمت في تكوينها من بينها المؤثرات المغاربية منها:

### أولاً: انتشار الإسلام في بلاد الهوسا.

#### 1- انتشار الإسلام في غرب إفريقيا:

كانت للفتوحات الإسلامية في بلاد المغرب أثرها المباشر في نشر الإسلام في غرب إفريقيا، الذي انساب إليها عن طريق الرّحلات التّجارية التي ربطت ما بين شمال الصحراء وجنوبها فقد تأثّر الأفارقة بالعرب المسلمين لم رأوه فيهم من صفات حميدة كالصّدق في القول، والوفاء في المعاملة، ومن المعروف أنّ الإسلام لم ينتشر بمجرد ظهوره وإبلاغه للنّاس، كما أنّه لم يتحقّق بالقهر، وإنّما كان حمله وتبليغه من طرف جماعة آمنوا به إيماناً كاملاً، وساروا على نهجه بقدر استطاعتهم، وبذلوا جهدهم في نشره، وجنّد العديد من الدّعاة المسلمين أنفسهم لخدمة الدّعوة إليه<sup>(2)</sup>، ومن الكُتّاب الغربيين الذين قالوا بذلك، ممن اتّصفوا بالنّزاهة

(1) Ibid, p 552.

(2) حسن أحمد محمود، الإسلام والثقافة العربية في افريقيا، دار الفكر العربي، القاهرة 1986، ص ص 200-216.

والموضوعية منهم هوبير ديشان Hubert Deschamps حيث يقول: "إنّ انتشار دعوة الإسلام لم تقم على القسر، وإنّما قامت على الإقناع الذي يقوم به دعاة متفرّقون من المرابطين، لا يملكون حولاً ولا قوّة إلاّ إيمانهم العميق بدينهم، وكثيراً ما انتشر الإسلام بالتّسرب السّلمي البطيء من قومٍ إلى قومٍ"<sup>(1)</sup>

## 2- دور المغاربة :

بفتح المسلمين لشمال إفريقيا، بدأ الإسلام ينتشر من هناك نحو جنوب الصحراء، ثمّ صوب السودان

الغربي جنوب الصحراء الكبرى، ويرتبط دخول الإسلام إلى منطقة السودان الغربي بطبيعة العلاقات بين شمال الصحراء وجنوبها، وقد تدفّق الإسلام من بلاد المغرب إلى بلاد السودان الغربي بشكل مكثّف، وفي نطاق واسع، خلال القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي<sup>(2)</sup>، والتي كان لها الأثر الأكبر في دخول الإسلام<sup>(3)</sup>، حيث لم تكن الصحراء حاجزاً بين بلاد المغرب وبلاد السودان. فقد أدت التجارة دوراً بارزاً في توسيع شبكة الاتّصال بين المنطقتين، ومن ثمّ تسرّب الإسلام إلى بلاد السودان<sup>(4)</sup>.

(1) هوبير ديشان، الديانات في إفريقيا السوداء، ترجمة أحمد صادق حمدي، دار الكتاب العربي، القاهرة، 1956، ص 128.

(2) حسن أحمد محمود، المرجع السابق، ص 143.

(3) F. Garrard, Myth and Metrology, The Early Trans-Saharan Gold Trade Timothy Vol. 23, No. 4, J.A.H, 1982, p 443.

(4) سحر عنتر محمد أحمد مرجان، فقهاء المالكية وآثارهم في مجتمع السودان الغربي، في عهدي مالي و صنغي 628-1000هـ / 1230-1591م، مكتبة الثقافة الدّينية، ط1، القاهرة، 2011، ص 27.

ومن الأمور التي دفعت المغاربة إلى نشر الإسلام والثقافة العربية هو حبههم الشديد للدين الذي قدّموا له النفس والنّفس من أجل تبليغ هذه الدّعوة في جميع أنحاء غرب إفريقيا، ويعلّق عبد الرّحمن السّعدي على هذا التّدين الشّديد عند حُكّام المغرب حين قال: " وهم على دين الإسلام، واتباع السنّة، وهم يجاهدون السّودان"<sup>(1)</sup>، كما كانت لطرق القوافل التجاريّة التي تربط بين شمال القارّة وبين السّودان الغربي والأوسط غرب إفريقيا من أهمّ المنافذ التي تسرّب منها الإسلام إلى قارّة إفريقيا، ومن أهمّها الطّريق الذي يبدأ من جنوبي تونس ويتّجه إلى بلاد الكانم والبورنو في حوض بحيرة تشاد، والطّريق الثاني يبدأ من توات جنوب الجزائر ويتّجه صوب تمبكتو ثم إلى بلاد الهوسا (شمال نيجيريا حالياً)، والطّريق الذي يبدأ من مراكش ويصل إلى مصبّ نهر السنغال والمناطق المجاورة الأخرى<sup>(2)</sup>.

### 3- دور المرابطين:

ما من أحد ينكر دور المرابطين وحركتهم الكبيرة في نشر الإسلام وتعاليمه في إفريقيا جنوب الصّحراء، ويتنسب المرابطون إلى قبيلة صنهاجة، ويعدّ يحيى بن إبراهيم الجدّالي الزّعيم السّياسي لتلك الحركة في حين يعدّ عبد الله بن ياسين الزّعيم الرّوحي لها، ومما تجدر الإشارة إليه أن المرابطين لم يكونوا أوّل من أدخل الإسلام إلى غرب إفريقيا، فقد كانوا على المجوسية إلى أن ظهر فيهم الإسلام فأبلاوا البلاء الحسن بهدف نشره وتمكينه في قلوبهم مما أدّى تملكهم في البقاع التي

(1) عبد الرحمن السّعدي، تاريخ السودان، طبعة هوداس، فرنسا، ط1، 1898، ص 25.

(2) شوقي عطاء الله الجمل وآخرون، الموسوعة الإفريقية، معهد البحوث والدراسات الإفريقية، مج2، القاهرة، 1997، ص ص75-76.

دخلوها<sup>(1)</sup>، وبهذا أعطوا دفعة قويّة لنشره عندما اخضعوا الصحراء ونجحوا في الانتصار على مملكة غانة الوثنية عام 460هـ/ 1067م<sup>(2)</sup>.

وقد قامت هذه الدولة بتكوين جبهة إسلامية قوية، امتدّت من غرب إفريقيا إلى المغرب ثم الأندلس وقد ساعدت هذه الدولة على انتشار الإسلام وثقافته في غرب إفريقيا، ويرجع الفضل في نشر الإسلام في هذه الجهات إلى دعاة المرابطين الذين امتدّ نشاطهم من السنغال إلى غينيا حتى ساحل العاج والنيجر<sup>(3)</sup> ولم يقتصر دورهم في نشر الإسلام بين القبائل الوثنية فحسب بل عملوا على إصلاح العقيدة، ونشر التعاليم الإسلامية الصحيحة<sup>(4)</sup>، كما أسهموا في نقل المؤثرات الأندلسية والمغربية إلى تلك المناطق، ومنها الكتابة بالخطّ المغربي، واتباع المذهب المالكي من الناحية الفقهية المغاربة<sup>(5)</sup>، ويعزى إليها أيضاً تأسيس الكثير من المراكز التجارية التي تطوّرت وأصبحت حواضر إسلامية وعلمية كبرى، مما عزّز العلاقات الثقافية والتجارية بين بلاد المغرب الإسلامي والسودان الغربي<sup>(6)</sup>.

ومما سبق يتبيّن لنا الأثر الكبير لجهد المرابطين عبر هذا التاريخ الطويل، حيث أصبحت الثقافة العربية في منطقة السودان الغربي تحمل طابعاً مغربياً واضحاً

(1) ابن خلدون، ديوان العبر، ج6، دار الفكر، بيروت، 2000، ص 242.

(2) المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، الروابط العربية الإفريقية قبل حركة الكشف الجغرافية و بدء حركة الاستعمار الأوربي في القرن الخامس عشر، لعلاقات العربية الإفريقية دراسة في الآثار السلبية للاستعمار، معهد البحوث والدراسات العربية، 1977، ص 37.

(3) عبد الرحمن زكي، الإسلام والمسلمون في غرب إفريقيا، مجموعة محاضرات ألقيت في معهد الدراسات الإفريقية، مطبعة يوسف، ج2، ص 8-13.

(4) المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، المرجع السابق، ص 37.

(5) عصمت عبد الله دندش، دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا، ط1، در الغرب الإسلامي، بيروت، 1988، ص 222.

(6) المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، المرجع السابق، ص 37.

المعالم، والمذهب المالكي مذهب النَّاس، والمدارس التَّعليمية تنتهج منهجاً خاصاً بالمغرب الإسلامي، أضف إلى ذلك الكتب المتداولة أغلبها لعلماء مغاربة والكتابة كانت بالخطِّ المغربي، أي أمَّها ثقافة مغربية على أرض إفريقية<sup>(1)</sup>، ومن خصائص انتشار الإسلام في السَّودان الغربي، هو إسلام الطبقة العليا من الحكَّام والملوك قبل الرعايا<sup>(2)</sup>، وهذا ما يشجِّع على انتشاره بشكل واسع، فقد كان إسلام الكثير من الناس بسبب إسلام من يحكمونهم.

#### 4- دور الممالك الإفريقية:

لقد كان للإسلام دور كبير في ظهور ممالك إسلامية عديدة في غرب إفريقيا، مثل غانة ومالي وسنغاي والتي ساهمت بدورها في نشره وترسيخه، كما كان لها أثرها في مختلف المجالات فزادت مكائنها وتطورت

حضارتها<sup>(3)</sup>، وأوَّل هذه الممالك وأقدمها مملكة غانة<sup>(4)</sup> ويُرجَّح أن أوَّل حكومة قامت في غانة يرجع تاريخها إلى حوالي القرن الأوَّل ميلادي. وغانة كانت أصلاً لقباً يُلقب به ملوك هذه الدولة، إلاَّ أنَّها اشتهرت بهذا الاسم نسبة لعاصمتها غانة، وهي كما ذكر ياقوت كلمة أعجمية، بعدما سقطت مملكة غانة خلفتها مملكة مالي في البقعة الجغرافية وأظهرت حرصاً كبيراً في نشر الإسلام وإتمام الدَّور الذي

(1) محمود حسن أحمد، المرحلة الإفريقية من تاريخ المرابطين، المجلة التاريخية المصرية، مح 12 مصر، 1965، ص 118.

(2) Chailley, marcel, histoire de l'Afrique Occidentale Française, p33.

(3) شوقي عطا الله الجمل، الحضارة الإسلامية العربية في غرب إفريقيا سائها و دور المغرب فيها، مقال بمجلة المناهل، وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية، الرباط، العدد7، 1976، ص 132.

(4) للتفصيل في هذه المملكة انظر حسن عيسى عبد الظاهر، المرجع السَّابق، ص ص 111-118.

بدأته مملكة غانا الإسلامية لهذا تعتبر ملكة مالي من أهم الممالك الإسلامية التي رسخت الإسلام في العديد من الحواضر عن طريق العلم والتعليم وركب الحجيج الذي ساهم هو الآخر من الناحية الثقافية في الربط ما بين أراضي العالم الإسلامي عامة وغرب إفريقيا خاصة<sup>(1)</sup> اختفت غانة، كما اختفت إمبراطورية الصّوصو وتعتبر مالي أقوى وأغنى إمبراطورية إسلامية قامت في السودان الغربي، وترجع أصولها إلى القرن السابع ميلادي، غير أنّها بلغت الذروة، خلال القرن الثالث عشر ميلادي أسست هذه الدولة قبائل الماندينجو التي سادت لبضعة قرون في المنطقة الفسيحة بين نهر النيجر والمحيط الأطلسي. وملوك مالي هم أصحاب الدور الكبير في نشر الإسلام، وأشهر أسرة هي كيتا صاحبة الفضل في تكوين هذه الدولة الإسلامية التاريخية. وكانت دولة التّكرارة في حوض السنغال الأدنى قائمة في القرن الحادي عشر، وكذلك قامت دولة سنغاي<sup>(2)</sup> التي ظهرت حوالي القرن السابع الميلادي على الضفة الشمالية لنهر النيجر، وبلغت أقصى اتّساعها في زمن أحد ملوكها وهو سنّي علي (850 - 892هـ / 1464-1492م) الذي أخذ لقب أمير المؤمنين.

## 5- القوافل التجارية:

رغم ما بين بلاد المغرب وبلاد السودان الغربي من صحاري وبرايري منقطعة قليلة المياه متعدّرة المراعي

وصعبة المسالك<sup>(3)</sup>، إلا أنّ الاتّصال بينهما قد شهد تطوراً في فترات مختلفة ذلك لأنّ العلاقات كانت قديمة، يقول باذل دافدسن: "اتّصل الغرب بالشمال

(1) للتفصيل في هذه المملكة انظر المرجع نفسه، ص ص 119-138.

(2) للتفصيل في هذه المملكة انظر عبد القادر زبادية، مملكة السنغاي، المرجع السابق. حسن عيسى عبد الظاهر، المرجع السابق، ص ص 139-153.

(3) ابن حوقل، صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، لبنان، 1996، ص 100.

الإفريقي وشماله الشرقي منذ أحقاب ممعنة في القدم"<sup>(1)</sup>، وقد قامت مراكز تجارية على مقربة من المسالك، والطرق التجارية قدّمت خدمات جليلة للإسلام، فبتطوّر هذه المراكز تجارياً التي يرتادها التجار بمختلف السلع والمنتجات، سرعان ما تتحوّل إلى مراكز ثقافية يرتادها الدّاعية والمعلم والمريد، حتّى أصبح من المعروف أنّ هذه المحطّات مراكز لتبادل السلع والأفكار، لذلك نجد أنّ بعض المراكز قد غلب عليها النشاط الاقتصادي مثل جني في حين هناك مراكز غلب عليها الجانب العلمي مثل كانو، وجمعت تمبكتو الأمرين معا<sup>(2)</sup>.

تعتبر الطرق والمسالك الصّحراوية أهم وسيلة للاتّصال بين سكان المغرب الإسلامي وشعوب إفريقيا جنوب الصّحراء، حيث اجتازت عبرها القوافل التجارية المحمّلة بمختلف السلع والمنتجات انطلاقاً من مراكز الشّمال الإفريقي إلى المراكز التجارية بالسّودان الغربي، ثمّ ترجع قافلة مرّة أخرى بعد مدّة عبر هذه الطرق إلى مواطنها محملة بسلع ومنتجات أخرى غير موجودة في مراكز الشمال حيث يتمّ الإقبال عليها بكثرة

ومن أهمّ هذه الطرق والمسالك<sup>(3)</sup>:

**الطريق الأوّل:** من سجللماسة ثم ولّاتة ومنها إلى تمبكتو وجني وغاو.

**الطريق الثّاني:** من تلمسان ويمر بواحة غرداية ثم توات ومنها إلى تمبكتو.

(1) باذل دافدسن، إفريقيا تحت أضواء جديدة، ص 19.

(2) أحمد شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، ط7، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1983، ص194.

(3) الشّيخ الأمين عوض الله، تجارة القوافل و دورها الحضاري حتّى نهاية القرن السّادس عشر، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، معهد الدراسات العربية، بغداد، 1984، ص

**الطريق الثالث:** من تقرت إلى ورقلة ثم إلى تمبكتو وغاو هذا الطريق يتصل بالموانئ الجزائرية في الشمال<sup>(1)</sup>

**الطريق الرابع:** من إقليم الجريد جنوب تونس إلى وادي سوف وغدامس إلى مراكز الجنوب.

**الطريق الخامس:** من طرابلس الغرب إلى غدامس ثم يتفرع إلى فزان ومرزق ثم إلى غاو وبورنو.

**الطريق السادس:** يبدأ من مصر إلى واحة سيوة وزويلة وتادمكة و ينتهي إلى غاو وتمبكتو.

وتجدر الإشارة بأن هذه الطرق التجارية المذكورة، تتحكم بها عوامل سياسية واقتصادية وجغرافية تؤدي إلى تغيير مسالك القوافل التجارية من وقت لآخر، غير أن اتجاهاتها تبقى ثابتة، ما دامت المراكز التجارية الواقعة عليها لم تفقد قيمتها لسبب أو لآخر<sup>(2)</sup>، وقد تركز الإسلام في بداية الأمر في المراكز التجارية الهامة والمدن، ثم توغل إلى دواخل إفريقيا البعيدة وانتشر بين شعوب غرب إفريقيا عن طريق القوافل التجارية التي لا تنقطع، وبهذا النشاط التجاري زاد نفوذ المسلمين، وأصبحت المعاملات الإسلامية هي الوسيلة الوحيدة للتعاملات التجارية ما بين المسلمين المتحكمين في هذه التجارة<sup>(3)</sup>. أمّا وسيلة النقل لتلك القوافل فكانت الجمال التي قدر عددها خلال السنة الواحدة في عصر ابن خلدون حوالي اثني عشر ألف جمل، وكان فيها قدر كبير من الاهتمام حيث يراعي فيها تنظيمًا محكمًا في

(1) عبد القادر زبدي، مملكة سنغاي، المرجع السابق، ص 214.

(2) بلهوارى فاطمة، العلاقات التجارية بين بلاد المغرب و إفريقيا السوداء، مجلة عصور، ع 8-9-10-11، جامعة وهران، الجزائر، 2006-2007، ص 154.

(3) J.Spencer Trimingham، op-cit، p 28.

السّير والحراسة، وتوفير الضّروريات خاصّة الماء وعند وصولها تستقبل بحفاوة من طرف الرّسميين وغيرهم<sup>(1)</sup>.

وقد كان التّجار المغاربة في تجارتهم ومعاملاتهم يكسبون احترام وودّ الشعوب السّودانية؛ نظراً لما كانوا يتمتّعون به من أخلاق وأمانة وأدب. وقد كانوا ينقلون بضائعهم من سيوف ورماح وألبسة صوفية من شمال إفريقيا إلى غربها، ويتوزّعون لبيعها في غانة ومالي وتكرور وسنغاي وكاتسينا وكانو وبرنو ثم يعودون بريش النّعام والعاج والعبيد<sup>(2)</sup>.

ومع هذه الحركة التّجارية الكبيرة قويت الصّلات، وقويت معها العلاقات التّحافية فكان ذلك دافعاً جعل الكثير من طُلاب السّودان الغربي يتوجّهون وبقوّة مع القوافل التّجارية صوب الشّمال، قاصدين المراكز العلمية لطلب العلم<sup>(3)</sup>، وكان للتّجار المسلمين دورٌ مهمّ في تأسيس بعض المدارس القرآنية لتعليم الأطفال<sup>(4)</sup>، وقد وُجِدَت أسرٌ عربية اتّخذت التّجارة حرفة رئيسية عُرفت بها، وأصبحت في المدن التّجارية الهامّة في غرب إفريقيا وشمالها أحياءً خاصّة للتّجار العرب يقيمون في دورٍ بنوها فوق مستودعات بضائعهم، وحرّص هؤلاء على أن يتعلّم أبناءهم في المدارس والمساجد مع الطّلبة الأفارقة<sup>(5)</sup>.

(1) عبد القادر زبادية، دراسة عن افريقيا جنوب الصحراء في مآثر ومؤلفات العرب المسلمين، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دت.

(2) آدم الألووري، الإسلام في نيجيريا، المرجع السّابق، ص 40.

(3) جلال يحيى، تاريخ افريقيا الحديث و المعاصر، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، 2010، ص 21.

(4) بلاربي أبو بكر، اللغة العربية في نيجيريا من العصور الوسطى إلى اليوم، المجلة العربية للثقافة، تونس، مج 7، ع 1987، 12، ص 19.

(5) نعيم قدام، أفريقيا الغربية في ظل الإسلام، دمشق، 1960، ص 25 وما بعدها.

ويتبين لنا من هذا الوصف أن التاجر المسلم قام بدور كبير للدعوة الإسلامية في غرب إفريقيا وكيف أثر بشكل مباشر في عملية انتقال الثقافة بشكلها العام، عناصرها المختلفة من عقائد ونظم وعادات قيم إلى المجتمعات غير المسلمة بشكل سلس هادئ، وبذلك يعد نموذجا حياً لكيفية دخول الإسلام وحضارته إلى إفريقيا الغربية عبر واحدة من أهم الوسائل ألا وهي التجارة<sup>(1)</sup>، وبما أن حركة التبادل التجاري كانت تسير في اتجاهين متعاكسين، فإنه من المرجح أن التجار السودانيين بعد أن أسلموا، بدؤوا ينشرون الإسلام في مناطقهم، نظراً لمعرفة لغة أقوامهم من جهة، والمكانة المرموقة التي يحتلها هؤلاء في مجتمعاتهم من جهة أخرى، وهذا ما يتناسب مع قبائل الهوسا المعروفة بنشاطها التجاري الكبير وتنقلاتها الواسعة<sup>(2)</sup>، وقد تميزوا بمهارة فائقة في فلاحه الأرض، وبعض الحرف الصناعية وكذلك في التجارة، وقد أسهم الموقع المتوسط بين السودانيين الغربي والشرقي، ووقوعها عند الطرف الجنوبي لطريق القوافل التجارية الصحراوية الرئيسية، والذي يمتد من تونس ماراً بمدينة غات وخدامس وأهير ثم إلى بلاد الهوسا، ويعتبر التجار الهوسويين من أكثر التجار مغامرة، وكانت قوافلهم تحترق الصحراء الكبرى باتجاه بلاد المغرب بمنتجات بلاد السودان من ذهب وعاج ورقيق وريش نعام وغيرها، كما وصلت قوافلهم مناطق الغابات في الجنوب إلى روافد وادي نهر بنوي، كما اتجه تجارهم شرقاً إلى بورنو<sup>(3)</sup>.

لم يترتب على التجارة بين بلاد المغرب والسودان الغربي نتائج اقتصادية فقط بل كانت آثارها الحضارية والاجتماعية، والثقافية أعمق وأقوى فقد أدت إلى انتشار الإسلام وانتشار اللغة العربية، وعليه نخلص إلى أن التجارة تعدّ من أكبر العوامل نقلاً لروافد الحضارة العربية الإسلامية من بلاد المغرب الإسلامي إلى

(1) حسن عيسى عبد الظاهر، المرجع السابق، ص 97.

(2) عصمت عبد الله دندش، المرجع السابق، ص 45-46.

(3) شوقي عطاء الله الجمل وآخرون، الموسوعة الإفريقية، المرجع السابق، ص 204.

بلاد السودان الغربي، بل إن التجارة وانتشار الإسلام في غرب إفريقيا مرتبطان كل الارتباط<sup>(1)</sup>.

### 6- انتشاره في بلاد الهوسا :

وصل الإسلام بلاد الهوسا من طريقين أولهما عبر مصر والسودان الشرقي، ودارفور وبراغمي وبورنو، والطريق الثاني من المغرب الإسلامي إلى جنوب الصحراء حتى وصل إلى المناطق الغابية والساحلية من السودان الغربي<sup>(2)</sup>، ويذكر المؤرخون أن الإسلام كان معروفاً لدى قبائل الهوسا منذ عام 700هـ/ 1300 م وزاد تأثيره بتدفق الهجرات، مع دخول قوافل التجارة المحملة بمنتجات و سلع بلاد المغرب، ومع ذلك كانت قبائل الهوسا شديدة التمسك بدياناتها التقليدية وعاداتها القديمة<sup>(3)</sup>، ويرجع الفضل في انتشار الإسلام في هذه البلاد لوفود علماء الونغاارة الذين جاؤوا من مملكة مالي حاملين معهم الكتب في مختلف العلوم وذلك خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين<sup>(4)</sup>، وقد نشير إلى أن نزوحهم بقيادة زناتي من مالي إلى بلاد الهوسا، قد تكون سببها العلاقات السيئة مع الملك سني علي<sup>(5)</sup>، ويُعتبر الونغاارة من الأوائل الذين وضعوا تقليد منحة الدراسة في الفقه الإسلامي، واللغة العربية، والحديث في بلاد الهوسا حيث وصل علماء من الونغاارة إلى كانو في عهد الملك يعقوب Yakubu (ت 904هـ/1463م)، وذكرت حوليات كانو أنهم قد ساهموا بقدر كبير في إثراء المنح الدراسية للمنطقة

(1) أرنولد توماس، الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن إبراهيم حسن، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ص 371، 376، 383.

(2) عبد الله آدم الألوري، موجز تاريخ نيجيريا، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1965، ص 35.

(3) محمد أنور، قبائل الهوسا، مجلة افريقيا قارتنا، العدد 6، القاهرة، 2013، ص 3.

(4) عبد الله آدم الألوري، الإسلام في نيجيريا، بيروت، 1971، ص 32.

(5) Lovejoy, P. E. ,The Role of the Wangara in the Economic Transformation of the Central Sudan in the Fifteen and Sixteenth Centuries, XIX, 2, J.A.H, 1978,p184

من خلال جلب كتب التوحيد وعلوم اللّغة، بالإضافة إلى كتب تفسير القرآن الكريم و غيرها من الكتب من مختلف العلوم الأخرى<sup>(1)</sup>، حتّى أنّ قبائل اليوربا تسمّي الإسلام بدين مالي نظراً لمساهمتهم الكبيرة في نشره بينهم<sup>(2)</sup>.

### ثانياً: انتشار اللّغة العربية وتأثيراتها.

في المبحث السّابق من الفصل الثّاني تكلمنا عن انتشار الإسلام في بلاد السّودان الغربي، وانتشاره يعني بالضرورة انتشار لغته العربية كلغة للتعبّد والتّخاطب والتّعامل والكتابة وإلى غير ذلك من مختلف الاستعمالات. يقول المستشرق كارل بروكلمان: "... وقد انتشرت اللّغة العربية عن طريق القرآن الكريم انتشاراً واسعاً كما لم تنتشر أيّة لغة أخرى من لغات العالم.. وقد أصبحت اللّغة الأدبية المشتركة التي لها المكانة وحدها في معظم الأحوال حتّى بعد ظهور الآداب المحليّة في النّواحي العلميّة إلى غاية اليوم. وتسيطر العربية القديمة أساساً في هذه الآداب، وهذا يعني سيطرة اللّغة الشّعريّة غالباً، مع مفردات مناسبة للظّروف الجديدة. و بالطبع لن تستطيع هذه اللّغة أن تتخلّص لدى العرب أنفسهم من تأثيرات اللّهجات الشّعبيّة الحيّة كلّها"<sup>(3)</sup>.

مّا لا شكّ فيه أنّ انتشار اللّغة العربية في مختلف أقطار العالم الإسلاميّ عامّة، ومنطقة إفريقيا جنوب الصّحراء خاصّة، مرتبطة كلّ الارتباط بانتشار الإسلام، من هنا تبرز قيمة اللّغة العربية فهي الوعاء الكبير الذي يحمل الإسلام، فإذا كان وصول الإسلام إلى منطقة إفريقيا جنوب الصّحراء في وقت مبكر؛ أي منذ القرن

(1) Palmer, H. R, The Kano Chronicle, Vol 38, The Journal of the Royal Anthropological Institute of Great Britain and Ireland, 1908, pp. 58-98

(2) عبد الله آدم الأثوري، الإسلام في نيجيريا، المرجع السّابق، ص 33.

(3) كارل بروكلمان، فقه اللغات السامية، تر: رمضان عبد التّواب، جامعة الرياض، السّعودية، 1977، ص 30.

الأول الهجري السابع ميلادي، فإن وصول العربية كان في حدود هذا التاريخ، وحين تحدّث البكري في القرن الخامس عن مملكة غانة قال: "إنّ تراجمة الملك وصاحب بيت ماله وأكثر وزرائه من المسلمين" وهذا لثقته فيهم لأمانتهم وصدقهم، وكذلك لمعرفةهم بالعربية فكانوا يستعملونها في كتاباتهم<sup>(1)</sup>، كما ذكر أنّ هذه المملكة مدينتان كبيرتان إحداهما يسكنها المسلمون، ووصفها بأنها مدينة كبيرة بها اثنا عشر مسجداً، ويجتمعون في أحد هذه المساجد، ولها الأئمة والمؤدّنون وفيها فقهاء وحملة العلم والمدينة الأخرى التي تبّعها بستة أميال يسكنها الملك وفيها أيضاً "مسجد يصلي فيه من يفد عليه من المسلمين على مقربة من مجلس الملك"<sup>(2)</sup>، وفي القرن الخامس الهجري الحادي عشر ميلادي استولى عليها المرابطون فأصبحت مملكة إسلامية ثمّ توالى الممالك وأشهرها كانم بورنو في منطقة التشاد الحالية، ومملكة مالي ومملكة السنغاي إلى ظهور الخلافة السوكوتية في بلاد الهوسا إلى دولة ماسينا في مالي والدولة الفوتية في منطقة السنغال فكلّ هذه الممالك والدول الإسلامية قد جعلت من اللغة العربية لغتها الثقافية والتعليمية والدينية والإدارية ومعاملاتها التجارية ومراسلاتها الرسمية، فانتشر التعليم باللغة العربية، ونبغ العلماء والكتّاب والشعراء والأدباء والمؤرّخون ممّا شجّع على نشرها وترسيخها، وزاد مكتبة التراث الإسلامي غنى<sup>(3)</sup>.

وإذا كانت هذه الممالك الإسلامية التي نشأت في منطقة جنوب الصحراء قد قامت بدور مهمّ وأساسي في نشر الثقافة الإسلامية واللغة العربية، فبنت المساجد وفتحت المدارس ودوّر التعليم على أوسع نطاق، وشجّعت العلماء وقربت رجال

(1) البكري أبي عبيد الله، المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب، مكتبة المثنى، بغداد، 1857، ص 175.

(2) نفسه، ص 175.

(3) عبد العلي الودغيري، اللغة العربية والثقافة الإسلامية بالغرب الإفريقي و ملامح من التأثير المغربي، ط 1، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 2011، ص 100.

الدين وأنزلتهم المنازل التي تليق بهم، فإن هنالك أيضاً عوامل أخرى تضافرت معها على ذلك: منها دور دعاة الإسلام الذين انتشروا في أنحاء الغرب الإفريقي، ومنها دور القوافل التجارية والتجار أنفسهم، ومنها الطرق الصوفية ومريديها، كما كانت الرحلات أيضاً التي يقوم بها الحجاج الأفارقة إلى الديار المقدسة في الحجاز مروراً بأقطار عربية كثيرة يأخذون منها العلم، ويقتنون منها الكتب ويربطون الصلة بالعلماء ويصطحبون معهم الدعاة والمعلمين. ومنها أيضاً هجرة بعض القبائل العربية على فترات واستقرارها في أجزاء من المنطقة.

لقد توسع الإسلام في دواخل إفريقيا مع انعدام بيئة تتكلم العربية أو تجيدها، وكان الفضل في ذلك لجهود كبار العلماء الذين تحملوا عناء السفر لمسافات بعيدة، وربما كانت الرحلة محفوفة بالمخاطر مع صعوبة المسالك الصحراوية هذا من جهة، وتوفر الاستعداد الفطري لدى الأفارقة لتقبل دعوة الإسلام من جهة أخرى<sup>(1)</sup> كما توسعت وانتشرت معه اللغة العربية، وأصبحت لغة التخاطب والتعامل، خاصة بعد الإجماع بعدم قراءة القرآن بغير العربية، ووجوب الصلاة إلاّ بها<sup>(2)</sup>، فكان لزاماً على من يريد التوغل في أسرار الدين أن يوغر في لغته، وأن يتقنها، وقد كان انتشارها انتشاراً واسعاً شمل جميع ميادين الحياة.

## 1- دور الدعاة والفقهاء:

لقد كان الدعاة المتطوعون يتوزعون في كثير من مناطق غرب إفريقيا فيذهبون للدعوة دون وجهة فلا تبعثهم حكومة، ولا تشرف عليهم إدارة، ولا تنظمهم قيادة، بل هم موزعون في تلك البقاع، يستعملون مختلف الوسائل الممكنة

(1) الكيالي سامي، آثار لغة القرآن في لغة المسلمين العجم، اللسان العربي، المغرب، مج 7، ع1، 1970، ص 134.

(2) شوقي عطا الله، عبد الله عبد الرزاق، تاريخ شمال و غرب إفريقيا الحديث و المعاصر، دار المعرفة الجامعية، مصر، 2012، ص 61.

لنجاح دعوتهم<sup>(1)</sup>، ومن أشهر العلماء الذين هاجروا إلى أصقاع إفريقيا وأقاموا فيها وكان لهم حظ وافر في تعليم مبادئ الدين وتصحيح العقيدة والرفع من مستوى تعليم اللغة العربية، الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني (ت 909هـ/1503م) الذي ترك أعمالاً جلييلة مازالت بصماتها يشيد بها الكتاب والمؤرخون<sup>(2)</sup>.

## 2- دور التجارة في نشر اللغة العربية:

لقد كان للتجارة دور كبير في نشر وترسيخ اللغة العربية في هذه المناطق، حيث أصبحت التجارة عبر الصحراء الوسيلة المهمة في تدفقها في هذه المناطق، ومن الطبيعي كذلك أن يلتقطها التجار الأفارقة من إخوانهم العرب وينشرونها فيما بينهم فهذه العلاقة التجارية إذن هي التي وضعت الحجر الأساس للغة العربية في هذا الجزء من إفريقيا، وهكذا بدأ أولئك التجار يدخلون كلمات عربية في تلك المناطق من إفريقيا، فانتشرت تلك الكلمات تدريجياً حتى توغلت في ربوع إفريقيا، واندمج بعضها في اللغات المحلية وبخاصة بعد انتشار الإسلام، ومما يؤكد هذا تلك المجموعة الهائلة من الكلمات العربية الكثيرة الموجودة في العديد من اللغات الإفريقية. كالهوسا والفولان، والكانوري، خاصة الأسماء التي تكثر استعمالها أثناء عمليتي البيع والشراء مثل أسماء البضائع والسلع التي كانت تأتي من بلاد المغرب الإسلامي<sup>(3)</sup>.

(1) عبد الله آدم الألوري، الإسلام في نيجيريا، المرجع السابق، ص 40.

(2) عبد العلي الودغيري، المرجع السابق، ص 100.

(3) مصطفى حجازي السيد، أدب الهوسا الإسلامي، جامعة الإمام محمد بن سعود

الإسلامية، 2000، ص 31.

### 3- دور المغاربة في نشر اللغة العربية:

كان المسلمون في هذه البلاد يأخذون العلوم الدينية من علماء المغرب الإسلامي<sup>(1)</sup>، وكان انتشارها يعتبر من منابعها حتى تعلمها أهل هذه البلاد وبدأوا بنشرها، وكان بدء انتشار العربية في مملكة كانو على عهد السلطان محمد رمفا في القرن التاسع الهجري. ولكن الحقيقة التي أصبحت معروفة لدى الجميع، هي أن انتشار اللغة العربية كان شيئاً مُلازماً بالضرورة لانتشار الدين الإسلامي. فحيثما توجه واستقر، استقرت معه لغة القرآن التي هي أداة ضرورية لفهم الوحي والتنزيل عند المسلمين، وضرورة أيضاً لأداء فريضة الصلاة، وحفظ السور وقراءة الأوراد، كما هي ضرورية لفهم الكتب الدينية الأساسية من حديث وتفسير وقراءات وسيرة نبوية وغيرها من العلوم الإسلامية<sup>(2)</sup>، ومن ثم لم تكن العربية عند المسلمين في يوم من الأيام، مجرد لغة دين وتعب فقط، بل أصبحت لغة تعليم وتعلم، ولغة فهم وتفهم، ولغة ثقافة وحضارة وفنون. ومن ثم تحولت لتصبح جزءاً من العادات والتقاليد، بل جزءاً من شخصية المسلم وكيانه وهويته<sup>(3)</sup>.

إن الكثير من الكلمات والآيات القرآنية تمازجت مع اللغات المحلية للمسلمين حتى أصبحت جزءاً من

هذه اللغات واللهجات، مما يؤكد قوة التلازم والترابط بين اللغة العربية وبين الإسلام الذي أغناها بسحر آياته وإعجاز كلماته فاغنت وأغنت<sup>(4)</sup>، وهنا تدخل مسألة التأثير والتأثر، كما أن اللغة العربية تستطيع التطور واستيعاب ما تسرب

(1) عبد الله الألواري، تاريخ دخول الإسلام، المرجع السابق، ص 284.

(2) محمد سليمان باري، محمد صالح جمال، اللغة العربية أداة للتفاهم بين الشعوب النيجيرية المسلمة، المؤتمر الدولي الرابع للغة العربية، دبي، 6-10 ماي 2015، ص 194.

(3) عبد العلي الودغيري، دور المغرب في نشر الإسلام ولغة القرآن بالغرب الإفريقي

(4) الكيالي سامي، المرجع السابق، ص 135.

إليها من اللغات واللهجات التي اختلطت معها وذلك باحتوائها من جهة والاستفادة منها من جهة أخرى<sup>(1)</sup>، واللغات في بلاد السودان متباينة تسمى إحداها السنغاي وتستعمل في عدة نواح، كولاته، وتمبكتو وجني وغاو، ووانغارة بينما تدعى لغة أخرى كوبر وتستعمل في بلاد غوبر وكانو وكاتسينا وزكرك، وهناك لغة في بورنو تشبه المستعملة في كاوكاو وأخرى بقيت مستعملة في مملكة النوبة تختلط فيها العربية والسريانية والقبطية<sup>(2)</sup>، إلى غير ذلك من اللغات الكثيرة التي قدرها بعض الدارسين بين 700 و1000 لهجة<sup>(3)</sup>.

#### 4- المراسلات العلمية ودورها في نشر اللغة العربية:

كانت المراسلات العلمية رافداً قوياً من روافد هذه النهضة الإسلامية في غرب إفريقيا، وكان لها أثرها البالغ في توجيه وتصحيح بعض العقائد والأفكار المنحرفة، وتعليم ونشر مبادئ الإسلام بين المسلمين، كما كان لها تأثيرات وإسهامات في نشر اللغة العربية، وهناك نماذج كثيرة من هذه المراسلات، والتي حدثت في فترات مختلفة، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر نموذجاً من تلك المراسلات، فقد حفظ لنا القلقشندي رسالة بعث بها سلطان كانم عثمان بن إدريس باللغة العربية إلى السلطان الظاهر سيف الدين برقوق، وقال إنها وردت سنة 794هـ/1394م. مما يوجب القول أنّ انتشار اللغة العربية واضح بجلاء ومادامت أنّ الرسالة طابعها كان رسمي، فإنه يدلّ حتماً أنّ اللغة العربية كانت

(1) مسعود بويو، من تاريخ انتشار اللغة العربية في الآفاق، مجلة دراسات تاريخية، ع 63-

64، جامعة دمشق، سوريا، 1998، ص 6.

(2) الحسن الوزان، وصف إفريقيا، تر: محمد حجي، محمد الأخضر، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ج2، 1983، ص 39.

(3) الحاج سيلا، دور اللغة العربية في العلاقات الإفريقية العربية، المنتقى العربي الإفريقي حول العلاقات بين اللغة العربية واللغات الإفريقية الأخرى، السنغال، 1984، ص 97.

اللغة الرسمية للدولة، وتكتب بها سجلاتها كما أن مضمون الرسالة يُعبر عن مدى شيوع الثقافة العربية الإسلامية في هذه البلاد<sup>(1)</sup>.

كذلك حدث مع الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي عندما كان في بلاد السودان الغربي حيث كتب فتاويه الدينية ووصاياه السياسية باللغة العربية لكل من الأسبقا محمد الكبير سلطان مملكة سنغاي والأمير أبي عبد الله محمد رنفا بن يعقوب سلطان كانوا؛ والرّاجح أنه كتبها حينما كان في بلاط كلٍّ منها<sup>(2)</sup>.

وفي إطار نصح العلماء لبعضهم، كانت هناك بينهم مراسلات علمية ومناظرات، ومن هذه الرسائل ما كتبه أحد علماء التكرور يستفتي فيها الإمام السيوطي في بعض الأمور المتعلقة بعوائد أهل السودان المخالفة للشريعة<sup>(3)</sup>. ورسائل عثمان بن فودي بعث بها إلي أهل السودان وهي كثيرة، حيث بين لهم عن طريق هذه الرسائل المكتوبة باللغة العربية كل ما يتعلق بأحوال بلاد الهوسا من انحرافات، وبين لهم الطريق المستقيم بإتباع الكتاب والسنة، ومن النماذج أيضاً، الرسائل المتبادلة بين الشيخ عثمان بن فودي، وسلطان الكانم بورنو محمد الأمين الكانمي (ت 1251هـ / 1835م)، في أمر الجهاد في تلك البلاد وهي كثيرة وقد بلغت حدّ الروعة في التعبير دلّت على التضلع الكبير لهؤلاء في اللغة العربية وأساليبها<sup>(4)</sup>.

- 
- (1) القلقشندي أبي العباس أحمد، صبح الأعشى، ج5، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1915.
- (2) محمد بن عبد الكريم المغيلي، أسئلة الأسبقيا وأجوبة المغيلي عليها، تقديم وتحقيق عبد القادر زياديه، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، عام 1989، ص ص 151-191.
- (3) للسيوطي، الحاوي للفتاوي، ص ص 284-294.
- (4) محمد بلو، المرجع السابق، ص ص 155-198. انظر بعض الرسائل المتبادلة بين الشيخ عثمان ومحمد الكانمي في الملحق رقم 17.

## 8- اللّغات الإفريقية بالحرف العربي:

لا يمكن بأيّ حال لأحد أن ينكر أنّ كلّ شعب في إفريقيا قد اقتبس من جيرانه بعض مظاهر الثقافة، و أدخلها في ثقافته حسب أسلوبه وتصوّره<sup>(1)</sup>، فالأفارقة الذين هم أقرب للعرب وأوثق صلة بهم هم أكثر الأفارقة استعمالاً للكلمات العربية<sup>(2)</sup>، ومما لاشكّ فيه أنّ هذه الشّعوب قد سجّلت حضورها بتدوين لغاتها، وكان للحرف العربي بصمته الواضحة، فقد جعل الحرف العربي هذه الأمم تعبّر عن ثقافتها وآدابها وتاريخها، وبالتالي ضمان إيصال المعرفة إلى أبنائها، ووصول الثقافة العربية الإسلامية إليها كان عبر قبائل وسيطة، أهمّها قبائل صنهاجة التي تشربت ثقافتها من بلاد المغرب منذ القرن الهجري الأوّل، وهذا التاريخ يعتبر بداية التدوين بكبرى لغات تلك المنطقة كالفولانية والهوساوية والولفية والمالينغ<sup>(3)</sup>، فكان علماء الهوسا واليوربا يكتبون لغتهم بالأحرف العربية على طراز الفرس والترّك ويسمّونها الكتابة الأعجمية، ولقد كتبوا بها عدّة كتب علمية وأدبية ودينية<sup>(4)</sup>.

لقد كانت روابط الأخوة متينة بين شمال الصّحراء وجنوبها في إفريقيا، ومن مزاياها تسابق سكّان المنطقة إلى شراء الكتب العربية وتعلم اللّغة العربية حتى إن الجميع اخذوا يشعرون بالانتماء الثقافي والسياسي المشترك، فالمسلم أخو المسلم والعربي أصبح أخصاً للسوداني، والأرض أصبحت وطن الإسلام وكانت اللّغة العربية لغة الدّولة والحكومات، ولغة الدّواوين، والسّجلات، إضافة إلى كونها لغة

(1) علي كلطغ دبالو، الثقافة الإسلامية في إفريقيا، مجلة دعوة الحق، وزارة الأوقاف الشؤون الإسلامية، الرباط، العدد 266، 1987، ص22.

(2) الحسن الوزان، المصدر السابق، ص39.

(3) محمد الأمين منغا، اللغة العربية و اللغات الإفريقية الأخرى، معهد الدراسات الإفريقية، الرباط، 2006، ص 23.

(4) عبد الله، آدم الألوري، موجز تاريخ نيجيريا، المرجع السابق، ص 143.

الدين والحضارة في معظم دول إفريقيا جنوب الصحراء<sup>(1)</sup>، وكان الخطّ المغربي انعكاس لصورتها، فقد توافقت انتشار الخطّ المغربي في العالم الإسلامي موافقة دقيقة بانتشار مذهب مالك، وارتبط به وأصبح مرادفاً له<sup>(2)</sup>

### ثالثاً: التأثر بالشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي<sup>(3)</sup>.

يعدّ الشيخ المغيلي أحد العلماء المغاربة الذين حملوا لواء العلم ونشره في مناطق عديدة من إفريقيا خاصة النطاق الغربي منها. ارتحل المغيلي من قرية إلى قرية، ومن مدينة إلى مدينة، ومن مملكة إلى مملكة يجالس فيها الملوك، ويخالط

(1) نوري، دريد عبد القادر، انتشار اللغة العربية في أفريقيا جنوب الصحراء خلال القرون 4 - 8 هـ / 10 - 16 م، ع 30 م آداب الرافدين، العراق، 1997، ص 93.

(2) أ. هوداس، محاولة في الخطّ المغربي، ع 3، حوليات الجامعة التونسية، تونس، 1966، ص 195.

(3) المغيلي، محمد بن عبد الكريم المغيلي، هو الفقيه والمفسر الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي، عالم مشهور في الفقه والتفسير والحديث والمنطق ولد في تلمسان، أخذ العلم عن عبد الله بن يدير وعبد الرحمن الثعالبي، غادر تلمسان بسبب خلاف وقع بينه وبين ملوك بني زيان، استقر بمدينة تمنطيط في الجنوب الجزائري، أين اشتغل بالتدريس، كانت له مواقف من يهود المنطقة بسبب سيطرتهم غير الشريفة على التجارة، فحاربهم بتأييد مجموعة من العلماء، انتقل بعدها إلى منطقة غرب إفريقيا ليعمل على نشر الإسلام بين سكانه، فزار كانو والتقى بحاكمها، ثم مكث بتمبكتو أين التقى الأسقيا وما دار بينهما من أسئلة وأجوبة في الفقه و السياسة و الحكم فذاعت شهرة المغيلي، بعدها رجع الى توات أين توفي ودفن هناك سنة 909هـ/ 1503 له مؤلفات عديدة منها في علم التفسير، البدر المنير في علم التفسير وفي الفقه، مصباح الأرواح في أصول الفلاح و تاريخ الدين فيما يجب على الملوك والسلطين وغيرها. و كانت للمغيلي مراسلات عديدة مع السيوطي حول مسائل في المنطق. وكان معجباً بآراء أرسطو، فأصبح من ابرز علماء عصره ومن أكثرهم تأثيراً على علماء الصحراء الكبرى وإفريقيا. أنظر، محمد بن عبد الكريم المغيلي، مصباح الأرواح في أصول الفلاح، الجزائر، 1968، تقديم رابح بونار. محمد بن عبد الكريم المغيلي، أسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي عليها، تقديم وتحقيق عبد القادر زباديه، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، عام 1989.

العلماء، وينصح الخاصّة، ويُصلح العامّة، حتّى ذاع صيته، وشُدَّت إليه الرّحال من الأقصي من طلبة وعلماء وغيرهم، يرجون النّهْل من علمه، والاستفادة من نصحه.

دخل المغيلي إلى كانو، وأقام فيها للتّدريس، ثمّ تولّى القضاء، وعمل على تأليف رسالة في شؤون الإمارة، في شكل نصائح قدّمها للأمير محمد ابن يعقوب المعروف برمفا، وهذه الرّسالة معروفة ب: تاج الدّين فيما يجب على الملوك والسلاطين. ثم رحل إلى كاتسينا، وقام بمهمّة التّعليم والإفتاء، وقدّم نصائح ووصايا لحاكمها إبراهيم ياجي وحسب رواية هنري بارث أن المغيلي عندما رحل إلى كاتسينا أدخله إلى الإسلام<sup>(1)</sup>.

وبحسب أعماله فقد اجتمعت فيه خصال جمّة، فهو يملك من الشّجاعة والجرأة والمروءة والسّماحة والفضل والوقار ما يمكنه لنصر أمته، ونصح إخوانه، فقد رحل من شمال الصحراء إلى جنوبها ينشر العلوم الدّينية والدنيوية.

تميّزت الحركة العلمية والفكرية في السّودان الغربي بقوّتها، وتأثيرها الكبير بالعقل المغربي، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى خصوصياتها باستقلاليتها عن السّلطة السّياسية، وأجازت الجهاد ضدّ الحاكم الظّالم، مثل المغيلي فإنّ حُكمه على الحاكم الظّالم حُكم الكافر، وأجاز بأولوية مجاهدته<sup>(2)</sup>.

إذا تحدّثنا عن آثار المغيلي في السّودان الغربي، فهي كثيرة وجليّة، وهي على مستويات راقية، مسّت طبقة الحكّام والملوك والعلماء؛ فضلا عن العامّة من النّاس، هذا لأنّه كان رجلاً من النّوع الخاصّ فهو يتميّز بالعلم الفائق، والفكر

(1) Henry Barth. Travels and Discoveries of North and Central Africa, vol1, new york ,1857 p. 474.

(2) Usman Muhammad Bugaje. The Tradition Of Tajdid In Western Bilad Al-Sudan A Study Of The G Enesis,Development And Patterns Of Islamic Revivalism In The Region Ad 1900-900, Thesis University Of Khartoum ,1991 , pp 74-195.

الثَّاقِب، وبعد النظر، والصَّدْع بصولة الحق حينما يسري الباطل وأهله؛ لذا كانت حركة التَّأليف لديه غزيرة، متنوعة بتنوع علوم عصره، كالتفسير والحديث والفقهِ والنَّحو والصَّرف والمنطق<sup>(1)</sup>، وقام برحلات كثيرة لنشر الإسلام، ويمكن القول أنَّ الدَّور الَّذي قام به الشَّيخ المغيلي لا يضاهيه أيُّ دورٍ قام به عالم مغربي في السُّودان الغربي والأوسط. فقد ترك بصمته، فكان قاضيا ومفتيا وقدم النصح وألَّف الكتب العديدة وقام بتصحيح مفاهيم كثيرة كانت مُغَيَّبة في أذهان عامَّة النَّاس، بل حتَّى عند أهل السِّياسة من الحُكَّام<sup>(2)</sup>. لقد تعلَّم المغيلي من خلال تجارب الحياة، والتي شملت الكثير من الصَّعاب والمشاكل والعداء الَّذي نصبه له بعض الجماعات ذات المصالح لمكانتها، ك بعض العلماء الَّذين يُطلق عليهم المغيلي اسم علماء السُّوء المرتشين، ومن خلال تجربته في نازلة توات فقد اعتبر الشَّيخ أنَّ العقبة الكبرى التي تقف أمام عملية التَّجديد، هم أولئك العلماء المرتشين؛ لذا بذل جهداً كبيراً لكشفهم والتَّحذير منهم<sup>(3)</sup>.

وبذلك يعدُّ محمَّد بن عبد الكريم المغيلي أحد العلماء الكبار الَّذين تركوا آثارهم الإصلاحية خاصَّة في الجانبين الاجتماعي والسياسي مسَّت حكماً ومحكومين في بلاد السُّودان الغربي وامتدت آثاره إلى مجاهدي مملكة سوكوتو في بداية القرن التَّاسع عشر ميلادي حينما أخذوا من كتاباته ما يحتاجونه واستفادوا كثيراً من نصائحه، كما استشهدوا بأقواله وفتاويه الدِّينية، وطبَّقوا وصاياه في السِّياسة والملك، وقد ذكر عبد الله سميث بأنَّ كل قادة سوكوتو أعطوا الاهتمام لكتاباته، والتي أثَّرت تأثيراً كبيراً على النُّخبة

(1) حدث له مراسلة في المنطق مع السيوطي.

(2) عبد الرحمن عمر الماحي، الدعوة الإسلامية في افريقيا الواقع و المستقبل، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دت، ص 113.

(3) Usman Muhammad Bugaje ، Op.cit، p161.

من المسلمين في المنطقة خاصة في الجانب السياسي<sup>(1)</sup>.

## 2- تأثر الشيخ عثمان بن فودي بالشيخ عبد الكريم المغيلي:

لم يكن لدخول الإسلام في بلاد الهوسا خلال النصف الأخير من القرن الخامس عشر ميلادي أي بعد سياسي في البداية، رغم الثقافة الكبيرة التي كان يتمتع بها علماء المنطقة، ثم أصبح الإسلام يمثل قوة سياسية في بلاد الهوسا، أدى إلى تغيرات حكومية، جلبت قيادات جديدة، خصوصاً في زاريا وكانو وكاتسينا اللاتي كن أكثر إسلاماً في بلاد الهوسا، ومن أبرز هؤلاء الحكام محمد رمفا حيث يعد من أشهرهم في كل بلاد الهوسا نظراً لما عرف عنه من الحكمة وحسن التدبير، حيث ازدهرت كانو في عهده ازدهاراً كبيراً ويعود ذلك إلى استعانتة الكبيرة بطائفة من العلماء على رأسهم الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي الذي كان في بلاطه يمارس مهام كثيرة أهمها القضاء والإفتاء إلى جانب التعليم ولثقته التي وضعها فيه أصبح من أكبر المقرئين حيث دعاه لنصحه<sup>(2)</sup>، وبتسيخ الإسلام زادت أهمية بلاد الهوسا، وأصبح يمر عليها ركب الحجيج، وكانت لمراكز التعليم المتنامية فيها خلال القرن السادس عشر ميلادي سمعة طيبة؛ مما جعل بعض مدن بلاد الهوسا تبرز كعواصم إسلامية ذات شأن بها فيه الكفاية لجذب العديد من الطلاب والعلماء، زد على هذا تقليد الحج الذي عمل على وصل المسلمين بالعالم، كما يعتبر مصدر لتدفق الفكر والأفكار الإسلامية إلى بلاد الهوسا، وكان الإسلام في القرن

(1) H. F. C. Smith, A Neglected Theme Of West African History, The Islamic Revolutions Of The Century 19, J. H.S. N, Vol. 2, No. 2, 1961, P177.

(2) Usman M. Bugaje, The Sakkwato Model A Study of The Origin, Development And Fruition Of The Jihad Of Uthman B. Fodye (1754-1817) This Booklet Was Originally A Paper Presented At An International Islamic Conference Held At Bayero University Kano - Nigeria (16th To 22nd April 1980), P4.

الثامن عشر الميلادي أكثر قوّة وتمكّناً، حيث أنّ الحكّام أشهروا إسلامهم واعتمدوا على العلماء في حكمهم.

لقد تأثر ابن فودي أولاً بعلمائه المعاصرين له في السودان الغربي تأثراً مباشراً<sup>(1)</sup>، وبحركة المرابطين، وفي الأندلس بحركة الدّعوة الإسلامية، كما تأثر بحركة الموحدّين. ولقد تنوّرت أفكار ابن فودي من تلك الحركات، من خلال أثار المغيلي في غيرته على الإسلام، والدّفاع عنه باللّسان وباليد وبالسّلاح. لقد تأثر ابن فودي بأفكار المغيلي تأثراً كبيراً، حتّى صار ينقل من كتبه كأنّما ينقل عنه مشافهة، ولقد أورد في كتابه حصن الإفهام بعض فتاوى المغيلي. وأوعز ثقل هذا التأثير إلى المغيلي ونسب ابن فودي نفسه إليه كالتلميذ الذي سمع أو أخذ منه مباشرة مع ما بينهما من بعد العهد الذي لا يقلّ عن ثلاثة قرون، ممّا يدلّ على تأثره الشّديد وتعلّقه بهذا الشّيخ الكبير، كما استشهد به أيضاً في كتابه تعليم الإخوان، ونقل كلامه وفتاويه مستشهداً تارةً و محتجاً بها تارةً أخرى<sup>(2)</sup>، هذا وقد أورد ترجمته التي نقلها من كتابي أحمد بابا التمبكتي نيل الابتهاج و كفاية المحتاج<sup>(3)</sup>

وقد بين الشّيخ عثمان بن فودي أنّه انتفع بكتبه حيث يقول: " قلت قد وقفنا بحمد الله تعالى على

بعض تواليفه، وانتفعنا بها، منها كتاب المسائل الذي ألفه لأسكيا، ومصباح الأرواح في أصول الفلاح ورسالته التي ألفها لأبي عبد الله محمد بن يعقوب سلطان كنو، وغيرها جزاه الله عنّا الخير، وجمعنا معه في علالي جنّات الفردوس،

(1) حسن عيسى عبد الظاهر، بين الدعوة السلفية دعوة الامام محمد بن عبد الوهاب و بين الدعوة الفلانية دعوة الشّيخ عثمان دان فوديو، مجلة التربية، الكويت، ص32.

(2) B. G. Martin. Unbelief in the Western Sudan, 'Uthmān dan Fodio's "Ta'līm al-ikhwān", Vol. 4, No. 1, Middle Eastern Studies, 1967, pp64-74.

(3) Ibid, p76-77.

أمين.<sup>(1)</sup>، كما ذهب بعض المؤرخين من الغرب والعرب<sup>(2)</sup> إلى فكرة ذهاب الشيخ عثمان إلى الحجّ وبالتالي تأثره بالحركة الوهابية في الحجاز، ولما رجع إلى بلاده رجع متحمّساً، فقام بحركته الإصلاحية والجهادية، لكنّ كل الدلائل تثبت بأنّ الشيخ عثمان بن فودي لم يذهب إلى الحجّ ومن ثمّة استبعاد التقائه بالشيخ محمد عبد الوهاب<sup>(3)</sup>، وكذا علماء الحجاز.

وقد أورد الألوري في كتابه تاريخ الإسلام في نيجيريا أدلّة على ذلك منها<sup>(4)</sup>:

أن الشيخ عثمان لم يغادر حدود بلاده، ولو أنّه ذهب إلى الحجّ كما يزعم البعض لكان ذلك موجوداً في كتاباته، أو على الأقل كان قد كتبه ممن سجّلوا تاريخ حياته، وأنّ منهج الرّجلين يختلفان تماماً فالشيخ عثمان مالكي المذهب، صوفي على الطّريقة القادرية، أمّا الشيخ محمّد عبد الوهاب فهو سلفي على المذهب الحنفي، كما أنّ

(1) Ibid, p77.

(2) ونذكر من الكتاب العرب والغربيين ، عبد الفتاح الغنيمي، أحمد شليبي، عبد الرحمن زكي، احمد حسن محمود، توماس أرلوند وغيرهم

(3) الإمام محمد بن عبد الوهاب (1115 – 1206هـ) صاحب الدّعوة الإصلاحية في نجد "الوهابية" ولد في بيت علم ودين في بلدة العينينة حيث كان والده قاضي العينينة، وكان الشيخ قوي الذهن فحفظ القرآن الكريم وهو صغير، ثم درس الفقه الحنبلي، ثم رحل في طلب العلم في الحجاز والعراق، وعاد إلى نجد سنة 1139هـ، وكان حريصاً على إصلاح الأوضاع في نجد بعد أن انتشرت الخرافات وعُبدت القبور، وكان له ما أراد بعد أن وقف بجانبه محمد بن سعود أمير الدرعية وأبناؤه، حتى اتسعت الدعوة والدولة لتشمل نجد وغالب الجزيرة العربية، بل تأثر بها كثير من المصلحين في العالم الإسلامي. انظر الكتب التي ألّفت عن الشيخ ومنها، المجد في تاريخ نجد، عثمان بن بشر النجدي، تح عبد الرحمن بن عبد اللطيف بن عبد الله آل الشيخ، دارة الملك عبد العزيز، 1983. أحمد بن حجر آل بو طامي "الشيخ محمد بن عبد الوهاب عقيدته السلفية"، طبع ونشر الحكومية السعودية 1395هـ.

(4) آدم الألوري، الإسلام في نيجيريا، المرجع السّابق، ص 99 وما بعدها.

موقفه من التصوف والصوفية واضح و بالتالي فهو لا ينتمي لأيّ طريقة، والأمر الآخر نجده في كتابات الشيخ عثمان، حيث لم ترد أية إشارة لدعوة الشيخ محمد عبد الوهاب أو لذكر اسمه، بينما تجليات فكر المغيلي وفتاويه واضحة في العديد من مؤلفات الشيخ عثمان، وحتى في كتابات أخيه عبد الله وابنه محمد بلّو، بالإضافة إلى أنهم يذكرون المشايخ الذين نقلوا عنهم كابن الحاج صاحب المدخل والأزرق والإمام السيوطي والشيخ محمد المختار الكنتي عدم تزامن انتشار الحركة الوهابية في شبه الجزيرة العربية نفسها وجهاد الشيخ عثمان الذي كان في ذروته.

هذه الأدلة وغيرها ترجح عدم ذهاب الشيخ عثمان بن فودي إلى الحج، وإن كان الحج فريضة من فرائض الإسلام وأمرأً واجباً على كلّ مستطيع، ومهما يكن فإنّ الشيخ كان يحثّ عليها إلا أنّ الظروف كانت غير مواتية لأدائه هذه الشعيرة.

إنّ التّراث الإصلاحي الذي اعتمده عثمان في مواعظه كان منظوياً أيضاً على جذور مغاربية. ففي القرن الخامس عشر كان المغيلي قد شجّب جملةً من الممارسات الفاسدة وغير الإسلامية في منطقة إفريقيا جنوب الصحراء. أذان الصّرائب غير الشرعية و عمليات الاستيلاء على الممتلكات الخاصّة، واستهجن سلسلة الممارسات والشّعائر الوثنية، وناهض العلماء ورجال الدين المرتشين المرتزقة المنخرطين في خدمة الحكّام، هذا مع جهلهم الكبير للغة العربية ولأصول الشرع الإسلامي. دعا المغيلي إلى تطبيق الشريعة من قبل حاكم قوي ملتزم بالإسلام وأدخل إلى إفريقيا الغربية مفهوم التّجديد، وقام عثمان بن فودي حاذياً حذوه بانتقاد حكام الهوسا على جملة المكوس ( الصّرائب ) غير العادلة وغير الشرعية، وعلى مُصادرة الأملاك، وعلى الخدمة العسكرية الإلزامية، وعلى الرّشوة، وعلى تلقّي الهدايا وعلى استعباد المسلمين كذلك وجه سهام نقده إلى هؤلاء الحكّام

بسبب إهمال الرعية وكذا عبادة الأوثان والإيمان بقدرة الطلاسمة والرجم بالغيب (التنجيم)<sup>(1)</sup>.

تعتبر حركة الفوديين الممثلة في الشيخ عثمان بن فودي قد أتت بأسلوب المغيلي في حركته الإصلاحية التي بدأها وهو في العشرين من عمره، سالكاً في دعوته أسلوب التدريس والوعظ الذي انتهجه الإمام المغيلي في رحلته للسودان الغربي والتكرور، ومتبعاً مناهج معلميه وأسلافه الأوائل، وبذلك كثر أتباعه لتدخل دعوته الإصلاحية مرحلة التحرك نحو قصر السلطان، فدرس فيه أكثر من خمس سنوات إذا كان المغيلي قد ألف العديد من الكتب في مختلف العلوم كاللغة، والحديث، والتفسير، والمنطق، واللغة، والسياسة الشرعية، فإن أربعة من مؤلفاته استشارت منظري الدعوة الفودية، وهي الرسائل الثلاث التي ألفها خلال إقامته في السودان الغربي بطلب من بعض حكامها، ورسائله الاربعة التي ألفها في نازلة يهود توات.

فإذا عدنا إلى مؤلفات عثمان بن فودي، نجد أنه اعتمد اعتماداً كلياً على كلام وأفكار الشيخ المغيلي، ففي كتابه سراج الإخوان في أهم ما يحتاج إليه في هذا الزمان، الذي قسمه إلى عشرة فصول نقل في تسعة فصول منها كلام الشيخ المغيلي في أجوبته للأسقيا، فلو حذفنا هذه النقول المغيلية لما بقي سوى بعض فقرات أو تعليقات، أو أداة ربط بين الكلام. وفي رسالة أخرى لابن فودي بعنوان تنبيه الإخوان على أحوال أرض السودان حيث خصص الفصل السادس في هذه الرسالة لذكر وصية المغيلي لمحمد بن يعقوب أمير كانوا أمّا في رسالته وثيقة أهل السودان وما شاء الله من الإخوان فهي عبارة عن تلخيص لرسالته الخاصة بشؤون الرعية والإمارة. وفي كتاب آخر له وهو حصن الإفهام من جيوش

(1) أيرام . لايدس، تاريخ المجتمعات الإسلامية، ترجمة فاضل جتكر، دار الكتاب العربي، لبنان، 2011، ص 696-697.

الأوهام كان نقله لكلام المغيلي في عدّة مواضع . وفي كتاب آخر وهو أصول العدل لولاءة الأمور وأهل الفضل فقد لخصّ فيه ما جاء في رسالة الإمارة للمغيلي، وكلام الغزالي من كتابه التبر المسبوك في نصيحة الملوك حيث عمل على تلخيص الأبواب الثمانية التي تتألف منها رسالة المغيلي في نصحه لأمر كانو، وفي رسالته المسماة: مسائل مهمّة يحتاج إلى معرفتها أهل السودان حيث نقل أيضاً من أجوبة المغيلي لأسقيا في مواضع متفرقة ويحتجّ بأقواله وآرائه<sup>(1)</sup>.

لقد تجاوز تأثر ابن فودي بالمغيلي فلم يكن ينقل عنه من كتبه فحسب بل تعدّى ذلك إلى حدّ الاقتداء بسيرته وطريقته في ردع البدع، وإلى العمل بآرائه والاقتداء بأفكاره لتدعيم مواقفه. كما أخذ عنه تقاليد التعامل مع الحكام، والعلماء هذا وكان يقلّده في طريقة كتاباته فقد كان المغيلي يختم كلّ فصل من رسالة الإمارة بعبارة يكرّرها هي: "ورأس كل بليّة احتجاج السلطان عن الرعية"، وكذلك فعل ابن فودي مقلّداً فكان يختم كلّ فصل من رسالته إحياء السنّة وإخماد البدعة بعبارة أخرى وهي: "اللهم وفقنا لإتباع سنّة نبيك ﷺ بجاهه عندك"<sup>(2)</sup>.

### 3- المصادر المغربية لحركة عثمان بن فودي:

رغم وجود نقاط التقاء كثيرة بين حركتي محمّد الوهاب في الحجاز، وحركة عثمان بن فودي في بلاد الهوسا، إلا أنّ الأدلّة التي ساقها عبد الله آدم الألوري عن عدم تأثر عثمان بن فودي وحركته بالحركة الوهابية تبين عكس ذلك<sup>(3)</sup>، والأدلّة القويّة التي تدعم موقف عدم وجود أيّة صلة بالتّيّار السلفي الوهابي، إنّما ترجع إلى

(1) حسن عيسى عبد الظاهر، المسائل المهمة التي يحتاج إلى معرفتها أهل السودان لأمر المؤمنين الشيخ عثمان دان فودي "مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية"، ع3، 201-1984، 171.

(2) عثمان بن فودي، إحياء السنّة وإخماد البدعة، المصدر السابق.

(3) نفسه، ص ص 99-102.

منايع أخرى قريبة من ثقافته التي تجمع بين العقيدة الصحيحة، وتشبته بالسنة النبوية، والمذهب الفقهي الوسطي من جانب والتربية الروحية الصوفية البعيدة عن الغلو من جانب آخر، فهذه المنايع ما هي إلا نتاج علماء كبار من بلاد المغرب الإسلامي، ساهموا بمؤلفاتهم في نشر عقيدة الإسلام ومبادئ، والسنة النبوية الشريفة، وهذا ما أكدته مؤلفات الشيخ عثمان بن فودي، ورجال حركته وعلمائها، التي لا تخلو من الاستشهاد بهم وبشكل مكثف، ومن جهة أخرى وضوح التأثير الذي تركه هؤلاء العلماء بأفكارهم القويّة<sup>(1)</sup>، ومن أشهر هؤلاء العلماء من القطر المغربي نذكر على سبيل المثال لا الحصر: ابن خلدون، وأبي عبد الله بن الحاج العبدري الفاسي صاحب المدخل الذي احتج به كثيراً واستدلّ بكتاباتهِ<sup>(2)</sup>، والشيخ أحمد زروق، والقاضي عياض، والونشريسي صاحب المعيار، وابن أبي زيد القيرواني صاحب الرسالة، وسحنون صاحب المدونة في الفقه المالكي، وأحمد المقرّي، وأحمد بن عبد الله الزواوي أبو العباس الجزائري صاحب اللامية المشهورة القصيدة الجزائرية في العقائد<sup>(3)</sup>، والجزولي في شرح الرسالة وعالم تلمسان الفقيه والمحدث محمد بن يوسف أبو عبد الله صاحب العقيدة الكبرى، الوسطى الصغرى<sup>(4)</sup> هذا فضلاً عن علماء الصحراء والسودان الغربي أمثال أحمد بابا التّمبكتي، والمختار الكنتي وجبريل بن عمر وغيرهم كثير.

(1) عبد العلي الودغيري، المرجع السابق، ص ص 74-76

(2) عثمان بن فودي، نجم الإخوان يستعينون به في أمور الزمان، تقديم وتعليق أحمد مصطفى أبو الخير، مركز أبحاث الوثائق والمخطوطات وتحقيق التراث، جامعة المنصورة، 1990، ص 24.

(3) نفسه، ص 62-71.

(4) نفسه، ص 24.

لقد كانت هذه هي المصادر الدينية والعلمية التي نهل منها الشيخ عثمان العلوم واعتمد عليها في نظيراته وكتاباتاته المختلفة، ولا ننسى أنه اعتمد أيضاً على بعض المصادر المالكية المشرقية.

#### رابعاً: تأثير الطريقة القادرية:

يكاد التصوف في هذه البلاد يكون ضرورة لكل مسلم، فما من مسلم إلا وتجده قد اتخذ طريقة صوفية منهجا في حياته، وهذا ما جنت عليه المنطقة منذ القرن الخامس عشر ميلادي<sup>(1)</sup>، فالطريقة هي أسلوب عملي ويطلق عليها أيضا المذهب والرعاية والسلوك؛ لإرشاد المريد عن طريق اقتفاء أثر طريقة تفكير وشعور وعمل تؤدّي من خلال تعاقب مراحل المقامات في ارتباط متكامل<sup>(2)</sup>.

وفي هذا الإطار تندرج الطريقة القادرية<sup>(3)</sup>، التي انتشرت في شمال افريقيا، خاصة في المغرب الأوسط الجزائر و تونس، كما انتشرت معها الطريقة الشاذلية<sup>(1)</sup>،

---

(1) حسين عيسى عبد الظاهر، المرجع السابق، ص 379. أنظر أيضا، Paul Marty, *tribus du Souda, Tome 1*, Éditions Études sur l'islam et les Ernest Leroux, Paris, 1920, pp1-20.  
(2) سينس ترمنجهام، الفرق الصوفية في الإسلام، تر عبد القادر البحراوي، دار المعرفة الجامعية، 1994، ص 26.

(3) التي تنسب إلى مؤسسها الشيخ أبو محمد عبد القادر بن أبي صالح موسى بن عبد الله بن يحيى ينتهي نسبه إلى علي بن أبي طالب و فاطمة الزهراء رضي الله عنهما، ونسبته الجيلاني ولد في جيلان سنة 471/1078م له عدة مؤلفات منها الغنية لطالبي طريق الحق، فتوح الغيب، و الفيوضات الربانية، والأوراد القادرية، والكبريت الأحمر الصلاة على النبي، و مراتب الوجود، و الرسالة الغوثية، و سر الأسرار، و جلاء الخاطر من كلام الشيخ عبد القادر، حزب إرجاء و الانتهاء، و يواقيت الحكم، و تحفة المتقين و سبيل العارفين عثمان بن فودي، تبشير الأمة الأحمديّة، مخطوط الأرشيف الوطني كادونا، المادة رقم 2، المرجع o/r6، عماد عبد السلام رؤوف، الآثار الخطية في المكتبة القادرية، ط 1، مطبعة الإرشاد، بغداد، ج 1، 1974، ص ص

حتى كانت الطرق تنتسب إلى إحدى الطريقتين، ومن الجزائر امتدت عبر واحات توات إلى إفريقيا جنوب الصحراء<sup>(2)</sup>.

ولمهامها المتعددة ودورها في توعية المجتمع فقد كان للزوايا الصوفية مكانتها العالية وسلطتها الروحية الكبيرة، وقد ارتبط انتشار الإسلام في شمال إفريقيا وغربها بانتشار الطرق الصوفية وعلى الأخص الطريقتين القادرية والتجانية، وقد زاد عدد أتباع الطرق الصوفية خصوصا التجار منهم، وقام اتباع هذه الطريقة بدورا ديني وسياسي وثقافي هام، ساهم في الازدهار الحضاري للمناطق التي انتشرت فيها، وارتبط التصوف بالعلم وكانت المحاضر<sup>(3)</sup> مقره الأساسي، وكانت معها الزوايا الصوفية كمكان هام لتدريس مختلف العلوم الإسلامية كالحديث والفقه والتفسير وعلوم اللغة إلى جانب تدريس السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي<sup>(4)</sup> كما أصبح التصوف يمثل نشوة دينية يتقرب بها المجاهدون إلى الله واللجوء إليها لمحاربة الاستعمار<sup>(5)</sup>، كما أدت الطرق الصوفية

(1) الطريقة الشاذلية، تنسب إلى مؤسسها الشيخ أبي الحسن الشاذلي (939هـ/1532م) وكان قد ظهر في مصر وبرز في مريديه في المغرب الشيخ أحمد زروق (963هـ/1493م)، ثم محمد نار الدرعي (1036هـ/1626م) وهذين الشيخين تمر السلسلة الشنقيطية، وذكر صاحب شجرة النور الزكية أن محمد الشنقيطي أخذ عن الشيخ زروق مباشرة وأخذ عنه أبو الرضاء رضوان بن عبد الله الجنوي الفاسي المتوفى 991هـ وعليه يحتمل تزامن دخل الطريقة الشاذلية مع الطريقة القادرية. أنظر خليل النحوي، مرجع سابق، ص 122.

(2) حسين عيسى عبد الظاهر، المرجع السابق، ص 387.

(3) المحاضر مفردا محضرة مكان تعليم القرآن.

(4) الخليل النحوي، بلاد شنقيط، المنظمة العربية للتربية والثقافة، تونس، 1987، ص 120.

(5) محمد حوتية، توات والأزواد خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر للهجرة والثامن عشر والتاسع عشر للميلاد، ج1، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2007، ص 177.

دورها في نشر الثقافة الإسلامية، ويحسب لها أيضا دورها الفعّال في مقاومة الاحتلال الأوربي الذي حلّ بالمنطقة طامعا في ثرواتها<sup>(1)</sup>.

### 1- انتشارها في غرب افريقيا:

تعتبر الطريقة القادرية من بين أهمّ الطرق الصّوفية الكبرى التي انتشرت انتشاراً واسعاً في أجزاء كبيرة من قارة افريقيا، بل كانت أسبق الطرق الصّوفية في كلّ السودان الغربي لنشر الإسلام وتثبيت دعائمه<sup>(2)</sup> وكان لهجرة قبائل كنتة من مراكزهم بمنطقة توات خلال القرن الخامس عشر وانتقالهم إلى ولّاية<sup>(3)</sup> ثم تمبكتو أثره البالغ في نشرها نظراً للدور الديني والقيادي البارز الذي قامت به هذه القبائل، حيث أسهموا في نشر هذه الطريقة، فضلا عن ذلك ساهموا في نشر الدين الإسلامي<sup>(4)</sup>، وحيثما وصلت موضعا أقامت فيه مسجداً، والذي يعتبر مركزاً أساسياً لتعلم أمور الدين والعبادة<sup>(5)</sup>، ومع بداية القرن التاسع عشر كانت الطريقة القادرية تسيطر على الحياة الفكرية والروحية في أكثر نواحي افريقيا الغربية مما ساعد على نشر الإسلام بشكل أوسع وأسرع فكان دخوله من حالات فردية إلى

(1) شوقي عطا الله، عبد الله عبد الرزاق، تاريخ شمال و غرب افريقيا الحديث والمعاصر، دار المعرفة الجامعية، مصر، 2012، ص 61.

(2) عبد القادر زبّاد، دراسة عن تاريخ افريقيا جنوب الصحراء، المرجع السابق، ص 231.  
 (3) تقع ولّاية إلى الشمال الغربي من تمبكتو، ومعناها الأرض المرتفعة، من أسائها "بيرو" وهي حاليا من مدن جمهورية موريتانيا الاسلامية، كانت مركزا تجاريا كبيرا، إلى جانب الازدهار العلمي، حيث وفد إليها العلماء والتجار من كل النواحي من أهل مصر وفزان وغدامس وتوات ودرعة وفاس وسوس وغيرها ثم تحول النشاط عنها إلى تمبكتو"، انظر أحمد شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، ط4، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ج 6، 1983، ص 198.

(4) R.H.Trimingham, A History of Islam in W.A, p156-60.

(5) حسين مؤنس، الطرق الصوفية و أثرها في نشر الإسلام، مكتبة الثقافة الدينية، ص 27.

حالات جماعية<sup>(1)</sup> وتعتبر الطريقة الوحيدة في غرب افريقيا من حيث الانتشار لتأتي بعدها الطريقة التيجانية<sup>(2)</sup>.

ومما يجدر ذكره أن أتباع الطريقة القادرية قاموا بدورهم في نشر الإسلام في غرب افريقيا، فكانوا خير سفراء للحضارة العربية الإسلامية، كما أنه قد برهن دعاة القادرية على أنهم أوفياء لأهمّ المبادئ التي كانوا يعملون بها في حياتهم، والتي تقوم في مجملها على حبّ الجار والتسامح وغيرها من الصفات الكريمة التي يميّز بها الإنسان المسلم المتصوّف<sup>(3)</sup>، وقد قام رجالها المتزعمون باسمها من فولانيين وسراكوليين وماسنيين بحركات الجهاد لنشر الإسلام بين الوثنيين<sup>(4)</sup>، وكان أروع تحقق لهذه الطريقة هو جهاد الهوسا في القرن التاسع عشر بوحي من عثمان بن فودي<sup>(5)</sup>، حيث وصلت الطريقة القادرية إلى ذروة انتشارها بين خلفاء سوكوتو الذين قاموا بدور كبير في نشرها بعد إسلام الوثنيين<sup>(6)</sup>.

### 3- دور قبيلة كتنة:

كان للحماسة الدينية دور في دفع الحركات الدّعوية في غرب افريقيا، مما أدى إلى نجاحها وانتشارها والتي حملت طابعاً سلمياً حملت معها أثراً بالغاً في نشر

(1) أحمد شلبي، المرجع السابق، ص 212.

(2) سينسر ترمنجهام، الفرق الصوفية في الإسلام، تر عبد القادر البحراوي، دار المعرفة الجامعية، 1994، ص 178.

(3) ارنولد توماس، المرجع السابق، ص 365، 366.

(4) عبد القادر زبادية، دراسة عن تاريخ افريقيا جنوب الصحراء، المرجع السابق، ص 231.

(5) إيوان ميردين لويس، الحدود القصوى للإسلام في إفريقيا وآسيا، ضمن تراث الإسلام، بإشراف، شاخ وبوزوروث، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 1978، ص 141.

(6) إبراهيم عبد الله عبد الرزاق، الإسلام والحضارة العربية في نيجيريا، القاهرة، 1958، ص 200-225.

الإسلام على نطاق واسع خاصّة بين القبائل الوثنية<sup>(1)</sup>، وهذا ما اعتمده دعاة القادرية من وعظ وإرشاد وتعليم، ونشر الثقافة الإسلامية مستلهمين ذلك من مختلف المؤلّفات التي ألفها زعماء القادرية باللّغة العربية<sup>(2)</sup>، ويمكن القول أنّ سيدي الشّيخ المختار الكبير الذي برز في الفترة 1726-1811م له الفضل الكبير توسيع انتشارها بالسّودان الغربي حيث نجحت في كسب قلوب الكثيرين، وقد ركز الشّيخ المختار الكبير على أهميّة الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، وإقامة الحدود، والحثّ على جهاد الكفّار، وفتح باب الاجتهاد، وأوصى بتحليّ سلوك الرّفق واللّين<sup>(3)</sup>، وحسب ما سجّله الكتّيون كان على المرید في الطّريقة القادرية أن يتحلّى بأربعة أشياء: إتباع الرّسوم وترك الإعراض ودوام الملازمة والسّعي في الأغراض وبها يعرف قدر صبره، ومنها يمتحن في مختلف السلوكات والآداب<sup>(4)</sup> وبفضل جهود الشّيخ المختار الكبير لم تصبح الطّريقة القادرية مجرد طريقة فقد هيمنت على المنطقة إلى غاية النّصف الأوّل من القرن التّاسع عشر ميلادي<sup>(5)</sup>.

زاد اتساع الطّريقة القادرية حيث امتدّ نشاطها إلى بلاد الهوسا، وكان الاتّصال بين الشّيخ المختار الكبير وقادة الجهاد الفولانيّ عثمان بن فودي (ت 1817)، وابنه محمّد بلو (ت 1837)، وشقيقه عبد الله بن فودي (ت 1828)، على ما يبدو قد تمّ في المقام الأوّل من خلال تلاميذ الشّيخ المختار الكبير الذين كانوا ينتقلون من بلاد الهوسا إلى البلاد المجاورة، فكانوا من الذين يتردّدون على تلك المنطقة قصد

(1) أرنولد توماس، المرجع السّابق، ص 370.

(2) مجموعة مؤلّفين، الإسلام و المسلمون في إفريقيا و آسيا، دار الفكر العربي، القاهرة، 2008، ص 7.

(3) Usman Muhammad Bugaje ، Op.cit, P 212.

(4) محمد حوتية، آل كتنّة دراسة تاريخية من خلال الوثائق المحلية القرنين الثاني عشر و الثالث عشر الهجري ق 18-19م، ط 1، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2008، ص 241.

(5) Usman Muhammad Bugaje ، Op.cit, P 170.

التجارة أو الدعوة، ومن أبرز هؤلاء التلاميذ ثلاثة أسماء: الشيخ ألفا نوح ابن الطاهر الفولاني الماسني والإمام الصوفي الحاج محمد العافية، والشيخ سيدنا وهيب الأموي، وكان للشيخ ألفا نوح ابن الطاهر الفولاني حين إقامته في سوكوتو دوره الكبير في تلقين الشيخ عثمان بن فودي أورايد الطريقة القادرية المختارية وأجازه عليها<sup>(1)</sup>، ويبدو أنه من خلال هؤلاء التلاميذ جاءت كتابات وتعاليم الشيخ المختار الكبير في أشعار وكتابات قادة الجهاد الفولاني<sup>(2)</sup>.

كما أن محمد بلو أخذ أورايد وأحزاب القادرية عن قاضي أمودي الشيخ الحاج محمد العافية وهو أخذها عن الشيخ المختار الكبير ثم أجازه عليها، وقد ذكر محمد بلو في كتابه إنفاق الميسور في تاريخ التكرور ورد الشيخ عثمان وهو ما يسمى بورد السلسلة القادرية الذي لقنه لأتباعه من المريدين<sup>(3)</sup>، لقد كان تلقى قادة الجهاد أورايد السلسلة القادرية من الشيخ المختار الكبير عن طريق تلاميذته، أن أصبحوا قادرين ومدامين على أورايدها، وقد امتدحوه في قصائد عديدة و طلبوا منه الدعاء لهم<sup>(4)</sup>.

وعلى ذلك تبين أن الدور الكبير لجماعات القادرية يعتبر من النماذج الإسلامية التي جعلت الصوفية سمة حضارية وثقافية باعتبار ما شيّدوه من دول، وما أسسوه من مدارس وما فتحوه من بلدان خير دليل على ما قدموه سبيلا في خدمة الإسلام في غرب إفريقيا<sup>(5)</sup>.

(1) B. G. Martin, Op.cit, p 77.

(2) Abdal-Aziz Abdallah Batran, Sidi al-Mukhtar 'al-Kunti and the recrudescence of Islam in the Western Sahara and the Middle Niger c. 1750-1811, Ph. D. Thesis submitted to the University of Birmingham, Centre of West African Studies, 1971, pp345-346.

(3) محمد بلو، المرجع السابق، ص ص 224-222.

(4) نفسه، ص ص 220-221.

(5) مجموعة مؤلفين، الإسلام والمسلمون في إفريقيا وآسيا، المرجع السابق، ص 7.

#### 4- الشيخ عثمان بن فودي والطريقة القادرية:

ثبت أنّ الشيخ عثمان بن فودي على الطريقة القادرية ولم يرغب في غيرها<sup>(1)</sup>، ورغم أنّها الطريقة الأكثر انتشاراً في غرب إفريقيا إلا أنّ أتباع هذه الطريقة وأورادها يعود لأسباب نفسية تعود على الشخص ويبدو أنّ تقبّل الشيخ لهذه الطريقة كان في أكثرها مسألة اختيار شخصي روحي دفعه للتفاني في أيّ فرع من فروع الطريقة<sup>(2)</sup>، فقد ألّف الشيخ العديد من الكتب التربوية عندما كان في سيفاوا Syfawa التي تتحدّث عن منهج القادرين وسلسلتهم<sup>(3)</sup>، ومن مؤلّفاته في القادرية السلاسل الذهبية، والسلاسل القادرية وتبشير الأمة المحمدية بفضائل الطريقة القادرية، وكان جميع مشايخ ابن فودي وإخوته وتلاميذه متسبين للقادرية، فكان لابنه محمّد بلو كتاب مفتاح السداد، وللوزير غطاط بن ليم في ذلك كتاب أسماه المواهب الربانية في تحقيق الطريقة القادرية.

وقد ساعدت هذه المؤلفات الشيخ عثمان على جعل الطريقة القادرية أكثر انتشاراً في غرب إفريقيا بالتصدي للبدع والخرافات، كما توجّه أتباع الطريقة بقوة للدراسة والتعلم للقضاء على الجهل، وصارت زواياها بمثابة مراكز للذكر والصلاة إلى جانب التعليم، وزاد شأنها حيث أصبحت مصدراً لفتاوى التشريع الإسلامي<sup>(4)</sup>.

(1) عبد الله الألوري، تاريخ دخول الإسلام في إفريقيا الغربية، المرجع السابق، ص 284.

(2) Ralph A Austen، Trans-Saharan Africa in World History، Oxford University Press، New York، 2010. P92.

(3) علي بن أيوب ناجي، لمحات عن الإسلام في نيجيريا بين الأمس واليوم، دار الكتاب الحديث، الكويت، دت، ص 89.

(4) عبد الله عبد الرزاق إبراهيم، أضواء على الطّرق الصوفية في القارة الإفريقية، مكتبة مبدولي، 1990، ص 46.

## 5- سند الشيخ عثمان في الطريقة القادرية:

لقد أصبح الشيخ عثمان بن فودي من أبرز زعماء الطريقة القادرية في بلاد الهوسا، بعد أن أخذ أورادها وأجيز فيها عن طريق الاتصال بالشيخ المختر الكنتي، وهذا ما ذكره في كتابه تعليم الإخوان عن سنده في الطريقة القادرية المتصل بالشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي حيث يقول: "ونريد أيضا أن نختم هذا الكتاب بذكر سندننا المتصل إليه رضي الله تعالى عنه الذي جاءنا من سيدي محمد المختر بن أحمد بن أبي بكر الكنتي الأموي، وهو سند ورد السلسلة القادرية أجازني به الشيخ العالم نوح وهو عن شيخه سيدي محمد المختر المذكور، وهو عن شيخه سيدي الشريف علي بن أحمد وهو عن شيخه سيدي أبي النقاب السيد الأمين لقب به لكونه يتلثم وهو عن شيخه أبيه سيدي أحمد، وهو عن شيخه سيدي الرقاد، وهو عن شيخه سيدي أحمد الفيوم، وهو عن شيخه سيدي عمر بن سيدي أحمد البكاي، وهو عن شيخه سيدي محمد بن عبد الكريم المغيلي رضي الله تعالى عنه"<sup>(1)</sup>. وبهذا السند القادري يدرج الشيخ عثمان بن فودي نفسه في سلسلة القادريين الذي ينتهي بأحد علماء المغرب الإسلامي المتمثل في الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني.

ونخلص أن بلاد المغرب الإسلامي كانت رافداً حضارياً، لإفريقيا جنوب الصحراء، وجسراً ناقلاً للإسلام واللغة العربية، ومنها انتقلت مختلف العلوم الأخرى كالحديث والفقهاء والتفسير، والبلاغة والنحو والصرف، وقد تأثرت بلاد الهوسا بكل ما هو مغربي بفضل علمائها الذين وصلوها في فترات مختلفة لنشر الإسلام، وبث العلوم من أبرزهم الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي الذي أصبح قدوة في هذه البلاد، وبفضل التصوف في الشمال الإفريقي تكوّنت الطرق الصوفية، ومنها الطريقة القادرية التي أصبحت أكبر الطرق انتشاراً في إفريقيا،

(1) B. G. Martin, Op.cit, p77.

وكان انتقالها من الجزائر عبر واحاتها بتوات إلى الجزء الغربي منذ القرن الخامس عشر ميلادي وزاد انتشارها عن طريق قبيلة كتنة وكان لها الأثر البالغ في نشر الإسلام في ربوع السودان الغربي ومن أبرز شيوخها المغيلي وسيدي المختار الكنتي وأحمد البكاي، وحمل لواءها من بعدهم في القرن التاسع عشر الشيخ عثمان بن فودي الذي يتصل سنده في القادرية إلى الشيخ عبد الكريم المغيلي، كما قاد الجهاد في بلاد الهوسا، وكثر أتباعه من القادريين الذين تعلموا أورادها.

فقدوم التجار المسلمين من بلاد المغرب ومشاركتهم بقوافلهم المحملة بمختلف السلع والمنتجات في التجارة العابرة للصحراء، واستقرار الكثير منهم مكن من توسيع العلاقات، والروابط إلى مجالات أخرى متعددة أهمها انتشار الإسلام واللغة العربية. وأظهر سكان بلاد المغرب خاصة التجار والعلماء والدعاة قدرات عالية في التأثير على الجماعات الإفريقية في بلاد السودان الغربي بترسيخ أسس العقيدة الإسلامية حتى تكوّنت أجيال من السكان المحليين قاموا بدورهم في نشر الإسلام بغربي إفريقيا، لنشاطهم وحماسهم، إذ كانوا يرسلون الدعاة والعلماء بين القبائل السودانية، وبفضل حركتهم ازداد انتشار الإسلام، كما ازداد الاتصال التجاري والثقافي بالبلاد الإسلامية عامة.

وكان للعلماء المغاربة عامة ومحمد بن عبد الكريم المغيلي خاصة فضل كبير في إنعاش الحياة السياسية والعلمية في السودان الغربي، وبذلك تمّ تشكيل العقل العلمي في السودان الغربي على مذهب الإمام مالك الذي أصبح المرجع الفقهي الأكثر انتشاراً في هذه البلاد، وانتشرت معه كتبه، وشروحه من مختلف أقطار العالم الإسلامي.

وكان أتباع الطريقة القادرية كغيرهم قاموا بدور جليل في نشر الإسلام وعقائده، حيث فتحو المدارس لتعليم القرآن، وبنّوا العلوم النقلية والعلوم

العقلية، وتاب على أيديهم خلق كثير، وقد أصبح عثمان بن فودي من أقطاب هذه الطريقة في غرب افريقيا.

وبهذه المؤثرات من انتشار الإسلام واللغة العربية وتأثيرهما الكبير، وكذا إسهامات الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي وتأثيره في المنطقة، وانتشار الطريقة القادرية أصبحت شخصية عثمان بن فودي مبنية على أسس تكوينية متينة ومنطلقات صحيحة، بها ارتسمت أبعادها ونما فكره ومنهجه التعليمي والدعوي الإصلاحي.



République Algérienne Démocratique et populaire  
Ministère de l'Enseignement Supérieur  
Et de la Recherche Scientifique  
Université de Ghardaïa



Revue

# Rawafid

*Pour les Recherche et les études*

*,Périodique international à Comité de lecture*

*Editée par le Laboratoire de L'histoire et Civilisation musulmane*

*Université de Ghardaïa- Algérie*

**N° : 01**

*Rabie-Al-Awal 1438/Decembre 2016*

ISSN: 2543-3563

Dépôt Légal:1104-2016